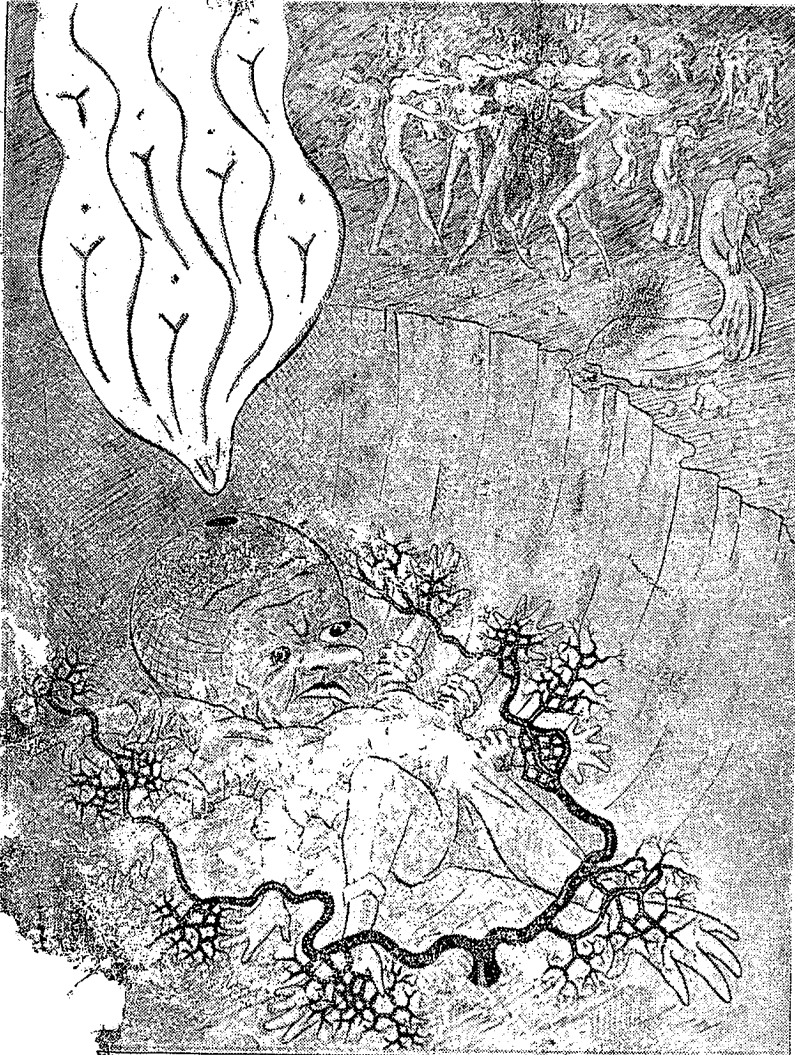
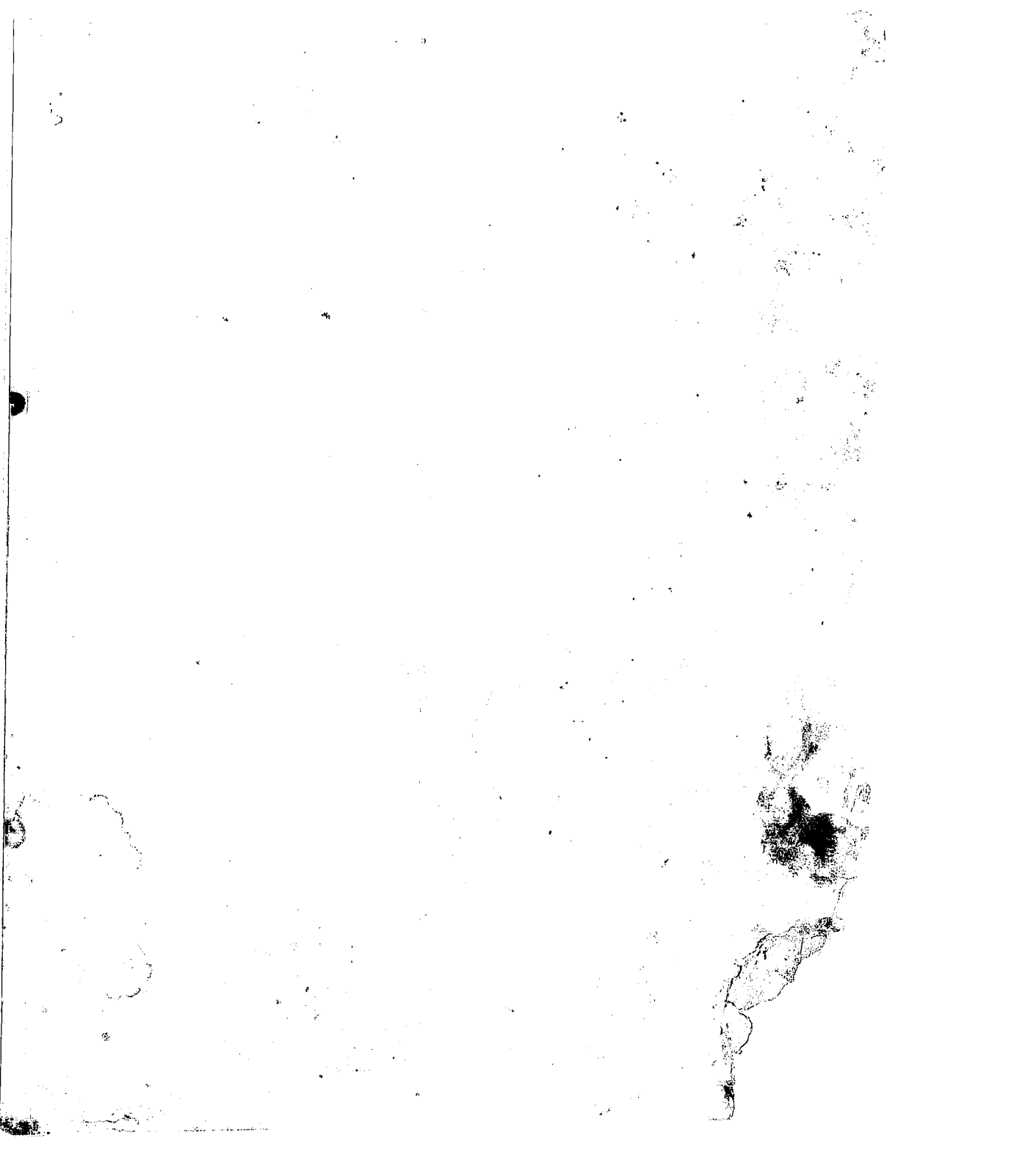


بشيرة قصته

رسالة الزلازل والأرواح



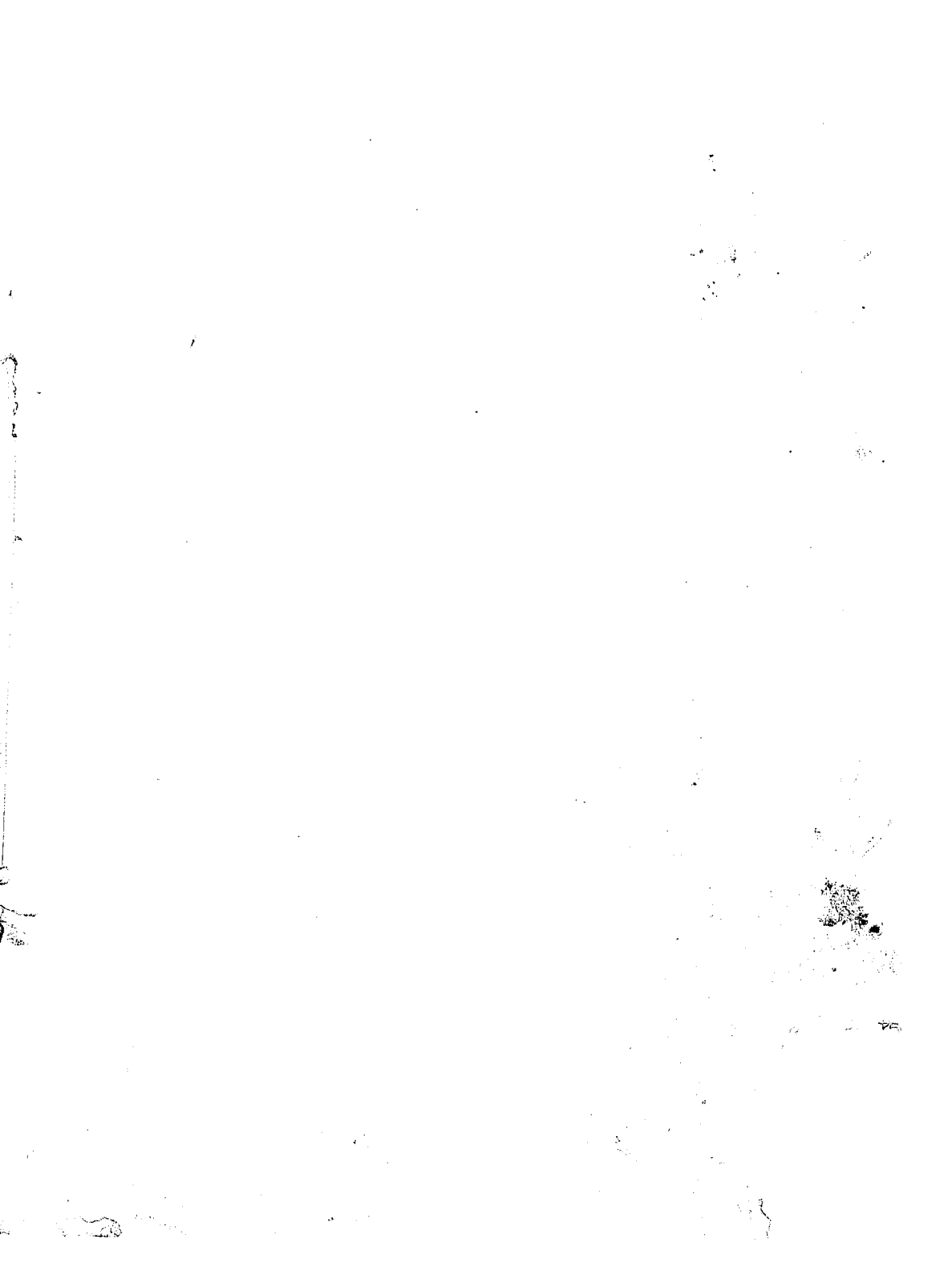
قصته



الى الأستاذ سامر السماعيل الأستاذ

مع اجبا تحيات المؤلف بـ

دكتور / ١٠ / ١٩٩٥
بـ



بشرفه

رسالة الزاح والأرواح

قصّة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق ١٩٨١

حقوق الطبع محفوظة

كتاب الفنون الجميلة

الفنون الجميلة

صورة الغلاف : من رسم الفنان الراحل عدنان ميسر

تصميم الغلاف : الفنانة منى

٢٠١٤

الأهرو

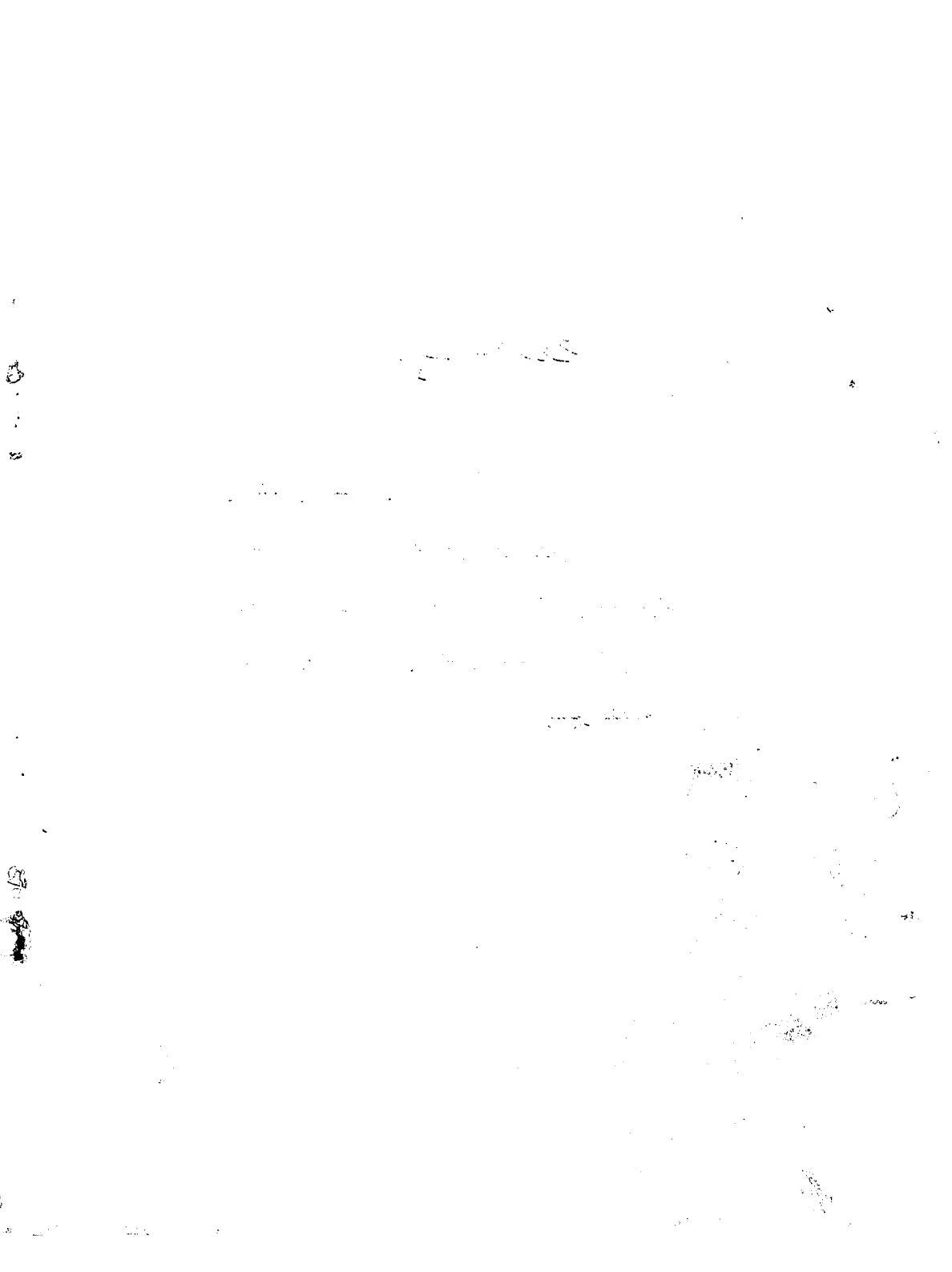
الى الشاعر القروي .

« اهدي اليك رسالة الراح والأرواح .

ولسوف ترى معي يا سيدي يا شيخ الشعراء .

« ان الحب لم ينضب ولن ينضب في القلوب . »

بشير فنصه



الأمواج

« سكبت افاريدي وللأمواج زار واضطراب »
« فصفت لتسممها الرياح وقر في الموج اضطراب »
بدوي الجبل

لا أزال أذكر لقائي صدفة بأمين اليسراوي ، بعد فراق دام أكثر
من عشرين عاماً .

حدث ذلك في مقهى « أبو هاني » المنزوي على منحني من جبل
بكفيا المطل على البحر .

كنت جالساً أحتسي قهناً من الشاي عند الأصيل في أواخر
الصيف ، وأتأمل بين فينة وأخرى قرص الشمس المتوهج ينحدر ببطء
وراء الأفق الأزرق .

لجأت الى هذا المصيف الجميل بعد رحلة مضية .

لم أعد أعبأ بنجاح أو فشل ، أو ظفر أو طفر ، كنت أشعر بالضيق
والضجر ، مما كابدت وعانيت ، وما لقيت واكتويت .

وساءلت النفس هل كنت أجري وراء سراب ، أم أن تجربتي كانت
عين الصواب ؟

راودتني في هذه الجلسة خواطر غريبة ، وهواجس مريبة ، ضاق
بها الصدر حتى أنستني الى حين مشاغلي وهمومي ، وما كنت أمني
النفس به من أعذب الأمانى •

ذكرني قرص الشمس المائل نحو الغروب ، وذكرني الموج يدفعه
الموج ، بالبداية والنهاية • • • ذكرني بالزمن المطلق ، حلم الانسان الذي
تغنى به الشعراء • • • ذكرني بما ابتكره عقل الانسان البدائي من أوهام
نسج منها أسطورة الخلود •

أهكذا تنقضي دوماً أمانينا وتمضي ليالينا •

أهكذا يظل وهج الشمس يتدفق ، وموج البحر يضطرب ؟

أهكذا تظل الرياح تئن ، والأرواح تضطرب ؟

ذكرني ذلك بالأسطورة اليونانية ، تلك القائلة بأن الآلهة كلما
نزلت الى البحر تجدد جلدها وغدت حية فتية أبد الدهر ، كما تفعل
الشمس فتغرق في البحر عند المساء ، لتشرق من جديد على الأرض
عند الصباح •

الآن اني سوف أنظفء إن عاجلاً أم آجلاً ، كما ستنظفء
الشمس ذات يوم ، ولا يعود ثمة مارج من نور في الكون ، ومن منا
لا يحسب نفسه انه محور الكون !

قلت في سري : ما عليّ الآن الانتظار ، كما أوصى بذلك العلامة

اينشتاين فتاة ساذجة طرحت عليه مرة هذا السؤال : ماذا لو انطفت الشمس وساد الظلام ؟ فأجابها متفائلاً : ما علينا الا الانتظار . قد يحدث ما ليس في الحسابان .

وعنّ لي خاطر غريب . ترى ماذا لو طرحت مثل هذا السؤال على صاحبي أمين اليسراوي ، العالم ، الأديب ، المؤرخ ، العصبي المزاج ؟

ألا يلقي بي في اليم ويقول : اذهب وجدد جلدك واستعد شبابك !

عادت بي الذاكرة الى سيرتي مع أمين منذ عشرات السنين ، مذ كنت يافعاً ، وكان هو رجلاً شديداً البأس ، صعب المراس ، مكافحاً منافحاً في سبيل ما يراه انه حق ، ولو أن قوله الحق لم يدر له صديقاً تقريباً ، الا ما ندر من أمثاله المشتتين في أنحاء مختلفة من العالم . وكنت أنا من بين من ندر من هؤلاء الأصدقاء عندما جمعتنا الصدفة في زنزانة واحدة في السجن العسكري ببيروت ، وحكم على كلينا بالاعدام ، ثم نجونا من الموت رمياً بالرصاص باعجوبة من الأعاجيب .

بيتما كانت تراودني مثل هذه الخواطر والهواجس ، حجب عني شعاع الشمس المرتعش ظل ثقيل لا يتحرك قلت دون أن أرفع رأسي لأرى من يقف أمامي :

— أبعد ظلك الثقيل عني يا هذا .

سمعت صوتاً لا نبرة له ولا جرس ، كأنه صادر من أعماق الماضي السحيق :

— قم وأهض يا « ديوجين » العصر الحديث أنسيت الرجل الذي كنت تفتش عنه في رابعة النهار وفي يدك المصباح ؟

ظفرت الى صاحب الظل غير مصدق ناظري ، وحدقت به ملياً
ثم هتفت :

— أمين اليسراوي •

— نعم أمين اليسراوي •

نهضت وصافحته بحرارة • كان يتوكأ على عصاه التي لا تفارقه
في غدوه ورواحه ، كأن له بها مآرب أخرى • لقد اشتعل رأسه شيباً ،
ولكن بريق عينيه ما كان ليخبو يوماً ، ولو أن الغضون قد ازدادت في
وجهه عمقاً •

قلت وأنا شارداً الفسك :

— أتصدق اني كنت أبحث عنك الآن ؟

قال : وأين كنت تبحث عني ؟

قلت : في خاطري !

قال : حقاً ••• قد يحدث ذلك أحياناً في تواتر أو توارد الخواطر •••

ولم لا أصدقك ؟

وحدجني بنظرة غريبة ، وراح كل منا يتأمل صاحبه برهة •

قال : ها قد غربت الشمس •• هيا بنا الى داري قرب النبع •

وعلى الطريق الى البيت التي يفوح من جوانبها أريج الأزهار ،

استعدنا بعض ذكريات الماضي القريب منه والبعيد • وعلم مني بداهة

ما كنت أعاني من صروف الدهر ، وعنت الحكام ، وتقلب الأيام ، ولم

ضطرنني الى شرح أطول •

قال : ستحل عندي ضيفاً معزراً مكرماً وسأبعث بمن يأتي بحقيبتك
من الفندق •

قلت : •• ولكن يجب أن أسدد ما علي لصاحب الفندق •

قال : ان أهل هذه القرية لا يقبلون بأن يسدد ضيوف اليسراوي
ما عليهم من حساب •

x x x

دخلت « الفيلا » الصغيرة ذات الطابقين قرب العين • وكان أجمل
ما فيها حديثتها المزدهرة المنسقة تنسيقاً بديعاً ، وشعرت بالسعادة لسعادة
صاحبي ، ولإحساسي بأنه سيقضي ما تبقى من العمر بسكينة واطمئنان
في هذه الجنة الأرضية ••• أو هكذا حسبت •

فادى أمين على مريم مديرة المنزل ، فجاءتنا هاشة باشة ، وكانت
بهية الطلعة ، ولو أن السن تقدمت بها قليلا ، وكانت نظراتها تنم عن
طيب أرومة وذكاء حاد ، وبعد أن عرفها أمين علي ، أوصاها بأن تعد
لي غرفة في الطابق العلوي ، وأن تلبني طلباتي دون استئذان منه بشيء •

قلت : اني متعب قليلا وأود أن أخلو الي نفسي بعض الوقت ولا
أريد أن أثقل عليك بأسئلتني الكثيرة ، كما لا أريد أن تحطم أعصابي
بفيض من كرمك الطائي • وأضفت الي ذلك مداعبا : لا أنا عزيز
قوم ذل ، ولا أنت حاتم الطائي •

قال ضاحكاً : افعل ما يحلو لك فالبيت بيتك ، فأنا الضيف وأنت
رب المنزل • أيرضيك هذا يا ديوجين ؟

وغادرنى لشأته ، ولزمت غرفتي ، ولم أره الا في صبيحة اليوم
التالي عندما هبطت الى الحديقة مبكراً ، لأتشفق نسمات الصباح ،
فألفيته هناك يقف ساهماً أمام وردة حمراء متفرعة في وسط الحديقة
يحيط بها جوض من الآجر الأحمر •

لم أقطع عليه صلاته في الصباح ، واتتحت جانباً من الحديقة تحت
شجرة الياسمين •• كنت أحب الياسمين حباً جماً • انه في تجدد دائم ،
وتشير في رائحته الزكية ذكريات غامضة •

كذلك أمين كان يحب الورود ، ولا سيما هذه الوردة الحمراء
بالذات - كما علمت منه فيما بعد - فلها في نفسه ذكرى وأية ذكرى
عاطرة عابقة •

كان لكل منا على ما يبدو ذوقه وأحاسيسه وذكرياته المرتبطة
بالمؤثرات الشريطية الجمالية ذات العلاقة بالأزهار وسواها من أشكال
الفن والجمال والابداع •

مرّ بقربي شارداً دون أن يعبرني التفاتا ، حتى دون أن يلتقي عليّ
تحية الصباح ، وغادر الحديقة •

x x x

قرعت مريم باب غرفتي بعد القيلولة ، فأذنت لها بالدخول • قالت
وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة باهتة :

- ان الشيخ بانتظارك في الحديقة لتناول الشاي •

هبطت الحديقة على غير عجل من أمري ، فشاهدته منزوياً في
الجانب الغربي منها تحت العريشة ، أمام مائدة رصفت عليها أواني
الشاي وزجاجة من الويسكي الفاخر .

صب لي قدح الشاي ، وصب لنفسه قدحاً من الويسكي ،
وابتدرني بقوله :

— اشرب شايك المفضل ، وأنا أشرب كأس من الويسكي الذي
وصفه لي طبيب ألماني كعلاج التصلب الشرايين وآلام المفاصل .

قلت : هل وجدت أخيراً في الراح خير علاج

تأوه وقال بلا مبالاة : وداوها بالتي كانت هي الداء ولا
تسألني عن صحتي . صحتي هي العجب كما قال ابن هاني مع تحريف
في بيته :

دبّ (النشاط) في سفلا وعلوا وأراني (أعيش) عضوا فعضوا

اني لا أحب الحديث عن السقام ولا الموت . . . سناواصل مسيرتي ،
ولو توكلت على عكازتي كما يقول أهل الصوفية . . . ثم ما الفائدة اذا
قلت لك دبّ (السقام) سفلا وعلوا ؟ اني لا أحب الشكوى والتفجع .

وسكت برهة ثم قال : ما اسمك اليوم ؟ لقد عرفت لك عدة أسماء
في عهد الكفاح

قلت هازئاً : لا يزال اسمي الأول ساري المفعول .

قال : لا تهمني الأسماء في شيء ، انها تتشابه في كل زمان ومكان .
ولكن الذي يهمني ما تركته وراءك من عطاء وانتاج .

قلت : لا شيء • اذ لم يجسر فاشر على طباعة مخطوط من مخطوطاتي. سواء أكانت أدبية أم تاريخية •

قال : أتدري أنني أفضل أن أطلق عليك دائماً لقب « ديوجين » الحديث المسكين ، كما كان يحلو لبعضهم أن يطلق هذا التشبيه عليك... ألا تزال كارهاً للمال والجاه والسلطان ؟

— نعم • • وأنت ماذا كانوا يطلقون عليك ؟

— لقد نعتوني بأكثر من وصف و نعت ، فتارة كانوا يسمونني بهيئة الأحق ، وأخرى بالوطني المجنون ، أو الاشتراكي المأفون ، ويسخرون — كما تعلم — من دعوتي الى التحرير ، ويتساءلون كيف يمكن لأمثالي من المستضعفين قهر جيوش الاحتلال وأساطيل الانكليز والفرنسيين والاطليان • وهل يستطيع قوم عزل من كل سلاح أن يقفوا بوجه طغاة الامبريالية والاستعمار ، أمثال الجنرالات النبي وفوش وساراي وويغاند وبتان ، والدكتاتوريين الفاشيين الكبار أمثال هتلر وموسوليني وفرنكو وامبراطور اليابان ؟

واستطرد قائلاً :

— أتذكر الحملات الشعواء التي كان يشنها ضدي بعض رجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب لأنني طالبت بعلمانية الدولة ، ودفن الطائفية ، وتعليم المرأة وتحريرها من الجهل • ألم يحرضوا عليّ السلطان والسلطات وعلى حرق مؤلفاتي ، ثم أصدروا فتاواهم — وما كثرها من فتاوى — بأن أحلوا سفك دمي ؟

قلت : أذكر ذلك جيداً . اذن فلا فرق بين « ديوجين » الأبله
وهبنقة الأحمق .

وضحكنا طويلاً من بلاهتنا وحمقنا .

× × ×

كانت تلك الزاوية من الحديقة تطل على الوادي الأخضر ، وادي
الصنوبر العتيق ، وبدأت أشعة الشمس بالإحساس عن قمة الجبل ببطء
وران علينا صمت عميق حزين .

لم تكن ذكريات الماضي بالذكريات السعيدة ، ولم يكن حاضرنا
بأفضل من ماضينا ، ولم يكن يلوح لنا في الأفق بارقة أمل مشرق أو
مستقبل باسم زاهر .

أفلا يحق لنا أن نسخر من أنفسنا ، ونضحك من جهلنا ، ونردد
مع شاعرنا يا أمة ضحكك من جهلها الأمم .

سألته : هل أصابت مؤلفاتك نجاحاً يستحق الذكر بعد الثلاثينات
وغدوت بفضلها تنعم بشيء من رغد العيش ؟

قال : لا . . . أنت تعلم أنني حين أكتب لا أفكر بربح ، والا لما كتبت
ما كتبت ، ومع ذلك فإن مؤلفاتي لم تعوض عليّ ثمن الجبر الذي أهدرته
في تدوينها . . . ماذا تنتظر من أمة تنفسي فيها الأمية بنسبة ثمانين بالمئة
من خليجها الى محيطها . أما العشرون في المئة المتبقية من المتعلمين أو
أشباه المتعلمين ، فلا يوجد بينهم أكثر من واحد بالمئة يميل الى المطالعة ،
حتى ولو قرأ هذا الواحد بالمئة شيئاً فإن أكثرهم يفضلون كتب

المساجلات الدينية ، وما يثير منها بوجه خاص النعرات الطائفية والمذهبية ، ومن ثم هناك جمهور قراء القصص والأساطير ، والروايات البوليسية وأقاصيص الاثارة الجنسية * أما عملي في حقل الصحافة فلا تسلني عما عانيت منه وكابدت ، ولكن حمدا لله فلم يعد ثمة ما يسمى بصحافة في هذا الوطن الكبير ، وكفى الله الصحفيين وحملة الأقلام شر النقد والنضال * ولولا أن أخي الصديق في المهجر يمدني ببعض المال ، بين آوثة وأخرى ، لكنت تجدني اليوم أدفن نفسي وراء منصة في مقبرة من مقابر الصحف الميئنة أدبج البلاغات الطويلة السمجة ، وأظلم المدائح الربانية في سلاطين وملوك وأمراء وقواد الأمة العربية *

سألني أخيرا : وأنت ماذا تعمل اليوم ومن أين تعيش ؟

قلت : أعيش على تقاعد عامل بسيط *

— اذن فقد اشتغلت عاملا طوال المدة التي لم أرك فيها ؟

— نعم .. عامل يأكل خبزه بعرق الجبين خير من صحفي مأجور

أو هتاف مجوم *

تضحك ووقف ويده الكأس وقال : لنشرب اذن نخب الكلية^(١) .

(١) الكلية اسم المدرسة اليونانية الفلسفية التي كان ينتمي اليها الفيلسوف « ديوجين » الذي اشتهر امره على مر العصور واصبح رمزاً لكن من يحتقر المال والجاه والسلطان . ومما يروى عنه أنه كان يحمل مصباحا في النهار ويدور بين الناس في اثينا ويقول انه يفتش عن رجل . وتعتبر كلمة « الكلية » ترجمة للمصطلح اليوناني (Cynique) نسبة الى المدرسة المذكورة .

قلت : لا ، لنشرب نخب الهامشية •

ما ان صدر عني هذا التشنيع فيه ، أو انه حسب ذلك تشنيعا ،
حتى تطاير الشرر من عينيه وقال غاضبا :

— ويحك أتهمني أيها الكلبي بالهامشية وأنا الذي كنت في طليعة
المناضلين من أجل الحرية ؟

قلت : مهما يكن الأمر فالهامشية خير من الكلبية في نظري •
هدأت تأثرته بعد قليل وعاوده اتزانته وقال :

— دعنا من احاديث الماضي ، ومن شعارات يسقط ويعيش ، فذلك
لن يجدي نفعا •• دعنا من الأفكار الصيانية ، فقد ولني عهد كنا فيه في
سجال مع أنفسنا ومع الآخرين •

وأطرق قليلا ثم قال : لا ريب ان الانسان مهما تقدمت به السن ،
فيظل الطفل كامناً في أعماقه •

قلت ضاحكا : اذن فلنشرب نخب الطفلين الكبيرين الخائبين •

— نعم لنشرب نخب الأطفال • ليس في الدنيا أطيب من قلوبهم
التي لم تلوثها الأوجال •

ارتشف كأس الخمرة حتى الثمالة ثم قذف بالكأس الى الوادي
العميق •

لم تكن لي حاجة الى تعليل هذه البادرة العصبية منه ، فقد عرفته
من قبل يقدم على مثل هذه التصرفات الصيانية تنفيساً للكرب أو
تفريفاً لشحنة من طاقة فيه أرادها أن تذهب هدرا •

كان يقول لي أحياناً : انك لن تستطيع معي صبراً ، ولكنني صبرت
وعانيت وكابدت ، مهما اختلفت معه في الرأي وفي سلوك الطريق نحو
هدف ما ، بيد أننا كنا في جميع الأحوال نخرج متصافحين عملاً بنصيحة
فولتير الحكيم •

x x x

في صبيحة اليوم التالي لمحت « أمين » من نافذة غرفتي العلوية ،
يتنقل في الحديقة بين أزهاره ووروده ، ثم يقف خاشعاً متعبداً أمام وردته
الحمراء ، ويظل دقائق معدودات على هذه الحال ، ثم تحول عن وردته
وغادر الحديقة في نزهته الصباحية الى رأس النبع •

خطر لي أن ألحق به ، ولكنني آثرت أن أدعه وشأنه ، ورحت
أنساق الجبل بمفردي ، وأنا أستمتع من بعيد الى شدة فيروز • وهل
ثمة شادية غيرها في هذا الجبل الضاحك •

كانت نزهة منعشة مع اطلالة الصباح ، أعادت اليّ صفاء الذهن
وهدوء البال •

ولما عدت الى الدار سألت مريم عنه ، فقالت انه منزوٍ في مكتبه
في الطابق الأول وانه منصرف الى الكتابة •

دخلت محرابه المقدس دون استئذان ، اذ كان الباب مفتوحاً على
مصراعيه ، فلم يشعر بوجودي الى جانبه • كان مستغرقاً في انشائه
كاستغراق الحالم مع أطيافه •

همست هازئاً : أما زلت تسود هذه الصفحات البيضاء بأفكارك

الآثمة « الهدامة » السوداء كما كانوا يصفون ؟

رفع رأسه ونظر الي " كمن لا يراني ، وعاد الى متابعة عمله ،
وسمعتنه يقول كمن يناجي طيفاً من أطيافه أو شخصه ، لا كمن يرد على
سؤال أحد يقف فوق رأسه •

— ستكون حروفي مارجاً من نور في يوم من الأيام •••

نظرت فيما حولي الى الكتب المقدسة هنا وهناك بلا تنسيق ولا
نظام • كان بعضها يبلغ سقف الغرفة ، وكان بعضها الآخر مبعثراً على
المكتب والموائد والرفوف •••

ضحكت في سري أن يكون لثل هذا الكاتب الكبير ، المستقيم
التفكير ، مثل هذه المكتبة المشوشة بلا تنسيق ولا تديير • ورحت أقلب
بعض الكتب أمامي ، فإذا أنا أمام كنوز من الثقافات العربية والفارسية
والفرنسية والانكليزية ، ومن بينها كتب لم أرها ولم أسمع بها من قبل
لكتاب مغمورين منسيين ، وراعني ان عثرت على مجموعة من المخطوطات
بخطه بالذات كتب على غلافها الأول بخط أحمر عريض : (مرفوض) •

أدركت السر على التو في سبب رفضها وعدم السماح بنشرها •

سمعتنه يناديني ويقول : خذ واقرأ هذا الكتاب الجديد ••• انه
آخر كتاب بعث به الي أخي من المهجر •

تناولت منه الكتاب ، فإذا به يحمل عنوان (أخي أرانست همنغواي)
من تأليف ليسستر همنغواي • وتصفحته قليلا ، فإذا به يروي سيرة
ذلك الأديب العالمي الذي حزن العالم بأسره لمصرعه أو انتحاره •

تأبطت الكتاب وخرجت من المكتبة لأنصرف الى مطالعته ، فقد كنت أتوق كثيرا الى معرفة الاسباب الحقيقية الكامنة وراء اقتحار همنعواي ، أجزأ من عرفت من الكتاب المعاصرين •

التقيت بمریم تحمل القهوة الى صاحبي وأنا أهم بالصعود الى غرفتي ، فسألتها مازحا :

— الحق يا مریم انك مهملة جدا •• كيف لا تساعدین شیخنا في ترتيب مكتبته وتنسيقها بما يليق ومكاته العلمية وحاجته السريعة الى اتقاء مراجعه وتنظيم بحوثه ؟

قالت : انه يحظر عليّ أن أمد يدي الى أي كتاب من كتبه •• انه يعرف الكتاب الذي يريد ولو كان في الظلام فيمد يده ويتناوله • ان ذاكرته قوية جدا في هذا المجال ، وهو سعيد على ما يظهر بهذه الفوضى المكتنية من حوله •

وأردفت قائلة : مهما يكن من أمر فهذه مكتبة عمل لا مكتبة استعراض ونظر ••

× × ×

عند المساء جلسنا في الحديثة حول المائدة تتجاذب أطراف الحديث •

قالت له : اني لا أصدق أن يعمد انسان كبير القلب ، ثابت الجنان ، مثل همنعواي الى الاقتحار بهذا الشكل الرهيب الذي وصفه أخوه في الكتاب الذي أشرت عليّ بمطالعتة •

أجابني وهو شارد اللب :

— الانتحار ... الانتحار قضية محيرة جداً ، حار في تعليلها
أساطين الاجتماع والطب ولم يتوصلوا بعد الى نتيجة محسوسة • أهى
حالة مرضية أم لا • أهى جنون طارىء أم مخلفات وراثية طبيعية في
الانسان • فتلفظ الطبيعة في سيرورتها الانتقائية من يتخلف عن نواميسها •
ويرى بعضهم في القتل أو الانتحار طريقاً الى الحرية والانطلاق •

وهنا قاطعته بقولي : حتى ولو قتل الانسان نفسه ؟

استطرد قائلاً : نعم حتى ولو قتل الانسان نفسه ، اذ يقولون عن
همنغواي ان الرعب عنده في عدمية الحياة = وكان همنغواي نفسه
يقول انه يريد أن يموت كالبشر لا كالحيوانات • في الواقع لست أدري
أينبغي أن يموت الانسان منتحراً أم مصارعاً ببطولة من أجل الحرية • • •
الحرية بأسمى معانيها وأبعد حدودها • لقد عالج مثل هذا الموضوع
الحساس « دوركهايم » وسواه من العلماء من ذوي الاختصاص ، فمنهم
من ذهب الى أن الانتحار عمل بطولي خارق ، ومنهم من اعتبره نوعاً
من الجنون الطارىء • حقاً ان انتحار همنغواي على هذا الشكل يثير
العديد من التساؤلات •

قاطعته بقولي : هل فكرت أنت بالذات يوماً بالانتحار رغم مرضك ؟

أجابني محتدماً : لا • • • لم أفكر بالانتحار ولم يخطر لي ببال في
يوم من الايام • ان الحياة بنظري مقدسة • أما اذا كنت ترمي من وراء
تساؤلك ان الكفاح من أجل الحرية هو ضرب من الانتحار فهذا شيء
آخر وموضوع معقد قد يجرنا البحث فيه الى متاهات بعيدة جداً • اني
أرى في التفاؤل بلسماً وشفاء للنفوس الملعذبة • اني أعرف من أصيب
بداء السرطان القاتل وحكم الأطباء عليه بالاعدام بعد أشهر

معدودات ، ولكنه عاش بعد هذا الحكم سنوات وسنوات •• فعلام العجلة •• ولماذا تطرح عليّ مثل هذا السؤال ؟

شعرت بالطمأنينة عليه ، وقلت مواسيا : لكي أتأكد انك لن تحذو حذو همنغواي فنتنحر ••• ذلك اني أعلم أن الانتحار - بالاضافة الى ما ذكرت أنت - قد يكون في بعض الحالات تقليدا جماعيا ، أو تقليعة من التقليع ، كما تقرأ ونسمع في الصحف والاذاعات حول انتحار طائفة من الطوائف المذهبية مع كاهنها الأعظم أو جماعة ارهايية ذات معتقدات وايدولوجيات معينة أو غير واضحة ولا معينة •••

قال : لا تخف علي فلست من المقلدين ولا المتعصبين ، ولست لين العريكة الى الحد الذي تتصور معه أنني قد أخضع لمؤثرات كهرومغناطيسية يعيشها في نفوس الناس زعيم أحق مافون فيسوق جماعة كبيرة ، أو قل أمة بأسرها الى الانتحار • كما اني لست من العبيد الذين ينتحرون ليشبوا لأسيادهم انهم أسياد أنفسهم ولا سادة فوقهم •

أقلت هذا الحديث المر داعياً له بطول البقاء •

تناول كأس الويسكي التي لم يمسهها بعد وارتشف منها جرعة كبيرة وقال : دعنا نستمع قليلا الى موزار • وضغط على زر المسجلة ، فصدحت بالسمفونية التاسعة والثلاثين باسم الاله جوييتر ، ومن بعدها السمفونية الاربعين ذات اللحن الحائر المحير •

أغمض عيني وهو يستمع الى موزار كمن غشيته ثسوة صوفية •• الى أن قال :

- ان في هذه الموسيقى ما يتجاوز الزمن ••• ويسمو على

اللاشعور ، ويرقى بالفكر فوق الحدود • آه كم كان موزار مرهف
الحس ملهماً بما يفوق الالهام الانساني ذاته • صدق يوماً ان قال : إن
فنه وإن كان محلقةً في السماء ، فان عقله لا ينسى انه مرتبط بهذه
الأرض العتيقة •

وأدركنا الليل ، ولمعت النجوم ، وكانت أبصارنا شاخصة الى
السماء ••• الى المجهول •

x x x

هبطت مبكراً صباح اليوم التالي الى الحديقة • كانت الفراشات
الزاهية تحوم هنا وهناك •

دفا أمين مني وقال : أراك سعيداً بالزهور والفراشات من حولك
تحوم ؟

قلت : جداً •

ودار بيننا حديث عابر فيه تحديات وتساؤلات ، فاستهله بقوله :
- كلما نظرت الى هذه الفراشات الزاهية الألوان ، كأنها الأزهار
الطائرة وهي ترفرف حولي أتساءل :

تري أية قوة كامنة دافعة لتخرج هذه الفراشات الى الوجود بهذا
الشكل البديع الرائع وبهذه الألوان الزاهية وتلك الحركة الدؤوب ؟
- انها غريزة البقاء •

- لا تلقني درساً في علم الأحياء • اني أتساءل حتى عن السر
الكامن وراء غريزة البقاء هذه والفرائز الأخرى •

لزم الصمت برهة ثم قال :

— كنت أشعر بالحزن والأسى وأنا لا أزال صغيراً في المدرسة كلما شاهدت رفاقي يصطادون الفراشات في باحة الملعب بشباكهم ليغرسوا الدبابيس في صدورهم كالحراب ، وليثدوها حية بين صفحات كتبهم ودفاترهم ، لكنهم كانوا يسخرون مني في كل مرة أعارضهم في فعلتهم المنكرة ، وأصرخ في وجوهم : حرام عليكم أن تقتلوا تلك الفراشات الجميلة ، الا انهم كانوا يمضون في عبثهم ضاحكين مكشرين ... كانوا يقتلون الفراشات ويدوسون الأعشاب الطرية ، ويقصفون أعمار الأزهار الندية وبعضها لا تزال براعم لم تتفتح بعد • أنراها كانت تلك بداية الروح العدوانية فيهم ؟

وكف عن الحديث بغتة ، وتوجه الى وردته الحمراء في وسط الحديقة ، ووقف أمامها برهة متأملاً كعادته ثم غادر الحديقة دون أن ينطق بكلمة ودون أن يدعوني الى مرافقته في نزهته الصباحية الى رأس النبع • ولم أكن أود أن أطلب اليه ذلك •

لحظت عليه هذه المرة وهو يتابع سيره خارج السور ، انه يميل قليلاً ذات اليمين ويتوكأ على عصاه كمن يشعر بألم في رجله • وكان يحمل في يسراه جعبة كبيرة لم أدر ما حوته من أشياء •

x x x

بعد أيام مضت ، دخلت عليه ذات صباح المكتبة ، فألقيته منكمأ في البحث عن شيء ما في الدروج وعلى الرفوف وبين المصنفات والملفات •

سألته عما يفتش ؟

قال : رسالة الشياطين ••• نعم رسالة الشياطين ••• يا للشيطان أين طارت ؟ انني أذكر منذ زمن بعيد أن بعضاً من صفحاتها قد دسسته في مكان ما ••• لقد بدأت ذاكرتي تخذلني والنسيان يضيعني • أتعلم انها الرسالة الوحيدة لصاحبنا المعري التي لم يعثر المستشرقون بعد على نصها الكامل •• لقد عثروا على رسالة الغفران ورسالة الهناء ورسالة الملائكة •• أما رسالة الشياطين فلم يوفقوا بالعثور على نصها • لقد كتب اليّ أحد كبار المستشرقين أن أوافيه بما عندي من آثار باقية لها ••• هل تعلم اني أعيش بقية العمر مع صاحبي المعري واني أشعر بانحداد روحي عميق وإياه •• ؟

طفقت أبحث وأتقب معه علني أعثر على ضالته ، وتذكرت أن فيلسوف الفريكة الريحاني سبق وكتب رسالة الى المستشرق الروسي « كراتشكوفسكي » يستفسر بها عن هذه الرسالة التي تعتبر على جاب كبير من الأهمية بالنسبة للتحقيقات العلمية في فلسفة وأدب المعري ، وكان ذلك في الثلاثينات من هذا القرن •

إلا اني لم أعثر على شيء ، وتركته يواصل بحثه عنها وأنا أشعر بغصة ولهفة •

x x x

جلست قبيل الغروب في المكان المعهود المظل على الوادي الأخضر
أرقب عودة أمين •

لقد تأخر هذه المرة عن مواعده ، ولا أدري الى أين ساقته الرياح
أو الى أين قادته عصاه في ترحاله • انه يضرب أحياناً في دروب الجبل
تائها بلا هدف •

بعد ساعة تقريبا ، عاد منهوك القوى ، واسترخى على مقعده
وتمطط وتأوه •

— ما بك ؟

لم يجب بشيء وشرد ببصره الى بعيد • وجاءتنا مريم بما نريد ،
فصب لنفسه كأساً وتجرعها دفعة واحدة حتى الشمالة وقال :

— هكذا فصحنى الطبيب الألماني أن أفعل ••• جرعة واحدة
فقط • يا له من حكيم •

— لا تبرر شهوتك الى الشراب أكثر من ذلك ••

بعد صمت قصير قال :

— أتعلم ما يحيرني في هذا العجوز نعيمة الذي يطلقون عليه شيخ
أدباء الجبل ، الذي عرف بأسلوبه الواقعي وبعده عن الغيبات
والخرافات ، أمسى اليوم من الذين يؤمنون بالأطياف والأشباح ويقول
بتناسخ الأرواح •

لقد زرته اليوم وجلست أستمع اليه طويلاً وهو يردد على مسامعي
آخر مكتشفاته في عالم الأرواح والأشباح ••• ولما قلت له اني لا أومن
بمثل هذا الهراء ، انما أومن بنقص الأفكار مع تطورها بتطور الحياة
والانسان ، جيلاً بعد جيل ، قال ان الأمر يختلف كل الاختلاف بيني
وبينه • وعندها أدركت اني أمسيت أمام رجل يعرف بما لا يعرف ،

بدافع من تقدمه في السن أو ربما خيل اليّ ذلك ، لأن ليس كل من
تتقدم به السن يتعلق هكذا بأهداب الحياة والبقاء متوسلاً بالأوهام
والأرواح فيحاول أن يتكر مبرراً لفنائه مع كل فان • وهذا واني على
الرغم مما أكنه له من محبة وتقدير ، قررت ألاّ أعود اليه لسماع مثل
ذلك التخريف • واني أرى اليوم فيما رآه صاحبه جبران رؤية كانت
أوضح وأعقل ، اذ كان يعني في جمع ما كتب ورسم ، ان كل المرئيات
والمعقولات حالات روحية ، فإن أغمضت عينيك ونظرت الى أعماقك
— كما قال — رأيت العالم بكلياته وجزئياته ، وخبرت ما فيه من
النواميس ، وعلمت ما يلزمه من الذرائع ، وفهمت ما يتلمسه من
المحجبات ••• وهذا لا يعني بالطبع انه يكفي المرء جهداً أن يغمض
عينيه ويحلم ، بل انه يقصد من قوله هذا انه اذا أغمض الانسان بصره
وفتح بصيرته ، رأى بداية الوجود ونهايته ، تلك النهاية التي تصير
بدورها بداية ••• وان الحياة فكرة ، والفكرة لا تخرج الا من مادة
وجسم • وكل موجود باق ، ولولا الفكرة وهي العلم بكليته لما علم
العالم موجوداً أكان أم غير موجود ••• فالفكرة هي الخالدة اذن •••
لعل أصدق مثل ينطبق على أولئك القائلين بتناسخ الأرواح ،
ما قاله فيهم المعري ساخراً قبل ما يزيد على الألف عام :

يا أكل التفاح : لا تبعدن ولا يقم يوم ردى ثاكلك
قد كنت في دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلك

قلت : وماذا تعني أنت بالذات بتقمص الأفكار ؟
أجاب بعد تردد قصير : هذا موضوع حساس وشائك وخطر وقد

يطول شرحه ••• لنطو الصفحة فقد سئمت الجدل •

وصب كأساً أخرى من الويسكي ، فنظرت اليه نظرة عتاب ، فأدرك ما أرمي اليه ••• كيف يخالف تعليمات طبيبه الألماني • قال :

قال الطبيب وقد تأمل سحنتي ان السذي أضناك فيك لباد

x x x

في احدى الأمسيات ، دعاني أمين الى قضاء السهرة في مقصف ومعرض للزهور ، فليبت دعوته شاكراً ، وانطلقنا معا قليلا من هذا الجو الساكن الرتيب •

كأنت أمسية مسلية بريئة ، شهدنا خلالها لفيماً من الفتيات والفتيان يتبارون في الرقص والغناء ، يطفح البشر من وجوههم ، وتتدفق الحياة من أعينهم ••• وبعد مضي ساعات التف حولنا فصر من الجامعيين والجامعات ، وأصروا على صاحبي أن يرافقه الى بيته لقضاء ما تبقى من السهرة عنده ، فقبل ذلك منهم عن طيب خاطر ، إلا أنه اشترط عليهم ألا يفتحوه بحديث الأدب والسياسة وقال لهم :

— لتكن خاتمة سهرتنا رقصاً وغناءً وطرباً •••

أقروه على ما طلب ، ودخلوا الفيلا معنا بضجيج وصخب ، كأولادٍ انصرفوا على التو من صفوفهم فرحين •

وبدأت عادة شقراء بالعزف على البيان ، فأطربتنا بأعذب الألحان ، ثم اتصبت حلقة الدبكة ، وتلتها موشحات أندلسية وقدود حلوية •

وقد كنت أحسب أن الجيل الجديد تناسى تراث الجدود في هذا الضرب من
الفنون ، ولكنهم أثبتوا أمامي العكس ، ذلك ان ما يغلي في العروق من
دماء يصعب ذره بالرماد •

ولما بلغت النشوة بصاحبي أشدها ، بعد عدة كؤوس مترعة ، ألقى
بعكازه جانبا ، وقام ليشارك الشبان رقصهم على أنغام الدف والصنج
والعيدان ، ولكنه سرعان ما تخلى عن الحلقة ، وانهد متعبا على مقعده
الوثير في زاوية من البهو الكبير ، وهو يلهث من التعب ، ولو أنه كان
في غاية الانتسراح والطرب ، ونظر الي نظرة ملؤها العتب •

— لماذا لا تشاطرنا اللهو والعبث ؟

— اني سعيد جدا كما تراني •

— والله ما أنت الا صخرة لا تحركها مدام ولا تهزها أغاريد •

ثم طفق يردد على مسامعي قول أبي الطيب :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا يتيمه عين ولا جيد
يا ساقبي أنخر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همّ وتسويد
أصخرة أنا ما لي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الأغاريد

واستطرد ضاحكا : أفلا ينطبق عليك هذا يا صاح ؟

قلت : لست أدري •

قال : اذن عليك اللعنة أنت وصاحبك المتنبى • ماذا • • • أتحسب

نفسك المسيح المنتظر ؟

وهنا ذكرته بوعده وشرطه على الجماعة بأن لا يخوض أحد في
هذا الحفل بحديث الأدب والسياسة • فسكت على مضمض •

طلع الفجر ، وتنفس الصبح ، وأشرقت الشمس ، ولم يغمض لنا
جنين ، وقد همّ أبناء الجيل الصاعد بالانصراف عنا ، وهم على ما هم
عليه من بشر ومرح ، وضجيج وصخب •

كان الوادي الظليل يردد صدى ضحكاتهم المرحّة •

x x x

عند الأصيل دخلت عليه مكتبه ، فاذا بي أرى وجهه الشاحب
ينبىء بالسّم دفين •

قال دون أن يتطلع الي : لقد فاجأتني نوبة من تلك النوبات اللعينة •
قلت ببساطة : لا عجب أن يتبع « نوبة الليل » « نوبات النهار » •••
لقد أكثرت من الشراب يا شيخ •• والآن تدفع الشمن •
رد عليّ متألماً : انطق بالخير ••• على صاحبك اللعنة •

x x x

عند المساء عدنا الى جلستنا المعتادة ، وسيرتنا الاولى ، في الحديقة
المطلّة على الوادي العميق • تجرع نصف كأس ، وقال متنهّدا : ودأوها
بالتي كانت هي الداء •

وغاد اليه بعض فشاطه ويريق عينيه ، وتصاعدت الدماء الى وجهه
الشاحب •

سألته دون اكتراث : ألا تعتقد معي أنه قد فاتك القطار ؟

قال : لا ••• لا يزال أمامي محطات ومحطات ، الى أن أكمل ما بدأت به من رسالة الراح والأرواح انظر الى هذه الكأس فلا تزال مليئة الى منتصفها ، فعلام التشاؤم ؟ أعرف أن نصفها ذهب •• ولكن النصف الآخر لا يزال باقيا أمامي ألا يدعو ذلك الى التفاؤل يارجل ؟••• انه مثل قديم معروف •

أثار اهتمامي حديثه العابر عن « رسالة الراح والأرواح » فسألته متعجبا : أية رسالة تعني تلك التي سميتها (رسالة الراح والأرواح) ؟

قال : سأطلعك عليها بعد أن أستكمل كتابتها ، وأنتهي من رسم خطوطها العريضة ••• سيكون لهذه الرسالة شأن وأبي شأن علي ما أعلن في يوم من الأيام • ستكون نوعا من تقمص الأفكار ، وامتدادا لرسالة الغفران •

وعلى ذكر « تقمص الأفكار » أثار قوله هذا في خاطري العديد من التساؤلات •

كيف يمكن أن تتقمص الأفكار ، ثم تسير مسيرة تطور الفكر الانساني وتقدمه ؟

وكيف يمكن لفكر انسان أن يحل في فكر انسان آخر ؟

لذلك طرحت عليه هذا السؤال مداعبا :

— ان اعتقادك بتقمص الأفكار يؤدي بك في النتيجة الى أنه من

المحتمل أن تتقمص أنت نفسك فكر انسان العصر الحجري أو العصر البرونزي • فما رأيك في سخف رأيك ؟

قال بهدوء : لا أعني بتقمص الأفكار ما تتصوره أنت على هذه الشاكلة ، انما أشرت اليه كتعبير ودلالة على تطور الفكر الانساني بوجه شامل عام • ان ما ذكرته أتت حول مخلفات أفكار قديمة صحيح الى حد بعيد ، ولكن هذا لا يعرقل ولا يمنع من استمرارية التطور الخلاق نحو الأفضل • خذ مثلاً على ذلك : لاتزال هنالك عربات تجرها الدواب ، ولا يزال أناس يركبون الحمير في بلدان متطورة متقدمة تسير فيها القطارات وتحلق الطائرات • وثمة أناس حطوا أقدامهم على سطح القمر ومسحوا كوكب المريخ ، واخترعوا وابتكروا الأعاجيب ان لم نقل انهم حققوا معجزات ، وترى الى جانبهم في كوكبنا هذا أقزاماً عراة في أواسط افريقيا وأكلة الحوم بشرية ، كما تجد في استراليا قوما لا يزالون يعيشون كالقرود والوحوش • ان تطور الحياة يخلف في سيرورته ومجراه الطويل تعرجات وانعكاسات وفكسات من رواسب الماضي السحيق ، اذن فليس شرطاً أن أكون أنا من مخلفات العصر الحجري ، بل أؤكد لك أن ثمة أقواماً - ولا أجد غضاضة في القول ان بعض الأقوام العربية - لا تزال تعيش في ظل حكم او توقيراطي ، يحتكر أئمتها وأمرؤها كل شيء لأنفسهم ، ويتركون شعوبهم حفاة عراة ، حتى ان بعضهم - كما روى الي الشيخ الزيري الذي اغتالوه منذ عدة سنوات - يحتكر الأسبرين ويبيعه الى أبناء شعبه نقداً ويدا بيد ، وانه يحتكر كل المنافع والطيبات لنفسه وأبنائه سيوف الاسلام ، وليس تاريخ اليمن السعيدة الحديث عنا ببعيد ••• الا أن سنة التطور لا ترحم أمثال هؤلاء •••

سوف ينقضون ويدخلون في دنيا الالهال ، مشيعين بلعنات الأجيال
ان عاجلا أم آجلا . • فهل أدركت ما أرمي اليه من قولي بتقمص الأفكار ؟

قلت : لا • • لا تزال هنالك تساؤلات وتساؤلات •
قال : اذن فكر واستنتج ما يحلو لك • كل ما أستطيع تلخيصه
حول هذه الفكرة ، هو أن ما أعنيه « بتقمص الأفكار » الحضور الكلي
للفكر الانساني عبر التاريخ •

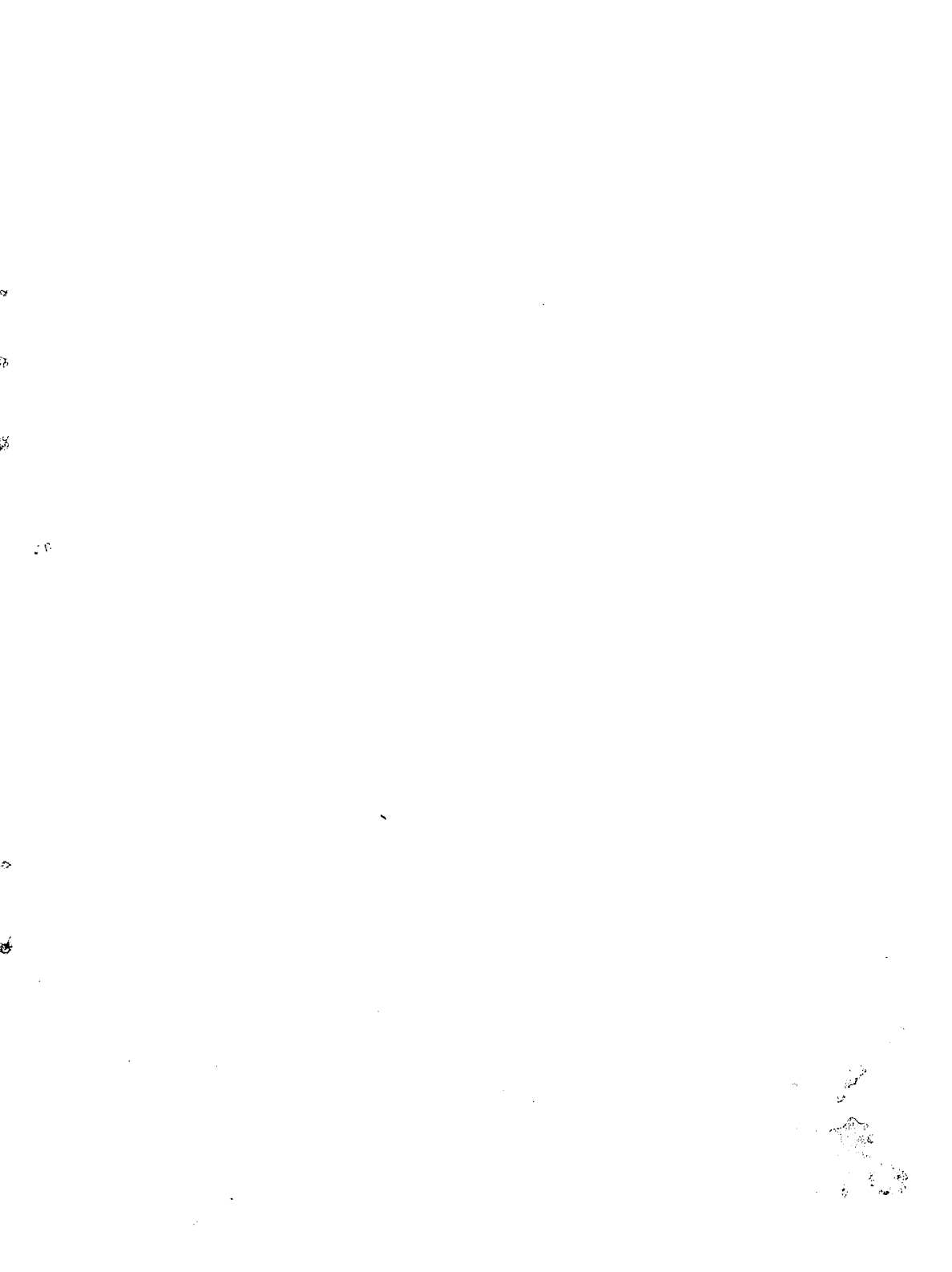
× × ×

منذ تلك البرهة لم يعد لي من همّ الاّ الاطلاع على رسالة
(الراح والأرواح) •

في صبيحة اليوم التالي شاهدته من نافذتي يقف أمم ورددته الحمراء
برهبة واخشوع • ثم يغادر الحديقة مطرقاً برأسه متوكئاً على عصاه •

لقد قطعت الأمواج على أمين ،مرساة السفينة ، وتلاطمته موجات
إثر موجات ، كزورق فقد مجذافيه ، لكنه استطاع أن يصمد أمام
العواصف والأفواء ، وأن يمسك بالشرع ، ولم ينحن أمام سلطان مهما
بلغ به البطش والطغيان ، الى أن حط به الترحال في خاتمة المطاف على
هذا الجبل الشاهق ، بعد أن تلاشت قواه وأشرف على الانهيار •

• • •



الوردة الحمراء

« واذا سريت رايت نارك نورت
وجها اغر يزينه الاسفار
« لا يلبث القرناء ان يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار »
جرير

لن أطيل الحديث في سيرة أمين الذاتية ، ففي اعتقادي أنها لا تختلف كثيرا عن سيرة غيره من أدباء الجيل ، الذين عانوا ما عاناه من نفي وسجن وتعذيب ، أو فاقة وتشرد وآلام وتمزيق ، لا لشيء إلا لأنهم من ذوي الضمائر الحية ، وأنهم آثروا الحرية على العبودية •

وعلى هذا فلن آتي بجديد إذا أنا أسهبت في سرد سيرته ، وأطنت في مناقبه ، وأكبرت فيه كفاحه ، فمثل هذه السير ضاقت بها الكتب والمكتبات ، وقرأها الكثير من الناس •

الإنا أن ما شغلني وأنا في ضيافته وصحبته ، وأثار فضولي واهتمامي وأنا أحاوره بين آونة وأخرى ، شغفه بتلك الوردة الحمراء ، واهتمامه في كتابة رسالة (الراح والأرواح) • لذلك آثرت البقاء الى

جانبه مدة أطول ، علني أكتشف في هذا الكاتب الألمعي ما لم يكتشفه فيه أحد من قبلي ، فأحصل على درة من أدبه ، أو قصة لم يطلع على مثلها غيري •

• وهكذا كان •

x x x

جاء الخريف ولا أحلى ولا أروع من خريف لبنان ، فهو ربيع آخر ، بل أجمل بضبا به ورداذه وعبيره ، وفي ذلك ما يسكر النفس ويبعث فيها النشوة بلا شراب ، ويدخل على قلوب من هم مثلي من المتعبين الصفاء والهناء •

سمعت « أمين » يردد أكثر من مرة : « من يحب جميع فصول السنة خير له وأبقى من أن يحب الربيع وحده » •

تحولنا في جلستنا المسائية الى غرفة الجلوس ذات النافذة العريضة المطلة على الحديقة التي بدأت بعض فروعها وغصونها تتعري ، وكانت وراءها الجبال الخضراء تلفها الغمام البيضاء والدكناء •

كان يفوح من موقد الحائط شذى من بخور الصنوبر والزيتون • كان موثلا لنا وملاذا ، ولم يخطيء الغرييون عندما سموا الموطن والموقد تسمية واحدة ، وعبروا عنه في بعض الحالات كمهبط وحي ودار أمن وسلام ، وكذلك كانت الأطلال وبقايا موقد النار عند العرب تعبيراً عن الموطن الأول الذي طالما بكوه في أشعارهم وحنوا اليه في ترحالهم (١) •

(١) يطلقون بالفرنسية على الموقد معنى الموطن (Foyer) ومهبط الوحي ، والديار وتعاير أخرى على هذه الشاكلة •

وتبع الخريف شتاء قاس ، فازددنا التصاقاً بالموقد ونحن جالسبان
على مقعدين ، وثيرين متقابلين أمام النار المتوهجة •

كنت أطالع بعض الكتب ، وكان هو يحدق في النيران ، ويتناول
بين فينة وأخرى جرعة من خمرة المفصلة ببطء وحرص شديدتين •

وكانت تتخلل الصمت في ليالي الشتاء الطويلة أحاديث يستعيد
أمين من خلالها بعض الذكريات بحلوها ومرها ، بخيرها وشرها •

ذات ليلة ، ومن خلال حديث دار بيننا حول هوايته للزهور
والطيور ، ودراسة أنواعها وأشكالها وفروعها وأصولها - وكان بذلك
علينا خبيراً - ذكرته بغتة بورده الحمراء التي يؤثرها على غيرها من
الورود والرياحين فسألته ببراءة : ألم تحزن لذبول تويجاتها في هذا
الشتاء ، وتساقط وريقاتها ، واحتجاب تفتحها عن ناظريك كل صباح ؟

قال : لا ••• لن أحزن •• سوف تتفتح براعمها من جديد قبيل
الربيع •

وهنا لم أجد بأساً في أن أطرح السؤال الذي راودني منذ أمد
غير بعيد أثناء اقامتي عنده •

- ما السر في تفضيلك تلك الوردة الحمراء بالذات على سواها
من أزهار الحديقة ؟

- انها الذكرى •

- وأية ذكرى تعني ؟

- انها قصة طويلة •• قصة حب لا تماثلها قصة حب أخرى ، بل

قل تجربة حية مررت بها في أيام الصبا والشباب ... انها تذكرني بوردة
دمشقية حقيقية ، كانت تنبض بالحياة ، وتشع بالجمال .. انها تذكرني
بمعبودة لا تزال تعيش بين جوانحي وفي ضميري وعقلي ... ما لك
تنظر اليّ هكذا كالمخبول .. هل تستبعد أن يعشق أمين عشقاً أقوى
من الموت ؟ ثم من حظر الحب على الناس سوى تلك الهامشية من النساء
البلهاء أو المرضى في عقولهم أو الجهلاء ... واني اذلا أنكر على القائل
بأن أمننا في الحضارة يتوقف على طاعتنا لناموس الأخلاق ، فعندي
أكرم ما في الأخلاق على كر الأيام وتوالي الأجيال - ومهما قيل في نسبة
الأخلاق - هو : الحب •

نعم لم يبق لي من العمر الا هذه الذكرى الحية العطرة ، ذكرى
وردة ، ولولاها لفقدت الكثير من مقوماتي وعطائي ووجودي كإنسان
في هذا الكوكب الصغير •

قلت : ألا ترى في حبك وتفانيك على هذه الوتيرة عزاء لك عما
أنت مقبل عليه من فناء محتم ؟
قال : قد يكون هذا صحيحا الى حد ما ، فالإنسان يصطنع في كل
حين أسطورة من أساطير الخلود ، فتارة يسميها بالأرواح الهائمة في
الملكوت الأعلى ، وأخرى بالذكرى والفكرة ، أو العقل الكوني الشامل
الذي لا يفنى ، يدبر ويتحول ويتطور ... ان الفكر الديني عند الإنسان
والأسطورة نفسها مترافقان وفي تطور دائم مع تقدم الإنسان نفسه في
مضمار المعرفة ، الا أن أعظم حدث في التاريخ الطبيعي للإنسان - كما
قال أحدهم - هو مولد الضمير في العقل البشري •

وهنا أسألك : هل الضمير غير الحب ؟

وهل غير الحب ، أو سمه ان شئت الضمير الحي باستطاعته أن يجعل الانسان يسود على بعض غرائزه البدائية في سبيل فكرة ما ؟ ألا تبا لك انك ترهقني بأسئلتك البلهاء ، فتقطع علي استعادة أجمل الذكريات وأحبها الى قلبي وأقربها الى وجداني •

قلت : ليس سؤالني من البلاهة بالشكل الذي تصورت ، أسألك بوضوح ودقة ، ألا تعتقد معي انك بتقديسك تلك الوردة الحمراء كل صباح قد دخلت في عداد أهمل الفتشية ؟ (١)

انتهرني ساخطاً : ألا تكف عن ترهاتك أيها الكلبى المسكين ؟

قالها بالفرنسية هذه المرة — Cynique — سنريك •• كلبى • ثم أردف قائلاً :

— تارة تصفني بالهامشي ، وأخرى بالفتشي ، كل ذلك لأنني تقاعدت عن العمل ، وفضلت وردة على أخرى ، وأحييت ذكرها في قلبي • هل

(١) الفتشية (Fetechisme) هي في الأصل مذهب انتشر بين الزوج • وأهل الفتشية الذين يعتنقون هذا المذهب يؤمنون في قرارة نفوسهم بلزوم احترام الانسان احتراماً فائق الحد لشيء ما ، ومن ثم تقديسه قدسية دائمة ، والفتشية ترافق المعتقدات الدينية في كثير من الأحوال وعلى مر العصور ، ومنها تقديس وتكريم رمز من الرموز ، أو مادة من المواد ، ولا تزال آثارها باقية لدى الشعوب المتمدينة التي قطعت شوطاً بعيداً في مضمار الحضارة ، فلا يزال الكثيرون من الناس يتباركون بالتمائم والتعاويذ وشعارات حسن الطالع (Port - Boneur) والموسكوت (Moscot) العصا السحرية الخ •• ويدخل كذلك في عداد الفتشية تقديس بعض الأضرحة والأماكن المعينة ، وبعض الحلبي المنقوش عليها رموز وشارات وكلمات ما •

أصبحت فاقد الشعور بكل حس جمالي؟ أم أعلها الآلات التي وقفت وراءها طويلاً ، أو المكاتب التي قبعت خلفها سنوات ... ثم أولئك المأمير الرواييط الذين تحسبهم بشراً وما هم الا امّعات أو طوانيت الذين عشت دهرأ برفقتهم أو تحت امرتهم شئت أم أبيت ... كل ذلك جعل منك انسانا مشلول الفكر فلم تعد سيد نفسك ، بينما أعيش أنا حراً طليفاً بفضل ما يقدمه الي أخي في المهجر من مال يقيني شر العوز ... لا أنكر عليك قولك ان المال هو الذي يحرك ويوجه حتى تفكير الانسان وسلوكه وهو الذي يصنع الأعاجيب .

— أرى ان الغضب قد أعماك ، فخرجت عن جادة الصواب ...
قلت حقاً ذات يوم اني لن أستطيع معك صبراً ... حسنا سأحزم حقيبتني وأرحل عنك على الفور ... أخشى أن أكون قد أثقلت عليك بالأسئلة البلهاء كما تقول .

نظر الي نظرة ثابتة شبه حواء ، وتضاحك وارتد الى الوراء على مقعده وقال :

— لا يا صاحبي لا شيء مما يجول في خاطرك ، اني سعيد جداً بهذا الجدل بيني وبينك ... هون عليك ولا يخامرئك أي شك في شعوري نحوك ، فكن سليم التفكير وتقبل كل صد ورد ونقد وهجاء ... هكذا ألفتني منذ زمن بعيد ... أنت لي اليوم بمثابة الأخ ، بل ان الصديق يكون أحياناً أفضل من أخ ، ورب أخ لم تلده لك أمك !
وأضاف ساخراً :

— أنعلم ما يضحكني فيك ؟ انك تردد كالبيغاء ما قاله زيد أو

عمر . . ما قاله الجاحظ أو ابن رشد ، أو سبنسر أو شكسبير ، دون
امعان نظر أو تفكير . أنحسبني تلميذا في الثانوية أمامك لتلقي علي
دروساً في علوم النفس والاجتماع . . . أتريدني أن أعيش كإنسان بلا ذاكرة
ولا ذكرى ولا شوق ولا حنين ولا وجدان . . . اجلس واستمع قليلاً ،
فقد هبطت بي من عل ، من رؤية سامية علوية ، من حديث الحب الى
حديث الفتشية . . . فقطعت عليّ بذلك ما توارد على لخطري من
ذكريات زكية . ألا فاعلم انك ستظل الى جانبي تساعدني في بعض
أعماله الكبيرة . اني أشعر بالتعب الشديد .

سرني منه أن عرض عليّ أن أساعده في « أعماله الكبيرة » ،
ولعلها رسالة الراح والأرواح .

كانت مقاطعتي له بالأسئلة جعلته يحجم عن المضي في سرد قصة
حبه وهيامه بوردته الحمراء .

x x x

انهمكت معه في مكتبه بالعمل الجاد ، وزاد هذا التعاون فيما بيننا
صداقتنا وثوقاً ، وغدونا أكثر تفاهماً وتعاطفاً وتجاوباً . . . كان يكره
الضرب على الآلة الكاتبة ، والرد على الرسائل التي ترده بكثرة من
أنحاء مختلفة من العالم ، كما كان يكره أعمال التصنيف والتنسيق في
مكتبته ، بل كان يكره كل عمل آلي يمكن لغيره أن يقوم به نيابة عنه
حتى ولو كان مضطراً اليه .

كان يسكب معافاته الروحية على صفحات وصفحات لا يلبث أن
يمزقها ، ويعود الى الكتابة من جديد ، الى أن يدركه الاعياء ، فيخرج

الى الحديقة ليتنشق الهواء ، أو يتنقل هنا وهناك وهو شارداً الفكر ،
طائر اللب ، ذاهلاً عن كل شيء إلا عن وردته الحمراء ولا ريب .

كان القلم يتعثر بين أصابعه أحياناً ، فيقذف به بعيداً عنه ، ليعود
فيملي عليّ ما يعين له من خواطر لا أجد ترابطاً فيما بينها أو اني لا أفقه
ما يعنيه منها ، إذ كان يتمتم كما كانت العرافات (السيلينيات) تتمتم
في اليونان القديمة وإيطاليا في العهود الوثنية (١) ، فأحسبه كمن فقد
رشده ، أو ضل سبيله ، أو أصيب بنوبة صرع كالتي كان يصاب بها
الكاتب العبقري دوستوفسكي .

قلت له مرة ألا تعيد النظر فيما تكتب أو تملي عليّ من بيان ؟
قال : بلى بلى قد أستخرج مما تحسبه أنت كالهذيان لبنات
ستكون أساساً متيناً في بناء رسالة (الراح والأرواح) .

x x x

تساقطت الثلوج ، واكتست الأشجار بحلة بيضاء ، وانعكست
على شمّ الجبال ألوان وأضواء ، وأحاطت بها أشكال وأشكال من
السحب والعمام . كانت تحلق فوقنا أحياناً أسراب من الطيور المهاجرة ،

(١) العرافات السيلينيات كن في اليونان القديمة ينطقن بتنبؤات
بعد صيام ثلاثة أيام ، وبعد مضغهن ورق الغار المهيج للجملة العصبية ،
فيؤخذ كلامهن مأخذ الجد على أنه آيات بينات أوحى بها اليهن آلهة
اليونان المتعددة الانواع والأشكال . انظر كتاب (الظواهر الثورية) -
ترجمة بشير فنصه .

وتحط بعض العصافير على الأغصان العارية في الحديقة ثم لا تلبث أن
تفرغ وتواصل المطار •••

هبّت عواصف وأنواء ، وكنت أسمع أنين الرياح وأنا جالس أمام
الموقد أحرق في النار •

كان أمين يحدثني أحيانا عن مغامراته ومخاطراته وأسفاره
السندبادية ، ومقابلاته للملوك وأمراء ورؤساء وقواد من مختلف أنحاء
المعمورة ، ويذكرني ببعض ما استطاع أن يكتبه حول هذه الرحلات
والمقابلات ، ولكنه لم يكن يتطرق الى ذكر وردته الحمراء ، ولم أشأ
أن أعود الى تفتيح جراحه •

وانسجماً مع واقعتي الوثائقية في أدب القصة المعاصر ، تساءلت
مرة وأنا أطيل النظر متفرساً في وجه صاحبي ، ألا يصلح هذا الكاتب
النبيل ليكون بطل قصة جديدة واقعية حية من صميم حياتنا العربية ،
ذلك ان حياته حافلة بالمغامرات ، مليئة بالتحديات ، مشبعة بالبلوى
والأسرار ، فيها الكثير من البذل والنضال والعطاء •••• فلم لا أدونها
دون زيادة أو نقصان ؟

ورأقت لي الفكرة ، الا اني حرت في سلوك السبيل الى استدراجه
ليبوح لي بمكنونات صدره وليفشي بأسراره •

كنت على يقين من أن مهمتي لن تكون سهلة مع هذا الرجل الطيب
الصلب ، العالم المتواضع ، الثائر المسالم ، الهارب الشارد ، الثابت
الراسخ ، المتسامي المتهاوي ••• أجل لن تكون سهلة مع انسان يجمع

كل هذه التناقضات التي لا تستغرب في بعض الحالات في أهل الفن والأدب •

تبين لي بعد مضي مدة من الزمن على اقامتي معه ، انه خلافاً لما تبادر الى ذهني للوهلة الأولى ، من أن ليس في سيرته الذاتية من جديد يدعو الى العجب أو الإثارة أو البحث والطلب ، وانها مماثلة لسير غيره من الكتاب والأدباء ، أقول تبين لي أن في سيرته في الواقع ما يدعو الى استقراء العديد من الحقائق واستخلاص الكثير من العبر ، وقد رأيت أو تراءى لي مع هذا وذاك ان قصته طريفة غريبة ، ومشوقة مثيرة •

مضت أيام وأنا أمعن التفكير بالطريقة التي سأجعله يتكلمها •

وأخيراً أدركت أن اللاحاح لن يجدي معه نفعا ••• فقد يجره الى النفور مني ومن صحبتي •

الاذن ما كان عليّ الا أن أنتحل الأعذار لأغيب عن ناظريه عدة أيام ، لعلمي بصدق المثل العامي : (لا تقل للمعني غن ولا للحكواتي احك) ، فتلك ردة فعل طبيعية في النفس البشرية التي ترفض على الدوام أنواع الاكراهات ، ولا سيما اذا ألح المرء في الطلب على أهل الفن والأدب • انهم يميلون بطباعهم الى الانطلاق ، الانطلاق في كل شيء في الكتابة والحديث والرسم دون اكراه أو الحاح •

كافت طريقتي هذه خير حل لحل عقدة من لسانه • ونجحت فيما رميت اليه ، فكان حسن الاصغاء الى ما يقول ، أفضل وأنجح من كثرة الاسئلة ، ومطاردته بالاستجواب •

أمسيت أصغي باهتمام الى كل ما يتحدث به ويروييه ، وفي ختام

كل جلسة كان يشكرني على حديثي الممتع معه - مع اني لم أكن أنبس
بينت شفة - وهو على أحسن ما يكون من صفاء السريرة وتوقد الذهن.
وعندما أدخل الى غرفتي أنكب على تدوين ما روى لي في مذكرتي.

x x x

تاق أمين ذات ليلة أن يعود الى حديث الحب من تلقاء نفسه ،
فطفق يحدثني عن غرامه بوردة فقال : - كنت في مستهل العمر ، أهزأ
من العشق والعشاق أمثال قيس المجنون وروميو المفتون ... وكنت
أظن أن الحب يمكن أن يشرى بالمال ، وأحسب المرأة عندنا ان لم يكن
في معظم أنحاء العالم الحر وغير الحر تباع وتشترى في أسواق النخاسة ،
بل سمها أحيانا أسواق الزواج ، أو النكاح الحلال ... ثمن المرأة
معلوم عندنا ، حفنة من ذهب أو فضة على سبيل المهر ، سواء أكان
مقدماً أم مؤخراً ، وحلي وثياب ورياش ، حتى في الغرب لا يختلف الأمر
كثيرا عما هو الحال في الشرق ، فلا تزال المرأة الى حد بعيد أمة للرجل ،
على الرغم من حصولها في بلدان عديدة على حقوقها الأساسية . خذ
مثلا على ذلك ، فالمأسوف على شبابه علي إخان كان بايماة منه يجذب
اليه أجمل حسناوات العالم ، ويتزوج منهن من يشاء بالمال ولو كانت من
أشهر ممثلات هوليوود وأغناهن ، وذلك الاوناسيس الهرم صاحب
البواخر والطائرات ألم يأت اليه بجاكلين سيدة اميركا الأولى وأرملة
رئيس جمهوريتها بمجرد اشارة منه ؟

أجل ... هكذا كنت أتصور الحب ... لقد مرت بتجارب غرامية
كثيرة خلت من خلالها أني أحب من صميم القلب ، ولكني في كل مرة

كنت أصطدم بالواقع المرير ، فلا أجد في المرأة التي أحببت الا عبئاً ثقيلاً ، وغلاً قملاً ، يحد من حريتي ، ويشل حركتي ... ولا أجزم ان كل النساء كما وصفت - فليس الاطلاق والتعميم من مبدأي - ولكن أكثرهن على هذه الشاكلة ، ولا غرابة في ذلك بعد عهود سحيقة من استرقاق الرجل للمرأة ، وقد يكون سوء الطالع هو الذي حرمني من العثور - وأنا في تلك السن المبكرة - على ضالتي المنشودة ، تلك التي تعنى بحسنها ووفائها ، وخلقتها وخلقها ، الشعراء والأدباء ، وصورها الرسامون بأروع الصور ، ونحت لها المثالون أبداع التماثيل . نعم ان المرأة لم تتحرر بعد حتى في العالم الغربي المتطور رغم صدور القرارات بالمساواة التامة بين المرأة والرجل ، اذ لا يزال العامل المادي الاقتصادي هو المحرك الأساسي في فكر تلك المجتمعات ... ولكنني كنت أسائل النفس أهذا كل ما في الوجود من محركات ؟ لا شك أن ثمة أشياء كثيرة وعوامل أخرى كامنة في النفس البشرية ، ولا ريب ان ثمة ترابطات بين عوامل مختلفة ينتج عنها مكونات ومقومات جديدة . وهذا ما يدفعني اليوم الى الشعور بالملل وأنا أستمتع الى مطالعات وشعارات خوارنة الاشتراكية الجدد ... انهم يرددون ما يسمعون كالبغاوات حول أمور كثيرة قد يكون الزمان عفا عليها ، او ان تحولات أخرى غيرت المفاهيم والأوضاع القديمة . كأن التفكير في عواقب الامور ونحو اتيهما صعب عليهم وعسير جداً .

لقد أثبتت لي « وردة » - ويا لها من وردة - ان في العالم من الأسرار ما لا فقهه منه شيئاً حتى ... خذ مثلاً آخر : الفكر الانساني وتسلسله عبر التجربة التاريخية ، وما رافق هذه السيرورة من طفرات

ومبتكرات واكتشافات ، وما تقلب الى جانبها من آراء وايدئولوجيات ، وأفكار ومعتقدات ، وعواطف وأهواء ، وما طرأ على الغرائز الانسانية الحيوانية من صقل أو تهذيب ، أو ما تحول من عدوانية الانسان من عدوان على الانسان الى منعطفات ونواح أخرى كالمباريات الرياضية وغزو الفضاء ... لا ريب ان هنالك رؤية شخصية متميزة ، فلكل انسان عالمه الداخلي الخاص ، ولا يمكن أن نضع الانسانية جمعاء في قالب واحد وفكر واحد ، لا يتحول ولا يتبدل . ان التفاعلات والمؤثرات موجودة في كل شيء حتى في الجماد نفسه ، فكيف بالانسان ؟

ان كبار السيكولوجيين لم يستطيعوا حتى الآن سبر أغوار النفس البشرية . . . فهناك ظواهر غريبة قد تكون أحياناً فريدة من نوعها . . . و « وردة » وردتي تلك التي عرفتها في باريس قد تكون من هذه النوعية الغريبة الفريدة ، فهي ليست أمة ولا مادة مجردة من الحس والحياة العليا ، بل كانت تتفاعل مع الحياة وتؤثر في الحياة نفسها .

كانت وردة تعلم ان ثمة ظواهر تسمى بالحب والخير والجمال ، يقابلها ظواهر أخرى تسمى بالشر والجريمة والاتحار والجنون . . . — أو بالأحرى ظواهر صحية وأخرى مرضية — كانت تعلم ان الحب مبعثه غريزة وشهوة ودافع جنسي يساوي في قوته وأهميته الدافع الاقتصادي المعاشي ، ولا تنكر أن ذلك الدافع الجنسي هو الذي أوحى الى عمالقة الفن والأدب بأعمالهم الخالدة ، وانه الولاه لانطفأت جذوة الحياة على الارض ، ولم يتولد من الحب ما هو أسمى من الحب حتى يبلغ بعضهم أرفع منزلة ، وأرق عاطفة ، وأجمل تصور ، وأنفع فكرة ، ثم ألاترافق عملية الحب عند بعض من رقت مشاعرهم على هذا المستوى

الانساني النبيل عملية خلق وابداع مع رعشة علوية تفوق ما يوصف
بالصباية والخلة ثم الاتحاد على ما حاول أن يبلغ اليه نفر من شعراء
الصوفية وكهانها •

ثم ألا تعتقد أن في الحب ما يهذب النفس ، ويصقل الغريزة ،
ويرتفع بالانسان الى مصاف الآلهة النقية ؟

هكذا كانت تجربتي مع وردة ••••• ولذلك أحببتها حباً يفوق
الحب ، حباً أقوى من الموت • وكانت - يا للعجب تبادلني مشاعري ،
ووثقت بها بعد تجربة وملاحظة على الرغم من أنني لم أكن مندفعاً في
غرامها اندفاع أهل الهوى أو الهوس والنزوات الهوجاء ، ولهذا ظلت
ذكرها باقية في خاطري لا تفارقني ، كأني أراها وأسمع وقع خطاها
ورنين ضحكاتها وحلو حديثها في كل ساعة تمر بي ، كأنها لم ترحل عني
الى الأبد • انها لتذكرني ما بقيت حياً بقول ذلك الشاعر المجهول الذي
أضاع حبيبته في الصحراء المترامية الأطراف وراح يقول :

أتمضي وفي كل درب خطاها ترن بأذني كأني أراها

ألا ترى في ذلك نوعاً من الالهام ••••• وهل غير وردة ملهمتي ؟

لقد انقطعت عني أخبارها منذ زمن بعيد ، رغم ما بذلته من جهود
وما قمت به من مساع ، وما جبت من بلاد ، فلم أعثر لها على أثر •
ربما كانت قابضة في دار ريفية في عزلة عن العالم ، كحالي أنا بالذات
اليوم ، أو ان يد الغدر والمنون قد امتدت اليها واختطفتها ، أو ان أحد
الزبانية قد اغتالها ••• في الواقع لا أستطيع الجزم بشيء ، أو قل ان

الأمل في لقاء من أحب هو الذي يحجب عني الحقيقة القاسية ، وما
أضيق العيش لولا فسحة الأمل •

قد تتساءل - وحق عليك أن تتساءل - من تكون وردة هذه التي
شغلت مني العقل والوجدان •• كنت أود أن أحتفظ بذكرها الحلوة
لنفسي ، فهي عزائي في غربتي ويقظتي ومنامي ، ولكنني لا أجد ضراً من
أن أحدثك عن قصة حبي لها ، فلعل في ذلك بعض التفرغ عن الكرب ،
والتفريغ عن الهم •

لقد عرفت « روز » أو « وردة » كما كانت تسميها أمها الدمشقية
في باريس عند أحد الطلبة الذي كان يتلقى دروس الرسم في معهد
الفنون الجميلة • كان ذلك في استديو الطالب الصديق في بناية قديمة
بالحي اللاتيني • وأنت تعلم كيف استطعت الهرب الى باريس ابان
صراعنا ضد سلطات الاحتلال • ولعله من أغرب التناقضات أن أُلجأ الى
عاصمة الدولة التي كانت تحكم بلدي بالحديد والنار ، أن أُلجأ الى
مدينة باريس ، مدينة الحرية والنور ، ذلك ان شعبها الذي طالما ثار على
الظلم والطغيان ، غير تلك الطغمة الحاكمة الاستعمارية التي كانت
متسلطة على شعوب كثيرة مستضعفة • كان شعب باريس بعماله وأحراره
وكبار مثقفيه مع لفيق من نوابه يقف الى جانب قضيتنا العادلة •

قلت عرفتها هناك ، وعلمت منها انها تدرس في معهد اللغات
الشرقية ، وهي ذاتها ليست بشرقية ولا غربية ، بل كانت شعلة من نور ،
تجري في عروقها دماء من عروق مختلفة ، فقد كان أبوها ضابطاً فرنسياً
الزاسياً شبه ألماني ، وأمها عربية من دمشق ، وجدها لأمها خورياً

أرثوذكسياً روسياً ، ولا أدري بماذا كان يمت جدها لأبيها بحسب أو
نسب فلعله قد كان من سلالة انكلوسكسونية •

توثقت بيننا أوامر صداقة ومودة ، وكنا نسير ساعات في حدائق
اللكسمبورغ تتبادل بعض الآراء والتعليقات ، والطرائف والنكات •
ولحظت من حديثها ان السياسة الدولية ، ونذر الحرب العالمية ، وطغيان
الفاشية ، تحتل الحيز الأكبر من تفكيرها • كما كنا نطوف في شوارع
باريس المتلألئة بالألوان الى ساعة متأخرة من الليل ، بعد ترددنا على
ما يسمونه بعلب الليل والبارات الشعبية ، حيث كنا نلتقي كل ليلة
بكتاب لا يكتبون ، وفلاسفة لا يتفلسفون ، ورسامين لا يرسمون ، بل
يقضون لياليهم في الجدول بلا طائل ، وفي تعاطي المسكرات وغير
المسكرات ، وفي الارتماء بأحضان الغواني والحسان ورائدات البارات •

كان كل شيء في باريس ينبض بالحياة ، وما من شعب كشعب
باريس يجب الحب والمرح ، وان كان ذلك لا يشغله عن الإنتاج والعمل •
كانت الابتسامات تعلو الشفاه ، والضحكات الرنائة تسمع في كل
مكان • ولا يصدق رجل الشارع أن الحرب على الأيواب ، وان هتلر
واقف لهم بالمرصاد ، يعد العدة لاقوال الضربة القاصمة فيهم أجمعين ،
فيما عدا أصحاب اليسار الذين كانوا يتجمعون في مظاهرات شعبية
صاخبة ، ويعقدون الاجتماعات في الصالات الشتوية ، منذرين قومهم
بالخطر المحقق بهم ، ولكن صيحات هؤلاء لم تكن التوقف النيام من
غفلتهم •

وطلبت اليّ ذات يوم أن أرافقها بجولة الى متحف اللوفر ،

وعندما اقتربنا من الصف الطويل من الناس الذين ينتظرون دورهم
لإلقاء نظرة على لوحة (الجيو كاندَة) الخالدة ، ترددت كثيرا • وقد
لاحظت وردة ترددي ، فسألنتي : ما بك •• ألا تروق لك الموناليزا ؟

قلت في سري ماذا أقول لها هل أفشي لها في هذا الموقف مكنونات
قلبي ، الا اني اضطررت الى الرد عليها بقولي : بلى ••• انها تحفة
رائعة ••• ولكن لست أدري ماذا أود أن أقول في الحقيقة •

ولعنت في سري دافنشي الذي رسمها •

وتركتها بعيدا تمتع الطرف بالتطلع الى تلك اللوحة الرائعة التي
كانت ذات يوم في نظري أجمل لوحة ابتدعتها ريشة رسام •

لم أكن أنا الوحيد المعجب بهذه اللوحة ، فقد ذاع صيتها حتى
طغى على الخافقين ، وسرى وهمها في أذهان الناس في كل مكان ، وعلقت
صور عنها في كل زاوية وبيت تقريبا •

واتقلنا بعدئذ الى الطواف في أروقة اللوفر ، وتمعنا النظر
بمشاهدة لوحات وتماثيل على جانب عظيم من الابداع والجمال •

كانت وردة كالمأخوذة بجمال ما رأت ، من فن أصيل ، وتاريخ عريق
لمختلف الحضارات الانسانية •

ثم عكفنا بعد طواف طويل على مقهى قريب ، وجلسنا لنأخذ قسطاً
من الراحة • وعلى حين غرة طرحت عليّ سؤالاً محرّجا ينم عن فطنة
وقوة ملاحظة :

— قل لي بربك ألم تعجبك الجيو كاندَة ؟

— كانت تعجبني وقد شاهدتها منذ زمن طويل *** نعم كنت
معجباً بها أشد الإعجاب •

— والآن ماذا دهاك ؟ • قالت مستغربة •

عندئذ اضطررت الى مصارحتها بحقيقة شعوري ، بل قصتي مع
الجيوكاندة وما خلفته من انطباع سيء في نفسي •• حتى بت أكره
هذه اللوحة ومن يشبه الموناليزا صاحبها •

أنبأتها بما جرى لي بصدق وواقعية ، وحدثتها عن حبي الأول
بامرأة تشبه الموناليزا الى حد بعيد ، فقد كان وحي تلك اللوحة هو
الذي دفعني الى أن أجري خلف تلك المرأة متمثلاً اياها بابتسامتها
الودودة ، ونظراتها الحاملة الصافية البريئة ، وأنوثتها الطاغية • نسيم
التقيت بتلك المرأة هنا في باريس ، وفي بار في مونبارناس ، وتناولت معها
عادة كؤوس ، وهمت بها على الفور ، لا لشي الا لأنها تشبه الموناليزا !

وتعاهدنا على اللقاء مرة أخرى ، وخلعت عليها من عواظي كل
ما يمكن أن يجيش به صدر شاب غرّ ، من حب ووفاء ونبل • ولما
عرضت عليها الزواج لم ترفض الطلب • وهكذا تم زواجنا على أهون
سبيل • الا أنني بعد مضي وقت قصير على هذا الزواج ، أدركت اني
كنت أجري وراء وهم وسراب ، مدفوعاً بشغفي بمن تشبه الموناليزا !

كان حلماً مروعا وصدمة عنيفة •• لقد أغدقت على تلك المرأة من
وجودي وخيالي وكل ما أملك ••• فاذا أنا أمام امرأة عادية في كل
شيء ، شبه مبتذلة في تصرفاتها وضحكاتها النحاسية أو ابتسامتها العريضة
المتكلفة ، ونظراتها الزائغة ••• كانت شبه متعلمة ، تقرأ ولا تفقه مما

تقرأ شيئاً ، وتحدث وتثرثر حول لا شيء ، سوى مضغ الكلام - كما يقول صاحبنا أبو الطيب - * كان همها البهرج والأزياء والحفلات ، تنام وكأنها لن تستيقظ ، وتأكل كأنها لن تشبع ، ثم تعود لتلح في المطالب ، وإثارة الضجيج والعجيج * وكنت أخضع لمطالبها الواحد تلو الآخر ، الى أن طفح الكيل ، ولم يعد باستطاعتي تلبية جميع ماتلح في طلبه ، فلم تفهمني لحظة ولم أفهمها ثانية * * * هذا اذا ما أسرفت في الوصف وقلت لك انها كانت ذات برود جنسي قاتل ، وان ظهرت أمام الناس بغير مظهرها الحقيقي - وتلك هي آفة من هن على شاكنتها - كان تزيد في أناقتها وبهرجها وأصباغها وألوانها تغطية لنقصها وعجزها * وذات مرة شتمتني شتماً قبيحاً قد تخجل من لفظ مثله ربيعة خان أو ماخور *

وفجأة تبدت لي صورتها على حقيقتها : امرأة كما وصفتها العرب منذ قديم الزمان ، بكل ايجاز - وليس كالعربية كما تعلمين من لغة تمتاز بالايجاز والاختزال - اذ قالت العرب في المرأة السيئة الخلق مثلها (امرأة نقناقة ، أنانة ، مناعة ، حداقة ، شداقة ، جعجاعة ، هلباجة) *

أجل تبدت لي صورتها على حقيقتها ، وانقضت العشاوة عن عيني ، وتلاشت صورة الجيو كانه عن ناظري * *

غدت امرأة دميمة * * * مبرهانة ، نهمة ، تؤوم الى جانب ما وصفتها من قبل *

آثرت بادىء ذي بدء الابتعاد عن طريقها ، وانزويت في غرفة مكتنبي أنام على الأريكة ، وهجرت مضجعها ولم ألجئه قرابة ثلاثة أشهر ،

الاّ أني لحظت عليها في أواخر علاقتنا الزوجية ، أنها تكثر من التردد على الأسواق، وتشتري أعدادا وافرة من الدمى وألعاب الأطفال . وهمست في أذني وهي عائدة تحمل صناديق مكدسة من مختلف الأشكال والألوان : أنها حامل وانها تزف اليّ البشري السارة ، وتعد العدة لاستقبال المولود السعيد بالألعاب .

شعرت بضيق في صدري ، وغصة في حلقي ، وتساءلت بيني وبين نفسي : تراها ما سوف تضع مثل هذه المخلوقة من حمل في هذه الدنيا ؟

وذات صباح نادتني من مضجعا أن آتيها بكأس ماء ففعلت ، ولجت غرفتها الفحتني رائحة تننة مقرفة ، وتناولت الكأس من يدي ونظرت اليّ بعينين حمراوين جاظتين نظرات زائغة شبه مجنونة .

• كان شعرها منفوشا ، وقميصها مكشوبا عن صدر متهدل .

وتلفت فيما حولي ، فاذا أنا أمام مشهد غريب يثير الاشمزاز والرثاء في آن واحد .

كان كل ما في الغرفة من أثاث قدراً يعلوه الغبار ، والستائر مسدلة وسخة مغبرة . وشاهدت الدمى مقطعة الرؤوس ، محطمة مهشمة الأيدي والأرجل، مبشرة هنا وهناك ، وكذلك الألعاب الأخرى من قطر وسيارات ومدافع ودبابات جميعها كانت حطاما كأنها شهدت معركة حربية ، أو أنها من مخلفات وآثار صراع ميداني عنيف جرى في هذه الغرفة القائمة .

قلت لها : ما معنى هذا ؟

قالت بالدموع تسيل من عينيها : نعم . . . أنا التي حطمتها

هشمتها كلها • لم تعد أية فائدة ترجى منها ••• لقد أبلغني الطبيب بعد
اطلاعه على آخر تحليل اني عاقر •

أقفلت الباب خلفي ، وخرجت الى الحديقة لأتفست الصعداء
وأنتشق الهواء !

ثم غادرتها الى الأبد • وقد تم الطلاق بيننا على أهون سبيل ، كما
سبق وحدث الزواج بأسهل طريق •

لهذا ترينني اليوم غير آبه بتلك اللوحة الخالدة ، لا شيء الا
لأنها تعيد الى خاطري ذكرى تجربة مرة ، بل تذكرة بمعبود أو صنم من
صنع أوهامي وخيالي قد تحطم !

كنت كالطفل الذي حطم لعبته لأنه لم يجد في داخلها شيئا مما
كان يجول في عقله الباطن الصغير •

قلت لوردة أخيرا : أتصدقين أنني كنت في أواخر أيامي معها أرى
ابتسامتها الشيطانية ، ونظراتها الشريرة تطاردني في كل مكان •

نظرت الي "وردة متأمة فاحصة وقالت :

— يبدو انك مرهف الحس والشعور جدا ••• ولولا ذلك لأضيت
بقية حياتك معها ، فكثير من الأزواج يعيشون على هذه الشاكلة التي
وصفت وتراهم لا يضرجون ولا يفعلون ما فعلت أنت ••• لا ريب ان
حالك تختلف عن العاديين من الرجال ••• لقد فهمت • لعلها تجربة
قاسية مررت بها وخرجت منها بسلام • ربما هذا ما يدعوك الى العزوف
عن الزواج ثانية في مستقبل الأيام •

قلت : لا أعلم .. مهما يكن من أمر فلست بمريض وهم اثر صدمة
حتى أتخيل ان جميع نساء العالم من طراز تلك المرأة .. - فالمرضى في
أبدانهم وعقولهم أكثر مما تتصورين سواء أكانوا أناثا أم ذكورا .

سألته أنا بدوري :

- وأنت وقد بلغت سن الرشد ولا شك ، فهل عثرت على فتى
أحلامك ؟

أجابت بلا تردد ولا وجل :

- لقد مررت بتجربة تكاد تشبه تجربتك الى حد بعيد ... بلى
انه لأمر غريب ... لقد منيت كذلك بالفشل الذريع مع أمير أحلامي
- كما يقولون - وكنت لأزال في سن المراهقة تقريبا . وافترقنا أخيرا .
- سألته بلهفة : وما سبب فشلك وأمير أحلامك ؟

قالت : اكتشفت بعد مضي مدة وجيزة على عشرته انه نرجسي
مريض ، عاشق ذاته ، رغم حسن مظهره أمام الناس ولياقته . كان همه
الوحيد أن يقف أمام المرأة ساعات ليسرح شعره ويصفه ويصقله ، ثم
يجلس ساعات ليقيم أظافره ويدهنها بأنواع من الطلاء لا تستعمله الا
النساء المتأنقات ، حتى بلغ به الهوس أن يدهن أظافر رجليه بلون أحمر
فاقع . وكان اذا تحدث لا يتحدث الا عن نفسه وعن تعلق النساء والرجال
بحسنه وجماله وظرفه وكماله ، وحسن هندامه . كان يجلس ساعات
ينفث دخان اللفائف ويتأمل حلقاته المتصاعدة على شكل دوائر وحلقات
تملا أجواء الغرفة ، فأكاد أشعر بالاختناق . أما هو فكان لا يشعر
بوجودي الى قربه كأنه غارق في حلم من الأحلام . واذا سألته صدفة

عما يفكر أو يشغل باله ، ارتعش رعشة خفيفة كمن يستيقظ من سبات عميق على حين غرة ويقول : لا شيء •••• لا شيء •••• فقط كنت أتصور ما يقوله الناس عني أحقاً هذه البزة الجديدة تناسبني أم لا ؟ وهذه السترة السكوتشية منسجمة مع ربطة العنق الوردية أم لا وهذا الحذاء الخ •••

كنت أدهش لتفكير رجل على هذه الشاكلة ، وكنت أصاب بالخيبة كلما طرحت عليه سؤالاً أو كلفته بأمر من الأمور التي تحتاج الى شيء من التفكير • كان لا يتقن عملاً من الأعمال سوى الوقوف أمام المرأة !

تساءلت يوماً من أين يأتي هذا الشاب بالمال لينفق هكذا بسخاء على لباسه وهندامه ، ومراهمه وأصباغه ، فعلمت يوماً من احدي الصويحات ان هذا الفتى المفتون ما هو في الواقع الا بغي مأجور ، أي بصريح العبارة « جيكلو » •

قالت هذه الكلمة الأخيرة بفرنسية واضحة وقد ارتسمت على محياها علائم الخجل •

قلت : كفى •• فهمت كل شيء •

وضحكننا معا •

كانت ضحككتها — كما يقول شاعرنا المحبوب — كأنها أنعام وورود •

وقضينا الليل نلهو ونعبث ، ولا أقول ببراءة الأطفال ، بل بجرأة الشباب المتدفق حيوية وحياة ، وفي جو من الحيوية لا يشويه تكلف ولا

توتر أو خوف ، ولا كبت ولا حرمان ... تركنا الأمور تجري على
أعنتها ، فلا بيع ولا شراء بيننا ، بل عقلان حران ، وجسدان حيان •
لقد انطلقنا من القيود ، وفتحت أعيننا على نور جديد •

وهكذا كانت ليلة حبي •• وكم تمنيت لو أن العالم بأسره شاركني
فرحة قلبي - كما يقول أحد الشعراء - :

كافت وردة خفيفة الظل ، حاضرة البديهة ، جذابة فاتنة ساحرة ،
هينة لينة ، ينبعث من عينيها شعاع وألق ، كما يشع نجم في السماء ،
ولقد أرسلت شعرها الذهبي المتماوج على كنفها العاريتين حسبتهما
آنذاك آلهة الجمال هبطت على الأرض •

ولما أدركنا الصباح ، اتفقنا على الزواج ، بلا عقد ولا صك نكاح •
وهنا لا حاجة بي الى القول ان الزواج اذا لم يقم على أساس من
الحب والمودة والثقة ثم التجربة - وأعني بالتجربة كل ما تتضمنه من معنى
التجربة الحقيقية - فالتفريق خير منه وأجدي • وأظن ان أكثر المجتمعات
تزمناً في عصرنا الحاضر - كإيطاليا الكاثوليكية الصميمة - قد أقرت
بمبدأ الطلاق ، كحل لا غنى عنه اذا لم يعد بالامكان قيام انسجام
بين الجنسين •

تناول جرعة من كأسه واستطرد قائلاً :

دعنتي وردة في اليوم التالي الى حضور اجتماع شعبي في صالة
الشتاء ، وأغرنتني بأني سأجد في هذا الاجتماع ما يشلج الصدر ، ويزيل
الغم ، ولا سيما على عربي مغترب مثلي ، فتبعتهما دون تردد • وهناك
صادفت حشداً من العمال والطلبة والمثقفين • وتناوب الخطباء على المنبر

الحر ، ينددون بسياسة حكومتهم الرجعية الامبريالية ، وينذرون بخطر النازية والفاشية على الأمن والسلام في العالم أجمع ، وما ينتظر الانسانية المعذبة من أهوال على أيدي جلادي الشعوب ، ويضربون الأمثال على ذلك بما يجري في اسبانيا من مجازر وحشية ، وحرب أهلية طاحنة ، ولشد ما أثار في العجب أن وقف كبير خطبائهم - وهو موريس توريث على ما أذكر - يفضح الاعمال الهمجية التي تقترفها جيوش الاحتلال في المستعمرات الفرنسية ، وكيف ان فرنسا الثورة الكبرى بدل من أن تعمل على تحرير الشعوب المستضعفة وتمنحها حق تقرير المصير ، تمنع في اضطهادها ونهبها ، وتعمل على تقسيمها وتمزيقها . وشرح بأسهاب ما تلاقيه شعوب المستعمرات الفرنسية وراء البحار من ذل وهوان ، وجوع وفقر وجهل وخوف ، واستشهد بوضع الجزائر التي حرمت فرنسا أهلها من أبسط حقوق الانسان ، وتساءل بسخرية هل يعقل أن نجعل من الجزائريين العرب فرنسيس خُلص ؟! وقان : مما يدل دلالة واضحة على سخف السياسة الفرنسية الامبريالية التي تزعم انها جاءت شعوب المستعمرات بالحضارة والمدنية ، انها بعد مضي ما يزيد على أكثر من مئة وثلاثين عاماً على احتلال الجزائر لم تنشئ فيها جامعة أو كلية واحدة عربية ، فهل معنى الحضارة ومفهومها عندهم الجهل والفقر والخوف والقتل والنهب والسلب ؟!

هتفت طويلاً للخطيب الصادق البليغ الوسيم مع الهاتفين ، وكان بينهم لفيف كبير من الجزائريين والأخوة المغاربة وسواهم من طلبنة البلدان العربية ، وأدركت ما لم أكن أدركه من قبل ، وهو أن مصير الشعوب واحد ، وان مستغليها ومستعبيها طبقة واحدة ، وان قضاياها

الوطنية - وأعني بها قضايا الشعوب المستعمرة مرتبطة مصيرياً بنضالها الذاتي من جهة ، وبنضال الشعوب الأخرى التي تهيمن عليها الحكومات الامبريالية الرجعية المستغلة الطرفين • وعلمت كذلك أن لنا هنا في باريس أصدقاء يدافعون عن قضيتهم وقضيتنا المشتركين بتصميم وثبات ، أكثر مما يدافع عن حريتنا واستقلالنا بعض زعمائنا بميوعة وغباء •

سألتني بعد أن خرجنا من الاجتماع ، وقد تأبطت ذراعي ومالت عليّ بعطف وحنان : هل راقك ما سمعت وشاهدت ولا سيما فيما يتعلق بقضايانا المصرية الواحدة ؟

أجبتها وأنا شارداً الفكر : هذا شيء جميل جداً ••• ولكن خبريني بربك هل كل الفرنسيين يفكرون ويعملون على هذا النمط من التعقل والتبدير ؟

أجابت بالنفي آسفة وقالت : ان ثمة قوى باغية تستغل شعوبها وشعوب المستعمرات معا ، ولا تعرف حقيقة حسابها ، وأعني به حساب الأرباح والخسائر ، اذ من الواضح لكل ذي بصيرة ان ما كان يتكبده الاستعمار من الخسائر في الأموال والأرواح يفوق أضعافاً مضاعفة - بالنسبة للشعب - ما يجنيه طغاة المال والاحتكار والذين لا يتعدون المثني عائلة من أرباح (١) • ان تلك الفئة هي التي تحرك الحكومات

(١) تلك هي لمحة خاطفة عما كانت عليه الحال السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد كان فعلاً ما يسمونه بالمثني عائلة هي التي تتصرف بمقدرات فرنسا . الا أن الأوضاع

وتوجه سير الانتخابات ، كل ذلك باسم الديمقراطية والحرية ، هم بحكم تكويرينهم وطبقتهم ونشأتهم من ألد أعداء الديمقراطية والحرية .
واننا لا نستغرب هنا اذا ما رأيناهم في غد قريب يفتحون أبواب باريس ليدخلها هتلر وموسوليني دخول الفاتحين الظافرين ، فهم يفضلون أن يحكم وطنهم الفاشيون على أن يحكمه الاحرار والعمال والاشتراكيون .

كانت رؤية وردة صحيحة واضحة . . . فقد أثبتت الأحداث المتتابعة بعد ذلك بزمن قصير جدا ، ما ذهبت اليه من رأي سديد ، فقد ارتمى كبار الرأسماليين والمارشالات والجنرالات من الفرنسيين غداة الحرب العالمية الثانية في أحضان النازيين ، وعلى رأسهم المارشال بيتان العجوز الذي صرح علانية انه يفضل حكم الفاشية على حكم الاشتراكية أو الماركسية .

قضيت أياما سعيدة معها في الحي اللاتيني - حي الطلبة والشباب من كل جنس ولون - وتقلنا من حان الى حان ، ومن ندوة الى أخرى ، ومن دار الى دار ، اذ كانت لوردة اتصالات وثيقة بجماعات من المثقفين ، أو أولئك الذين يطلقون عليهم تسمية الأنتلجنسيا ، توزع عليهم المشورات والكراريس ذات الأهداف الثورية التقدمية .

كنت أتبعها في تنقلاتها ، وأستمع الى نكاتها ومداعباتها تلقيا هنا

تغيرت تغيرا محسوسا بعد الحرب العالمية الثانية و اثر انتفاضات عمالية و طلابية عديدة أهمها انتفاضة عام ١٩٦٨ وحصل العمال والفلاحون و الطلبة و صغار الكسبة و التقنيون على كثير من حقوقهم و مطالبهم ، و أدركت البرجوازية الفرنسية التي كان يتزعمها الجنرال دي غول نفسه حقيقة مصالحتها و عرفت حسابها ، فرفعت يدها عن المستعمرات .

وهناك بعفوية الفتاة الباريسية اللعوب ، ولكنها في الوقت نفسه لا تنسى ما يبهد اليها من عمل ، فكانت جادة كل الجهد في أداء المهمة الموكولة اليها ، مؤمنة بقضية عادلة ، ملتزمة بموقف •

لم أحاول مرة أن أعترض سبيلها فيما هي مقدمة عليه من عمل ترى فيه الخير للناس أجمعين • وكنت أساعدها في بعض مطالعاتها بدراسة اللغات الشرقية ، وخاصة العربية منها • وقد اعترفت لي بأنها أفادت مني أكثر مما أفادت من أساتذتها المختصين •

كنا في كل يوم على موعد ولقاء ، تارة في غرفتي وأخرى في غرفتها على حد سواء • وكتم قضينا ساعات وساعات في بحث وجدل ، دون أن تشور ثائرة أحدنا على الآخر كما اعتدنا هنا في الشرق مهما اختلفت وجهات النظر ، وتباينت الفكر •

وفي ليلة ممطرة طرقت باب غرفتي ودخلت بغتة وانهدت على السرير متعبة ، فجلست الى قريبا أسألها عما بها وأواسيها ، وقدمت اليها كأساً من الشاي ، فارتشفتها شاكرة ، وشعرت بالدفء قليلا • قالت : - اني أشعر بالتعب ، وأحس بالخطر ••• ان الحرب على الأبواب ••

هدأت من روعها ، وقلت لها عن يقين : لا أظن أن في الدنيا مجانيين يسوقون شعوبهم الى الذبح هكذا بكل سهولة كما تساق المواشي ••• قد تحدث أشياء وأشياء كالثورات مثلا بيد اني أستبعد اندلاع نار حرب عالمية جديدة ، وجراح الحرب الأولى لم تندمل بعد •

قالت : انك ولا شك ساذج غرّ طيب القلب ولا تدري ما يجري

في الخفاء انهم يرفضون التحالف مع الشرق للوقوف أمام المد
الفاشي ، ولو تم التحالف بين الشرق والدول الغربية الديموقراطية المتبقية
لقضي على الفاشية والنازية وهي في المهد ولكنهم ماضون في غيهم ،
متعطشون الى سفك الدماء ويريدون السيطرة على العالم مهما كلف
الأمر من ضحايا وأبرياء .

x x x

ان قصتي مع وردة - كما سمعت - لا تصلح لأن تكون أساس
قصة لكاتب أو روائي ، فهي قصة حب عادية بين فتى وصبية ، يحدث
مثلها كل يوم ألوف من القصص المشابهة في كل مكان وزمان ، ولكن
الغريب في هذه القصة انها قامت على أساس وعلاقة غير متعارف عليهما
بين الناس في مختلف المجتمعات ، والغريب فيها كذلك ما كان يتملكني
نحوها من مشاعر الصباية والوجد ، مما لا تستطيع الكلمات بأية لغة
من اللغات التعبير عنه لا بسرود ولا شعر ولا نثر .

كنت أكن لها حباً عميقاً صافياً يفوق ما أئشده شعراء الصوفية
المتسامون في وجدهم بالذات العليا السماوية فمن أين آنيك
بالكلمات لأفصح عن مكنونات الصدر والوجدان ؟

وكان طبيعياً أن يثمر حبنا وزواجنا بعد أشهر معدودات عن مولود
سعيد ، بل قل بتعبير أدق عن مولودة سعيدة سمينها (سعدى) ،
فزادت من سعادتنا ، ووقت أكثر ما جمع بين قلوبنا من ود وحب .

نشبت الحرب على حين غرة ، وساد الظلام مدينة النور .
واختفت وردة مع الطفلة .

ودخل هتلر باريس دخول الفاتحين ، ومع زبائنه من الغستابو السفاحين ، وبدأ التنكيل بأحرار البلاد ولا سيما أهل اليسار منهم وكل الوطنيين والاشتراكيين والشيوخيين • وقبض على الكثيرين كرهائن وأعدموا رمياً بالرصاص ، واعتقل آخرون وعذبوا ودفن بعضهم وهم أحياء أو أحرقوا •

كان لا بد لي من الرحيل عن العاصمة الفرنسية ، وتمكنت بواسطة بعض الأصدقاء من الحصول على تأشيرة خروج من سلطات الاحتلال للسفر الى تركيا - كانت آنذاك بلداً محايداً - • وأقمت مدة من الزمن في مصيف يالوه على البوسفور •

وظل مصير وردة والطفلة الحبيبة مجهولاً ، الى أن جاءني نبأ من باريس حمله الي صديقي الرسام يفيد ان الغستابو اعتقلوا خمسين رهينة وأعدموهم رمياً بالرصاص ومن بينهم صديقنا وصديق العرب النائب عن باريس والصحفي المعروف « غبرئيل بيري » اليساري • وقال صديقي ما بين مصدق ومشكك ، انه لا يستبعد أن تكون وردة في عداد الرهائن الذين أعدموا • ولعله لم يشأ أن يؤكد عليّ صحة الخبر حتى لا أصاب بصدمة الفاجعة •

كابدت ما كابدت من ألم المصاب ، وعانيت ما عانيت من لوعة الفراق ، وشعرت بأن جزءاً من نفسي وكياني قد فارقني الى الأبد •

كنت أستعيد ذكريات ليال قضيناها أنا ووردة في حدائق باريس ، وفي ضواحيها المزدهرة ، وفي شوارعها القديمة ومتاحفها النادرة • ذكرى أيام سعيدة في غابة بولونيا ، ورحلات في زوارق تجري على نهر السين ،

أضمرها الى صدري وأداعب خصلات من شعرها الذهبي ، ويتردد في
خاطري صدى أغنية لشاعر فرنسي مغمور ، كان ينشدها بعض المغرمين
في باريس :

« سافرت حبيبتك نحو نجوم جديدة »

« وتركتك وحيداً في غربة • »

« ومع ذلك فلا شيء أقدس من وردة • »

نعم ••• لقد رحلت وردة ، ولعلها رحلت حقاً الى نجوم جديدة ،
وكواكب بعيدة • ومن يدري ؟ هذا الخيال ، بل قل هذا الطيف الذي
طالما داعب وجدان أعلام الشعر الصوفي المتسامي وتيمهم ، هو الذي
أوحى اليّ بكتابة « رسالة الراح والأرواح » على الرغم من علمي بأن
ما كتبته بهذا الشأن لا يتعدى أن يكون أضغاث أحلام في أحلام •••
كشاعر يرى طيف من أحب يحوم بين النجوم •

x x x

قال أمين وقد ارتسمت ابتسامة فائرة على شفثيه :

— والآن هل علمت بسر رسالة الراح والأرواح ؟

وتابع سرد قصته :

— لما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، بذلت كل جهد
مستطاع للعثور على أثر لوردني وابنتي « سعدى » ، فلم أوفق في
مسعائي ، فمنهم من قال لي انها أعدمت فعلاً ، ومنهم من قال ان الطفلة

قد أبحرت الى كندا مع ليف من الأطفال الذين يتمتعم الحرب ، وكلفت
أحد أصدقائي هناك بالبحث عن ابنتي في ملجأ من الملاجئ فأنبأني انه
لم يعثر لها على أثر • وزيادة مني في التأكد من الحقيقة سافرت الى
كندا والولايات والى بلدان أخرى ، فلم أعثر كذلك لها على أثر •

ولما أدركني اليأس من العثور على بعيتي ، انصرفت بكليتي
لأتناسى فاجعتي ، الى السفر والترحال ، وعكفت على دراسات لأوضاع
الوطن العربي من الخليج الى المحيط ، وكتبت ودونت ، وشرحت
وفصلت ، عما شاهدت ورأيت وسمعت واخبرت ، فأطلقت الصرخة تلو
الصرخة ، والنداء تلو النداء ، ولكن أصحاب الجلالة والفخامة ، والسمو
والعظمة ، كانوا في شغل شاغل غني بما هم فيه منغمسون من تأمر
وتنافس وتناذب ••• وكل لا هدف له الا الحفاظ على عرشه ولو كلفه
ذلك فناء شعبه •

وهبت ثورات وانتفاضات - كما تعلم - ساهمت ببعضها ،
وشهدت انقلابات عسكرية متواصلة ، ورأيت بأمر العين كيف كان يعدم
مارشالاتنا وجنرالاتنا وعقداؤنا تبعاً كأنهم على موعد مع الموت المرسوم
وكان يحدث ذلك سراً وعلانية ، سواء في ثورات القصور خفية ، أو
أثناء هبات شعبية عارمة • كانوا كأشباه الرجال ، كل منهم يعتقد في
قرارة نفسه انه أفضل من سواه للحكم ، أو انه نابليون زمانه وهتلر
عصره وأوانه ، أحلامهم كأحلام العصافير ، ان لم أقل الهوام ، فيخيل
الى بعضهم انهم عمالقة كبار ، وما هم في الواقع الا أقزام صغار ، لذلك
كان من السهل على من يتربص بالعرب الدوائر ، أن يصطادهم الواحد

تلو الآخر ، أو أن يوقعهم في شباكه أو بسوقهم كالأنعام في درب
مخططاته !

لقد سئمت أخيراً من متابعة فصول هذه المسألة ، بل المهزلة تمثل
كل شهر على مسرح أقطارنا ، ومللت من تكرار فصولها السوداء بعد
أن خابت الآمال في وحدة العرب وتضامنهم ونهضتهم ، ولهذا تراني
اليوم منزوياً في هذا الركن من قمة الجبل ، بعيداً ، بل هارباً من السياسة
والسياسيين ، والعساكر والانقلابيين ، والانتهازيين والوصوليين ،
والمتاجرين بالشعارات والأديان ، والمذاهب والايديولوجيات ، من
مختلف الطوائف والجماعات ، وسوف أضع عما قريب بين يديك
العديد من المستندات والوثائق والمراسلات التي هي على جانب كبير
من الأهمية والخطورة في مجرى الأحداث المعاصرة ، من الناحيتين
السياسية والاجتماعية التي اعتبرها سجلاً تاريخياً حافلاً بالوقائع البحتة
التي تثبت وتؤكد ان اللوم في تخاذل العرب يقع عليهم أنفسهم وعلى
ججاجتهم الأبرار ، قبل أن يقع على الامبريالية والاستعمار ، والمستغلين
الأجانب الفجار الكفار .

أسألك مرة أخرى بعد ذلك هل تجد في قصتي ما يستحق النشر ،
كما يخيل اليّ انك تنوي أن تفعل ؟

قلت ساخراً : لا ... لا يا صاحب السيف والقرطاس والقلم !

قال ضاحكاً : طبعاً لا ، اذ لا يوجد في قصتي اثاره ولا تشويق ولا
تزيويق انها قصة الواقع المرير ، انها أسطورتنا الخالدة ، وحكايتنا التي
لا بداية لها ولا نهاية ... حكاية الفصاحة والشجاعة ، فنحن بحمده

تعالى - كلنا خطباء وشعراء وفصحاء وشجعان في آن واحد ، كلنا
حملة رماح وسيوف وأقلام ، كلنا تتمثل بأبي الطيب ونقول ونردد معه :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أوليس هذا ما ترمي اليه يا صاحبي ؟

لقد صدق أمين • ليس في سيرته الذاتية من جديد مثير ، ولن
يكون غرامه الطاعني بصاحبه وردة أكثر من تقليد وترديد لأساطير
الأولين : قيس وليلى ، جميل وبثينة ، فالقس أحب سلامة ، وروميو
أحب جوليت واتحرا معا •••• ثم ماذا ؟

الآن أن صاحبي لم يمت حباً وهياماً ، ولا تتيماً ولا نخلة (١) ،
بل تابع مسيرته من أجل ما يعتقد أنه هدف أسمى •

لذلك ظل اهتمامي منصباً على عمله الكبير الأخير « رسالة الراح
والأرواح » •

x x x

ذات ليلة أضناني السهر ، واشتد بي الأرق ، • وكأنت ليلة من
ليالي الشتاء الباردة ، فحاولت المطالعة علي أغفو قليلا في الهزيع الأخير

(١) الخلة - في رأي ابن القيم آخر مرتبة من مراتب الحب بعد
التتيم والشوق والعشق ، وهي كما يقول كمال المحبة ، ولا محل لغير
المحوب في قلب المحب .

من الليل، الا أن التيار الكهربائي انقطع فجأة بسبب العواصف والأنواء ،
وتلمست مصباح الهاريكان وأشعلته ثم هبطت السلم الحلزوني المؤدي
الى الطابق السفلي •

كان المصباح يهتز بيدي ، فيهتز معه ظلي ، وأبصرت بصيصاً من
نور ينبعث من غرفة المكتبة فولجتها فاذا بي وجهاً لوجه أمام أمين وراء
مكتبه ، شاحب الوجه ، شديد الاصفرار ، وعلائم الألم الدفين بادية
على محياه الرزين •

سألته عمّ به ؟ ولماذا لم يأو الى فراشه حتى هذه الساعة المتأخرة
من الليل •

قال بايجاز : الألم ••• الألم •••

ناولته حبة من الدواء المسكن للألم ، فابتلعها دون اكتراث ، وقال
هات أخرى •

ثم سألني : وأنت لماذا لا تنام ؟

قلت : ان ما يشغلني ويقض مضجعي قصتك المفجعة ••• ترى
أين ابنتك سعدى الآن ؟ ألا أستطيع عمل شيء في سبيل العثور عليها ؟

قال : لن تستطيع فعل شيء أكثر مما فعلت أنا أبوها ••• لقد
يئست من لقاءها • ألم أخبرك بأني طفت العالم سعيًا وراءها أو بحثًا عن
أثر لأمها فلم أوفق الى شيء ؟

وصب كأساً من الويسكي وتجرحها دفعة واحدة ونظر الي بما يشبه
الاستحياء أو الاعتذار وقال :

— هكذا أوصاني الطبيب الألماني !

ودفن رأسه بين ذراعيه برهة ، ثم استنفاق وشخص اليّ ببصره وقال بضجر : ما لي أراك واقفاً أمامي هكذا كالصنم •• ألم تعثر لي على كتاب « العشاق » للامام ابن الجوزي وتلك الرسالة المفقودة لابن الخياط عن « ابن الراوندي » ؟

حملت مصباحي بيدي ، ورحت أبحث وأنقب بين الكتب والملفات على ما طلب ، وبعد برهة وجيزة عثرت بين ملف من ملفاته الكثيرة على مغلف كتب عليه بخط عريض (تهديدات بالقتل) •

أمسكت بالمغلف دون أن أفضه وسألته : ماذا يعني هذا ؟

قال : انها رسائل تهديد ووعيد تلقيتها في أوقات متفاوتة منذ زمن غير بعيد ، عندما تصديت — بقلممي لا بسيفي طبعاً — لزمر الارهاب والقتل من جماعات طائفية متزمتة ، لا أدري بالضبط من يجررها من وراء ستار ، فتكرموا عليّ بهذه المجموعة من رسائل التهديد بالقتل والحرق •

سألته متعجباً ، وماذا فعلت ؟

قال : كنت أرد عليهم بقول الشاعر :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً

أبشر بطول سلامة يا مربع !

يبد أن أحدهم على ما يبدو ، قد بلغ به الهوس المذهبي أشده ،

فعمد فعلاً الى تنفيذ وعيده ، فأطلق عليّ عدة عيارات نارية في زاوية من أحد أحياء المدينة ، ولكنه أخطأني ، وهكذا نجوت من الموت مرة أخرى بأعجوبة . . . لقد تكررت هذه المآسي والأهوال في حياتي . . . كنت لا آبه بهم ولا بتهديداتهم ، ولا أعيرهم التفاتاً ، بل كنت في الواقع أشفق عليهم . ومضيت في طريقي ، ومن يخطط طريقاً له لا يخشى قطاع الطرق . كم كنت أرثي لحالهم . . . انا لا نزال في هذا البلد بحاجة الى مصحة واسعة جداً للأمثالهم من المرضى والافتعاليين والمتعصبين أو حشرهم جميعاً من مختلف الملل والنحل في معسكر للعمل المشمر ، بدلا من افساح المجال أمام المتأمرين على تمزيق هذا الوطن المسكين لاقتناصهم وأخذهم الى معسكرات التدريب على القتل والفتك بأبناء جلدتهم من رجال العلم والفكر وسواهم من عباد الله الصالحين .

وران علينا صمت كصمت العدم .

نظرت فيما حولي على ضوء الشمعة التي تذوب ببطء ، فألفت الأوراق مبعثرة من حوله هنا وهناك ، وسميخته يقول كمن يناجي نفسه : هيهات . . . هيهات . . . أتى لي أن آتي بجديد . . . ولكن مهما يكن من أمر فقد سكبت روحي في رسالتي الأخيرة .

قلت هازئاً بعض الشيء : لعلك تعتقد أن الأرواح الشريرة تطاردك ؟

نظر اليّ بلا اكرثا ولزم الصمت .

وجلست أمامه أحرق بلهب الشمعة الخافت . واشتد عويل الرياح وزفير العاصفة . وبدأ فجر قائم يطل علينا من النافذة الواسعة . وعلى حين غرة سمعنا طرقاتاً قوياً على الباب ، فهرعت الى لقاء الطارق .

كان بشارة ساعي البريد يرتجف من البرد أمام الباب وهو يرتدي
مشمعه الأسود وعليه ندف من ثلج •

أدخلته غرفة المكتبة على عجل وأغلقت الباب ، فناول « أمين »
برقية وقال :

— والله لولا أنك عزيز على قلوبنا لما أسرعت اليك مع طلوع
الفجر بهذه البرقية ، ولما غامت بالخروج من مكتب البرق والبريد •••
انظر لعلها برقية مستعجلة فيها بشرى سارة لك •

رد عليه أمين بصوت مبجوح : شكرا يا بشارة ••• والله ما أنت
الـ « بشارة » خير •

وفض البرقية بسرعة ، وقرأها كمن لا يصدق عينيه ، ولاحت على
أساريه معالم فرحة طاغية ، وفترت الدموع من عينيه المتعبتين ، وناولني
البرقية وقال خذ واقرأ :

كافت البرقية تحمل النص التالي بالفرنسية : (في السابع من
الشهر الجاري سأكون عندك) •

ابنتك : سعدى

قال أمين : إنها معجزة ••• معجزة حقاً !

وجفف دموعه ، وعاد اليه هدوءه ، وشخص بصره الى النافذة
كصب مدنف ينتظر عودة الحبيب •

× × ×

هدأت العاصفة عند الصباح ، وانقشعت الغيوم الدكناء قليلا ،
وعاد الى الجبل بعض سنائه وعبيره المنعش •

تركت صاحبي في مكتبه ليستعيد ذكرياته السعيدة ، وليعاود تلاوة
تلك البرقية السارة المفاجئة مرات ، كأنها هبطت عليه من السماء •

خرجت أمشي متدثراً متعثراً فوق الثلوج ، متوكئاً على مظلي
المطوية ، ووجدتني صدفة أمام الغوير الذي كان يأوي اليه أمين في
الصيف بعد ظهر كل يوم ، ويقضي فيه الساعات بين اليقظة والوسن
كما سبق أن أنبأني بخبره ذات ليلة •

كانت ذوائب الثلوج والصقيع تكاد تغطي مدخل الغار الصغير
المظلم •

ولست أدري ما اذا كانت رسالة الراح والأرواح التي ألمح اليها
صاحبي في مجرى أحاديثه العابرة ، المرة تلو المرة ، قد نسج خيوطها في
ظلمة هذا الكهف ؟

ولست أدري ما اذا كان لجوءه الى هذا الغوير بدافع من معاناة
ألم الذكرى ، أو اشتداد الخلّة فيه ؟

لقد أصبحت تصرفاته في هذه الآونة الأخيرة ، وتحركاته الغريبة
في هذه المرحلة المتقدمة من عمره تثير اهتمامي وفضولي •

دفعني هاجس قوي الى دخول الكهف الذي شبهته بالغوير •
وكان مصباحي الكهربائي في جيب معظفي لا يفارقني ، فاستعنت به
لأتمس طريقي •

كأنت الخلوّة تشبه الكهف المنحوت في الصخر • ومن يدري
فعل " أهل العصر الحجري هم الذين نحتوه ليكون مأوى لهم من
زمهرير الشتاء القارس • وسقط شعاع المصباح على صندوق خشبي
ملقى في زاوية من الكهف ، فأقدمت على فتح غطاءه تجاوزاً لأرى
ما بداخله ، إذ لم يكن مقلداً •

وقع نظري على لوحات مقدسة فيه ، فأخرجت لوحة منها ،
وسلّطت عليها شعاع المصباح • كانت لوحة رهيبة المنظر مما جعل الهلع
يدب الى قلبي ••• تأملتها ملياً ، فاذا بها رسم هو مزيج من الفن
التأثيري والتجريدي والسريالي الكاريكاتوري في آن واحد ، متداخل
بعضه في بعض ، فكيفما قلبته لا ترى فيه الا وجوهاً دميمة ، وأقزاماً
قميئة ، وجماجم وهياكل ، وما يشبه الأطياف ، حتى اذا أمعنت فيه النظر
قليلاً ألفت صوراً جمالية عارية في جانب منه تخرج من ثنايا وخطوط
تلك الأجسام البشعة ، وخلفها آثار خراب ودمار وأطلال •

راودني خاطر غريب : ان هذا الرسم بمزجه واختلاطه على هذه
الشاكلة ، وبخطوطه الانسيابية العفوية ، وتعايره الناطقة بالألم والكارثة
والدمار ، أشبه ما يكون بما تنفق عنه عبقریات أهل الفن في مرحلة من
هوس أو جنون ، وقد شهد العالم أجمع ما يشبهها الى حد بعيد من
إبداع بعض نزلاء المصححات العقلية ممن مارسوا فن الرسم في سن
مبكرة ، ثم ذهبوا ضحية ضغط ظروف اجتماعية قاسية ، أو نزوات
نفسية قاتلة •

أترى صاحبنا قد دخل في مثل تلك المرحلة الشاذة ؟

ثم هل بلغ به الهوس هذا الحد من تركيب ومزج وخلط بالخطوط والألوان وأنا الذي كنت أعرفه منذ عهد بعيد لا تصدر عن ريشته إلا لوحات ذات أشكال وألوان وأضواء متناسقة ، فيها متعة للناظرين ، وتعبير عن فن أصيل .

اذن ما معنى هذه الرسوم المفزعة المشوهة ، ذات المغازي الغامضة ؟ أعدت اللوحة الى الصندوق وتناولت غيرها ، فاذا بي أمام لوحة تمثل النعيم والجحيم ، يختلط فيها الحابل بالنابل ، كأنها صورة واقعية لما علق بأذهان أناس كثيرين عن يوم الحشر والنشر ، ورأيت في أسفلها ما يفوق أسلوب دافنشي التشريحي الرصين ، وفان كوخ المخنون ، وبيكاسو ودالي وسواهما من أصحاب التقاليع في الرسم الحديث . كانت تمثل خليطاً عجيباً من قردة وأقزام ، وبشر وحيوان وهوام ، وعمائم وقلائس ، وأطفال كالملائك ، وجوريات برقع وجرع ، وعجائز ودرأوش متصابين أو متهاوين ، يدورون في شبه حلقات أو دوامات .

قلبت لوحات أخرى ، فاذا بها على هذا الطراز من الغرابة والشذوذ ، فلم أفهم شيئاً مما يعني بها ، ولا تلك المشاعر التي أوجت اليه برسمها .

الا أن لوحة واحدة منها كانت أعجب ما رأيت . تلك التي تمثل نماذج بشرية ذات وجوه معبرة عن روح الشر والجريمة والجنون تعبيراً ناطقاً فذاً ، تكاد تشبه الى حد كبير لوحات « جيركيو » المشهورة ، فيظل منها وجه مخلوق توحى ملامحه ونظراته بأنه زعيم أو قائد عسكري جبار ، وثانية تنطق بتعابير وسمات زعيم ديني زائف العينين ، تنبئ

ظفراته بتعصب أعمى شديد ، وثالثة تمثل سحنة مجرم خاطف أطفال ،
أو أحد المرضى على شكل من هذه الأشكال • وكذلك لفت نظري
رسم يمثل لصاً خفياً. اذا نظرت الى تقاطيع وجهه ملياً خشيت أن تمتد
يده الى جيبك ، ولوحة أخرى ينطق وجهه صاحبها بالحق والجدد والحسد
والكراهية والبغضاء ، حتى لتشعر حقاً انه يناصبك العداة ، من أية
زاوية نظرت اليه ، ومهما حاولت الابتعاد عنه أو اقتربت •

لقد أدركت بالنظرة - قبل اطلاعي على كتاب الظواهر الثورية
لجان بيشلر - ان هذه الرسوم ما هي في الواقع الا تصنيف عقري
لنوعيات من السلالات البشرية ، والجماعات الانسانية ، تعيش بيننا في
كل دائرة ومحيط من أرضنا ، وهي ذاتها ترمز الى ما يكمن في أعماق
ودخائل هؤلاء الناس من روح الشر والجريمة والعدوان !

أعدت كل شيء الى موضعه وعدت الى الدار وأنا محتار مما
رأيت وشعرت •

ماذا يعني أمين من رسم هذه اللوحات ؟
ودارت في نفسي تساؤلات وتساؤلات •••

أهو تصوير النفس الانسانية في غبش الظلام ؟ أم تعبير عما عاناه
هو بالذات من عنت الأشرار ؟

أهي رؤية لخالصة ناقبة للأرواح الشريرة ؟

هذا التساؤل الأخير الغريب هو ما قررت أن أطرحه على أمين
في لقاء آخر لي معه •

x x x

الصراع

قال أمين : أين كنت ؟

أجبتته متردداً قليلاً : كنت في الغار .

قال دون أن يبدو على وجهه العجب والاستغراب : حسناً فعلت
كان بودي أن أعرض عليك لوحاتي لأرى آثار انطباعها في عقلك المحدود ،
ففعلت أنت ذلك من تلقاء نفسك . أرجو أن تأتيني بصندوق اللوحات
الى هنا في القريب العاجل ، فهي من وحي رسالة الراح والأرواح ،
وفيها من التعابير والسمات ، ما لم يطاوعني القلم على التعبير عنه ، إذ
لم أجد في اللغة ما يصور حقيقة أفكارني كما تصورها ريشتي ، ولست
على ثقة ما اذا كانت تلك الرسوم التي شاهدتها ذات قيمة فنية معبرة
ناطقة أم لا ؟ . ان الرسم عملية إبداعية تفوق الكتابة والوصف !

وهنا طرحت عليه السؤال الذي كان يحيرني دون مقدمات :

— قل لي بوضوح هل تؤمن أنت بالذات ان ثمة أرواحاً خيرة
وأرواحاً شريرة ؟

قال دون تردد : ان قصة الخير والشر ، والنور والظلام ، تدخل في باب الأخلاق • وقصة الصراع بين الخير والشر لا تزال تشغل البشرية منذ نشأتها ، وقد تعددت آراء الباحثين في الأخلاق حول هذا الموضوع الحساس • فمنهم من يصر على أزلية الصراع بين الخير والشر ، ومنهم من يرى الموضوع من زاوية أخرى هي زاوية النسبية والتجريبية ، فلا خير هنالك مطلق بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، ولا شر كل الشر ، فالأمر لديهم نسبي ومختلط تتبدل مفاهيمه بتبدل الاوضاع المعيشية والاجتماعية وبمرور الزمن • وهم ماضون في بحوثهم على الرغم من العقبات الكأداء التي تعترضهم في هذا المضمار ، ألا وهي تعذر بل استحالة اجراء تجارب مخبرية وميدانية على السلالات البشرية ، كما تجرى على القرود والفئران والأرانب مثلا •

أما أنا فقد دلنتي تجربتي على أن قصة الخير والشر ، والنور والظلام ، انما هي من صنع الانسان نفسه ، فجبك حولها الكثير من الأساطير ، كما نسج من قبلها أساطير أخرى لا تقوم على أساس من الواقعية والموضوعية ، كلها نابعة من جهله المطبق لبعض أسرار الطبيعة ، والمركبات الانسانية النفسية الخفية الكامنة في أعماقه منذ عصور سحيقة ، ولجهله في كثير من الحالات ما يطرأ على المسيرة التاريخية من تحولات وتغيرات جذرية • فاذا انطلقنا من أن الشر كامن في الغريزة العدوانية ، وان الصراع في داخل المجتمعات وخارجها أمر محتم ، مذ كان الانسان لا يعرف شريعة غير شريعة الغاب ، لرأينا ان المجتمعات في تطورها التاريخي المحتم أيضا ، قد استطاعت أن تسن الشرائع والقوانين وتبني الاعراف في داخلها للحد من الأعمال التي سميت بالأعمال

الشريرة ، كالجريمة ، وأعمال اللصوصية والجنون والانتحار ، تلك الأعمال التي لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات الانسانية • ، وبذلك تمكنت الى حد بعيد من توطيد الأمن والسلام بين أفراد المجتمع الواحد على الرغم مما يقوم بين أفراد هذا المجتمع نفسه من نزاع على المال والجاه والسلطان • أما على الصعيد الدولي ، فلم تتمكن الشعوب المختلفة حتى الآن من سن قانون دولي شامل ونافذ المفعول يخول دون النزاع ، وقيام الصراع بين الأمم ، ويضع حداً نهائياً للحروب ، على الرغم من أن شعوب العالم استطاعت أن تتقدم بعض الخطوات البطيئة في هذا المضمار كعقدها بعض التشريعات الدولية القليلة الأهمية ، كميثاق جنيف للصليب والهلال الأحمر ، وميثاق عصبة الأمم ثم ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وشرعة حقوق الانسان ، ولكنها لا تزال موائيق وقوانين هشّة ، غير ملزمة للمتصارعين الأقوياء ، ولا تزال شريعة الغاب هي السائدة حتى اليوم في الحقل الدولي •

أعود الى القول أن قصة الخير والشر لا تزال أسطورة ، فما تراه أنت خيراً ، قد يراه غيرك شراً مستطيراً ، وهذه النسبية أصبحت واضحة للباحثين ، الا أن بحثهم ينصب اليوم حول أسباب ما يسمى بالعدوانية وما تحمله في طياتها من شرور : كالحروب والجرائم والسلب والنهب والجنون والانتحار الخ •••

لقد أصبح كثير من هؤلاء الباحثين في هذا الزمن الأخير يميلون الى الأخذ بالنظرية القائلة بأن مثل هذه الحالات والنوعيات التي تعاني منها الانسانية المعذبة جمعاء دون تفريق بين شعب وشعب ، انما هي حالات مرضية اجتماعية ونفسية ، يكمن خلفها كثير من العوامل الاقتصادية

والمسلكية والأسرية وغيرها ، ولذلك لا يمكن معالجتها عن طريق العنف والإعدام ، ولا يمكن أن يعالج الشر بالشر في جميع الاحوال ، بل ان مثل هذه القضية الكبرى ذات الأبعاد الانسانية الواسعة ، والنتائج الخطيرة على مصير العالم بأسره ، يجب أن تعالج بطريقة علمية تجريبية جذرية ، وأن ينظر الى المجتمعات من هذه الزاوية كوحدة شاملة تعاني جميعها من نفس المشكلة والعقدة ، ونفس الأعراض والأمراض ، فالشرير العدواني ينبغي أن ينظر اليه كمخلوق مريض - حتى ولو كان زعيم قومه - فاما أن يعالج بوعي من مجتمعه وقومه بالذات عن علم وادراك ، أو أن يقصى ويستبعد عن المجتمع ، سواء أكان مجتمعاً قومياً محلياً ضيقاً أو مجتمعاً دولياً واسعاً .

هذا ما أوحى الي برسم تلك الوجوه التي سميتها أنت بالوجوه المجرمة أو الأرواح الشريرة . فهل علمت ما تخفي من سر ؟
قد أكون مخطئاً في تعليلي لمثل هذه القضايا والخفايا ، اني لا أدعي المعرفة بكل شيء ، فهل عندك من رأي آخر ؟
قلت : ولكنهم يقولون ان الانسان لا يمكن أن يجرد من الغريزة العدوانية أم الشرور ، وان الصراع محتوم عليه .

قال : هذا صحيح ، ولكن التجربة التاريخية ، والبحوث النفسية المستجدة حتى الاخلاقية ، دلت كلها على أنه من الممكن تحويل مجرى العدوانية ، ومسلك الصراع الى سبل أخرى مع تقدم الانسان وتطوره ، ونضج مداركه ، واتساع وعيه ، وتفتح عقله ، فليس شرطاً أن يقتل الانسان أخاه الانسان لتستمر الحياة ، وينتصر الخير على الشر . ان تجربة تحويل الصراع الانساني الى صراع ضد الطبيعة أو الى صراع رياضي ، أو تنافس علمي أو فضاءي أو ما شابه ذلك من أوجه الصراعات

قد أثبتت جدواها في الأزمان الأخيرة ، وما دام ذلك بالإمكان ، فهل ثمة ما يمنع من المضي به الى الامام ، الى آخر الشوط •

قلت : لكن العديد من الدول قد فشلت في الغاء عقوبة الاعدام ، وعادت الى تطبيقها بعد سنوات من تجارب مريرة إذ كان من أثر هذا الالغاء أن ازداد خطر الأشرار والمجرمين •

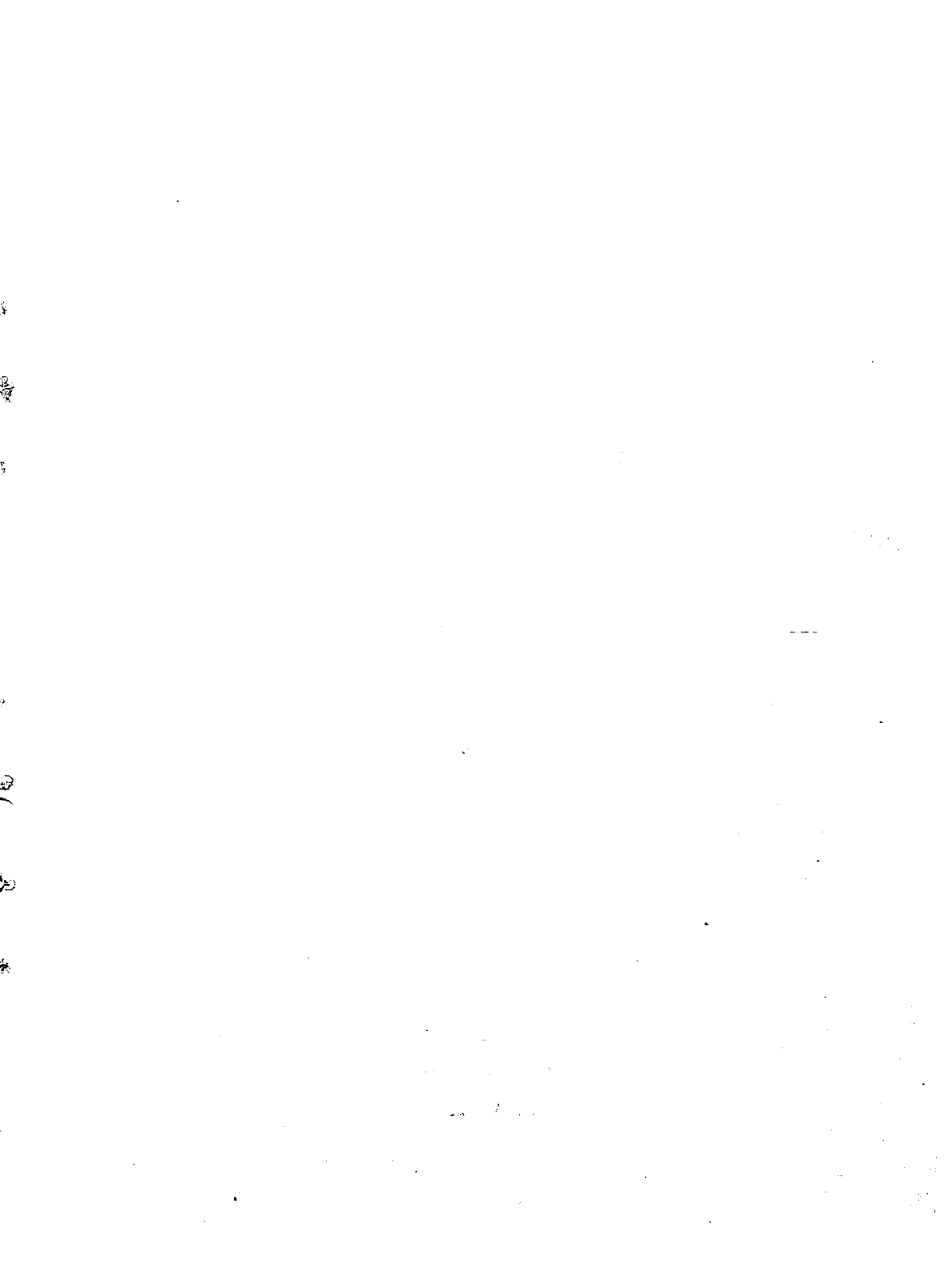
قال : هذا لا يمنع من مواصلة التجربة ، كمواصلة النضال من أجل الأمن والسلام •• أعود فأكرر القول ان المسألة لم تعد مسألة فلسفة واعتبارات أخلاقية بحتة • المسألة غدت قضية مجتمع صحي معافى ، وآخر مريض سقيم ، ولذلك تجدني هنا على اتفاق تام مع الدكتور « الكسيس كاريل » مؤلف كتاب (الانسان ذلك المجهول) في مطلع العشرينات من هذا القرن ، اذ قال ما مؤداه : لو أن الناس صرفوا في المئة خمسين مما يصرفونه على القتل والدمار ، من أجل معالجة الانسان والكشف عما في داخله من أمراض ، ومن اجل انشاء مجتمع صحي ، لأصبح الانسان ذلك المجهول على أحسن حال ، وفي أتم صحة وعافية ، ولجنبناه الكثير من الشرور والاجرام •

لم تعد القضية قضية مجرد صراع طبقات ، أو صراع دول غنية وفقيرة وحسب ، بل دخلت شعوب هذا الكوكب في عصر جديد ، عصر الذرة والفضاء ، فاما أن تدمر عن بكرة أبيها وتلتهمها الحرائق النووية ، أو أن تكافح وتصارع مجتمعةً الحرب والجريمة والجنون والانتحار !

لقد أصبح عالمنا عالماً واحداً شئنا أم أيينا •

قلت أراك مع ذلك متفائلاً جداً !

x x x



الرحيل

« من اليمن للفتى أن يجيء الموت إليه سمياً سريعاً
ولم يمارس من السقام طويلاً ومضى ولم يكابد التبريحاً »
المعري

- قصدت مبكراً الى الكهف ، وعدت بصندوق اللوحات .
- اجتزت الحديقة وأنا شارد الفكر ، كاسف البال ، فشاهدت مريم واقفة على عتبة الدار وأمارات الحزن العميق بادية على وجهها .
- نظرت إليها متعجباً ، فقد أفرغني أن أرى ابتسامتها الحلوة تغيب عنها ، فلم تستقلبي كعادتها بطلاقة وبشاشة .
- سألتها عما بها ؟
- قالت بأسى شديد : انطفأت الشمعة !
- أدركت كل شيء على التو واللحظة .
- مات أمين . رحل الصديق .

ولجت واياها غرفة المكتبة ، فشاهدته مستلقياً على كرسيه العريض
وراء المكتب مرفوع الرأس مسترخي اليدين •
بدا كأنه منفرج الأسارير ، فلا أثر للألم دفين ، ولا عبوس ولا
تقطيب ، بل صفاء وسناء •

لقد مسح الموت ما خطه الألم على جبينه ا
خيل اليّ أن ابتسامة طفل وديع مرتسمة على شفثيه •
تلقت فيما حولي ، فألفيت زجاجة الدواء المسكن المخدر فارغة ،
وتذكرت أنها كانت ممثلة الي منتصفها ، وكذلك كانت زجاجة الويسكي
فارغة •

• أما الشمعة فقد احترقت ولم يبق لها من أثر •
هل انتحر أمين بالدواء والشراب ؟ ••••• قلت كمن يخاطب نفسه •
لست أدري •
سمعت مريم تقول بصوت خافت : لا لم ينتحر ••••• قلت لك أن
الشمعة انطفأت •

وحدثني بعدئذ انها لما قدمت اليه قهوة الصباح شهدت معالم
البشر والهناء تطفح من وجهه • وقالت : كان يبدو سعيداً جداً • ولم
أره في يوم من الأيام أسعد منه كالיום • لقد أطلعني على البرقية التي
وردته مبشرة بعودة ابنته الحبيبة اليه •

قلت لعل الفرحة قتلتته ومن الفرح الطاغي ما قتل ا

قالت مريم : من يدري ؟

وجاءنا بعد برهة طيب القرية العجوز ، وبعد أن فحص الجثمان
قال :

— لقد أفرط في الشراب وفي تناول الدواء • يظهر انه كان يشعر
بألم شديد لم يعد يحتمله •

وحتى اليوم لا أدري ما اذا كان صاحبي قد مات من نوبة الفرح
أم من شدة الألم !

x x x

اعتزلت في غرفتي أنشد السلوى والنسيان ، وتركت لمريم أن
تتصرف بما تشاء وبما يقتضيه الواجب بمثل هذه الحال ، وقلت لها :
اني لا أطيق شبح الموت يخيم فوق الرؤوس •

x x x

هكذا تنقضي دوماً ليالينا وأمانينا • • لقد رحل أمين الصديق
ذو القلب الكبير • انطفأ ولم يترك وراءه الا الذكرى ، ذكرى الحب
والوفاء • كان شعلة من فكر متألق • كان شعلة من نور أضاءت الدرب
للكثيرين ، وستظل هذه الشعلة خالدة في العقول ما دام ثمة عقل
وضمير ، وسيرددون صداها جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر •

أطبقت جفني على ذكراه الطيبة وغفوت •

أيقظتني مريم بعد ساعات ، وقالت أنها أعدت لي العشاء في غرفة

الجلوس • وهبطت الى تلك الغرفة كأني على الموعد المعتاد مع أمين
كل مساء • نظرت الى مقعده الخاوي ، فحبست الدمع ، وشعرت
بالحرقة والجوى • ثم تحاملت على نفسي وجلست في مقعدي قرب
الموقد المتوهج •

تقدمت مريم مني مطرقة الرأس ، وسلمتني مغلفين كبيرين ، كتب
على الأول (وثائق ومذكرات) وكتب على الثاني (الى صديقي
رسالة الراح والأرواح) •

وضعت المغلفين أمامي على المائدة أنظر اليهما دون أن أجرؤ على
فضهما ، ورأيت أن أرجىء ذلك الى فرصة أخرى أكون خلالها أكثر
صفاء وأهدأ بالأء •

وانزوت مريم في ركن من الغرفة صامتة وبدت كأنها تمثال من
شمع •

قلت لها : سأرحل غداً يا مريم ••• لم أعد أطيع المقام هنا بعد
رحيل أمين •

قالت : لا لن ترحل • سوف تأتي سعدي وسوف تراها ••• قد
تستطيع معي مواساتها بمصابها ، فأنت بمثابة الأب لها في هذا الظرف
القاسي • كان الفقيد يحدثني عنك بمناسبات عديدة ، ويعتبرك من
أصدق أصدقائه • ولم يكن بالمقابل صديقاً لك وحدك ، بل كان لي أنا
أيضاً لخير صديق وخل وحبيب • وكم سهرت الليالي على راحته وهنائه
وعلاجه ، ولم أكن أعلم أنه قد أوصى لي بكل ما يملك من مال

وعقار ... لقد أبلغني ذلك اليوم محاميه ... انه كان يخشى عليّ
من الفقر بعد موته •

قلت : ليس غريباً أن يصدر عن أمين مثل هذا العرفان بالجميل •
قالت : لكنني أشعر بالذنب الآن ، فكل ما يملك - على الرغم من
ضآلته - حق من حقوق ابنته ، وليس من حقي ، وسأعرض عليها الأمر
فور وصولها وأبلغها اني لا أريد شيئاً مما تركه لي والدها •

طمأنتها بالألاء تستعجل الأمور ولكل حادث حديث •

قالت مريم بعد صمت بارد : لقد أوصى الفقيد أن يحرق جثمانه ،
ويذر رماده على هذه الجبال الشم التي أحبها وأحب أهلها من مختلف
طوائفهم ومذاهبهم •

قلت لها : وهذا ما أوصاني به أيضاً •

وعادت بي الذاكرة قليلاً الى الوراء ، فتذكرت ما كان يردد من
شعر لأبي العلاء ، حول حرق الجثمان ، ومنه قوله :

حرق الهند من يموت فما زاروه في روحة وتبكير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً وسؤال لمنكر وفكير !

× × ×

في اليوم التالي توافد على الدار نفر من المعزين بفقد الكاتب
الكبير • وكان جلهم من المشبان والشابات الذين عرفتهم متعاطفين مع

فكر أمين • كذلك زارنا ليف من الأصدقاء الخالص ، ولشدته ما أثار عجبني أن ألفت بينهم أحد رجال الدين تبدو على مجيئه معالم الطيب والدعة ، يقف خاشعاً بحنان واحترام أمام الجثمان ، ذلك أني كنت على علم بأن معظم رجال الدين قد حرموا مطالعة آثار الفقيه ، وأضافوا عناوين مؤلفاته الى قوائمهم السوداء بأسماء الكتب المحرم على الناس قراءتها وتداولها فيما بينهم •

دنوت بعد قليل من رجل الدين هذا ، وحييته باحترام ، وقلت له أريد أن أطرح عليك سؤالاً أرجو الاجابة عليه بصراحة ووضوح : ما لي أراك وأنت رجل دين معروف بين وفود هؤلاء المعزين ؟

رد عليّ بلا تردد ولا وجل : كان أمين رجلاً يكافح في سبيل الخير والمحبة والسلام ، وأظن أني كنت على خلاف معه في الرأي والأستلوب والمذهب ، إلا أني لا أجد في دعوته تلك ما يخالف الشرائع والأديان بشيء ، وهل الدين يا بنيّ إلا محبة وسلام • لهذا التقيت معه على صعيد واحد في نهاية المطاف •

كان الرجل صادقاً •

وعدت الى غرفتي ، وأوصدت بابها ، وفضضت المغلفين اللذين أودعهما الراحل أمانة في عنقي •

كان المغلف الأول يحتوي على العديد من المراسلات والوثائق السياسية ذات الأهمية التاريخية ، تصلح وحدها لتكون سفيراً ضخماً من تاريخ الوطن العربي المعاصر وأحداثه الجسام ، وكفاحه من أجل الحرية والاستقلال ، فتركته جانبا ، وانصرفت الى مطالعة ما حواه

المغلف الثاني ، فاذا بي أمام « رسالة الراح والأرواح » بنصها الكامل •
تلك الرسالة التي طالما تلتقت نفسي الى الاطلاع عليها •

قرأتها بامعان • كانت رسالة رائعة ، بل صفحات مشرقة حية من
عيون الأدب العربي الحديث ، وسجلاً تاريخياً للفكر العربي المعاصر ،
المتأثر بثتى النزعات والتيارات الثقافية والحضارية ، قديمها وحديثها ،
شرقها وغربها ، كتبها بايجاز معجز ، فصمتت تصميماً أكيداً على
نشرها مهما كلفني ذلك من ثمن ، ومهما اعترض سييلي من عقبات
ومحرمات ومحظورات !

* * *

وصلت « سعدى » بنت أمين في الموعد المضروب •

كان لقاء عسيراً ، وصدمة مروعة ، وقبلتها مريم بحرارة وكفكت
دموعها ، وعملت جهدها على مواساتها • ثم اقتادتها الى غرفة الجلوس
وقد خيم علينا صمت رهيب •

تأملت سعدى ملياً • كانت تشبه أباها الى حد بعيد ، وقد أضفى
عليها الحزن سمة من قدسية الجمال النبيل • كانت مزيجاً من الجمال
الشرقي والغربي ، ذات وجه يضاوي ، سمراء خميرية اللون ، متوردة
الوجنتين ، كحيله العينين ، يشع منهما بريق أخاذ من فتنه وذكاء •

حسبت أن دمعة سالت من عيني ••• وكان عهدي بالبكاء بعيداً •

آثرت الانسحاب من الغرفة ، فقد كان الجو الحزين ثقيلًا جداً على
قلبي • وهمست قبل أن أنصرف بأذن مريم : حديثها عن والدها ••

حدثيها عن آثاره ، عن طيبه عن روحه وراحه ••• حدثيها عن كل شيء •

• وصعدت الى غرفتي أستجمع شتات أفكارى •

عدت الى مطالعة رسالة الراح والأرواح ، فألقيت فيها من الأسرار ما لم أتمكن منه في القراءة الأولى • كأن شيئاً ما ينطق بين سطورها ••• فخيّل اليّ ان « أمين » نفسه يتحدث اليّ بصوت مرتفع رتيب ، ويعبر عما يجول في خاطره باختصار دون شرح أو اسهاب •

شعرت بتوتر في أعصابي ، وثورة في داخلي ، وحاولت الرقاد فلم يغمض لي جنن •

هبطت بعد منتصف الليل الى غرفة الجلوس ، فرأيت سعدى جالسة على مقعد والدها ، شاردة اللب تحديق في اللهب المتصاعد من الموقد • كان وهج النار ينعكس على محياها فيضي عليه بريقاً غريباً مما جعلني أتخليه كأنه محاط بهالة من نور •

جلست في المقعد المواجه لها ، فظلت على ما هي عليه من ذهول وشروود كأنها لم تشعر بوجودي في الغرفة •

وأخيراً رفعت رأسها قليلاً ، ونظرت اليّ نظرة المتأمل الفاحص وقالت : لقد حدثتني مريم عن كل شيء ، عن أبي وعنك ••• حدثني عن سيرته كاملة ، وما عاناه في أواخر أيامه من آلام وسقام ••

قلت مواسياً : لعلها لعبة من الألاعب القدر ، أو صدفة من احتمالات الصدف ألاّ ترينه قبل الرحيل •• هوني عليك فقد تكون الصورة التي رسمتها لك مريم عنه والتي سنظل عالقة في خاطرك مدى العمر أفضل

من صورته وهو يعاني من الألم ويحتضر • كان والدك يردد على مسامعي دائما ان الانسان لا يبقى منه سوى الذكري والفكرة ، فلتكن ذكراه في ضميرك حية عاطرة ، ولتكن فكرته عندك قبساً من نور ، وتلك هي الحياة يا صغيرتي ، وليستمر وجود أمين بوجودك أنت •

— نعم يجب أن تستمر الحياة ••• صدقت إن ذكراه خير عزاء لي ••• تلك هي الحياة — قالت هذه الكلمة الأخيرة بالفرنسية

C'est la vie

وسكنت وعادت تحلق في النيران • ورأيت أصابع يدها اليمنى تتشبك بخصلة من شعرها تتدلى على جبينها ، وقد غرقت في تفكير عميق • كانت أناملها تداعب هذه الخصلة من شعرها برتابة وعصية خفية وبلاوعي منها •

قلت لها : يا الله كم تشبهين أبالك حتى في بعض حركاته وسكناته ••• هكذا كان يفعل كلما استغرق في التفكير ، يمسك بخصلة من شعره ويشدها أحيانا ويسرحها أحيانا أخرى ••• أهكذا تلعب الوراثة دورها ؟ فأنت لم يقع ظرك عليه في حياتك لتعمدي الي ثقليده في شيء ••• ليس الأمر بالتقليد والاكساب فحسب ••• بل هنالك ما هو أعمق وأدق ••• هنالك أشياء كامنة في صميم المخلوقات لا تزال عنا مبهمة خافية •

نظرت اليّ نظرة عميقة ملؤها الدهشة وسألتني : بربك قل لي هل كان أبي يفعل هكذا مثلي ؟

قلت : نعم هكذا كان يفعل تماما • ثم هنالك أشياء أخرى ، ان نظراتك شبه الحولاء — وأعني بها نظرات الحسن باطبع — تشبه

نظراته ، وكذلك بحجة في صوتك وشروذك أحيانا و ...

ابتسمت ابتسامة غامضة وقالت : اذن ليس بالغريب أن أكون ابنته وأنا التي عشت يتيمة لا يعرف لها أم ولا أب ... لقد صدق من قال : الفتاة سر أييها •

قالت ذلك بفرنسية طليقة ، وبلهجة باريسية حلوة •

ثم حدثتني كيف استطاعت التعرف على مصير أييها ، وكيف عثرت على عنوانه ومحل اقامته • وروت لي ما حدث لأمها على أيدي زبانية الغستاو ، وكيف انهم اغتالوها مع من اغتالوا من أحرار الفرنسيين ورجال المقاومة ، وكيف عهدت بها الى خالة لها عجوز تقطن في الريف بعيدا عن المدن والأحداث ، وقد تم ذلك قبل اغتيالها بأشهر معدودات ، وكيف ظلت تعيش في كنف خالتها الموفورة الحال الى حد ما ، اذ كانت أرملة كولونيل في الجيش قتل ابان الحرب العالمية الاولي • وقد تبنتها وأحسن تربيته ، ولكنها لم تحدثها وهي صغيرة بشيء عن حقيقة نشأتها الاولي وعن فاجعة أمها حتى لا تحطم أعصابها وتعقد نفسها البريئة • وبقيت على هذه الحال تجهل كل شيء عما جرى لأمها وأييها الى أن بلغت سن الرشد • وقبل أن توافي المنية خالتها ، سلمتها ملفاً يتضمن جميع المعلومات عن أصلها وفصلها ونسبها ، واسم أييها وكنيته وعنوانه المحتمل وموطنه الأصلي وبعض أسماء من يلودون به من أصدقاء وأقارب •

وختمت حديثها بقولها : كنت لا أعرف أمّاً الا خالتي ، وهي التي أدخلتني معهد الدراسات الشرقية في باريس أسوة بأمي الراحلة ،

فأجدتُ العربية على الرغم من صعوبة تعلمها بالنسبة لنا • ثم عينت في
احدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة ، وأنا اليوم موفورة الحال ،
وسأمضي وحدي في الحياة ، وستكون ذكرى والدي - كما قلت -
خير حافظ لي لمجابهة الحياة واجتياز الصعاب •

وجهت اليّ كلمة شكر أخيرة ، وأوصتني بالألاّ أنسى ما عهد
اليّ والدها بنشره من مؤلفاته •

× × ×

بعد أيام أوصلتني سعدى الى المطار بسيارتها ، قبلتني بحنان •••
وظلت تلوح بيدها مودعة الى أن حلقت الطائرة بي ومضيت الى مصير
آخر مجهول !

× × ×

تلك هي قصة عشوري على رسالة الراح والأرواح ، رويتها ببساطة
وايجاز ، حتى يستطيع القارئ أن يلم بشيء عن منشئها وسيرة صاحبها ،
وما أحاط به من ظروف قاسية ، ومعاناة مريرة ، وكفاح طويل •
ولا أخفي هنا اني تأثرت بعض الشيء بأسلوبه في الكتابة ، ولكن
أتى لي أن أدرك سحر بيانه ، وروائع خياله ، وعميق مشاعره ، ودقيق
معانيه ، وواسع علمه وأسراره !

× × ×

وأخيرا أخشى ما أخشاه ، أن يذهب الظن بالقارئ ، ان رسالة
الراح والأرواح كتبها انسان ناغم غاضب ، ضائع ، جرى فيها مجرى

التقليد الأعمى ، دون هدف من جانبه أو تفكير ، فما تلك الرسالة في الواقع الا نسجاً من صميم حياتنا المعاصرة ، وحصيلة صراع عنيف ، ونضال مرير ، لاهياء فكر عربي جديد ، بعيد عن الأوهام والأساطير ، والشعارات المزيفة والأضاليل ،، ولم يلجأ كاتبها الى أسلوب القدامى في التلميح والتعبير ، من بعيد أو قريب ، الى احداث مشابهة في عصرنا الحديث ، الا « تقية » من قوى البغي والظلام ، ففرض على نفسه ذلك الأسلوب المنمق الساخر ، بعد أن أعينته الحيلة في التعبير عن رأيه بحرية وطلاقة .

وعلى هذا كتب ما كتب تحت ضغط جو خاق من الرعب والفرع .

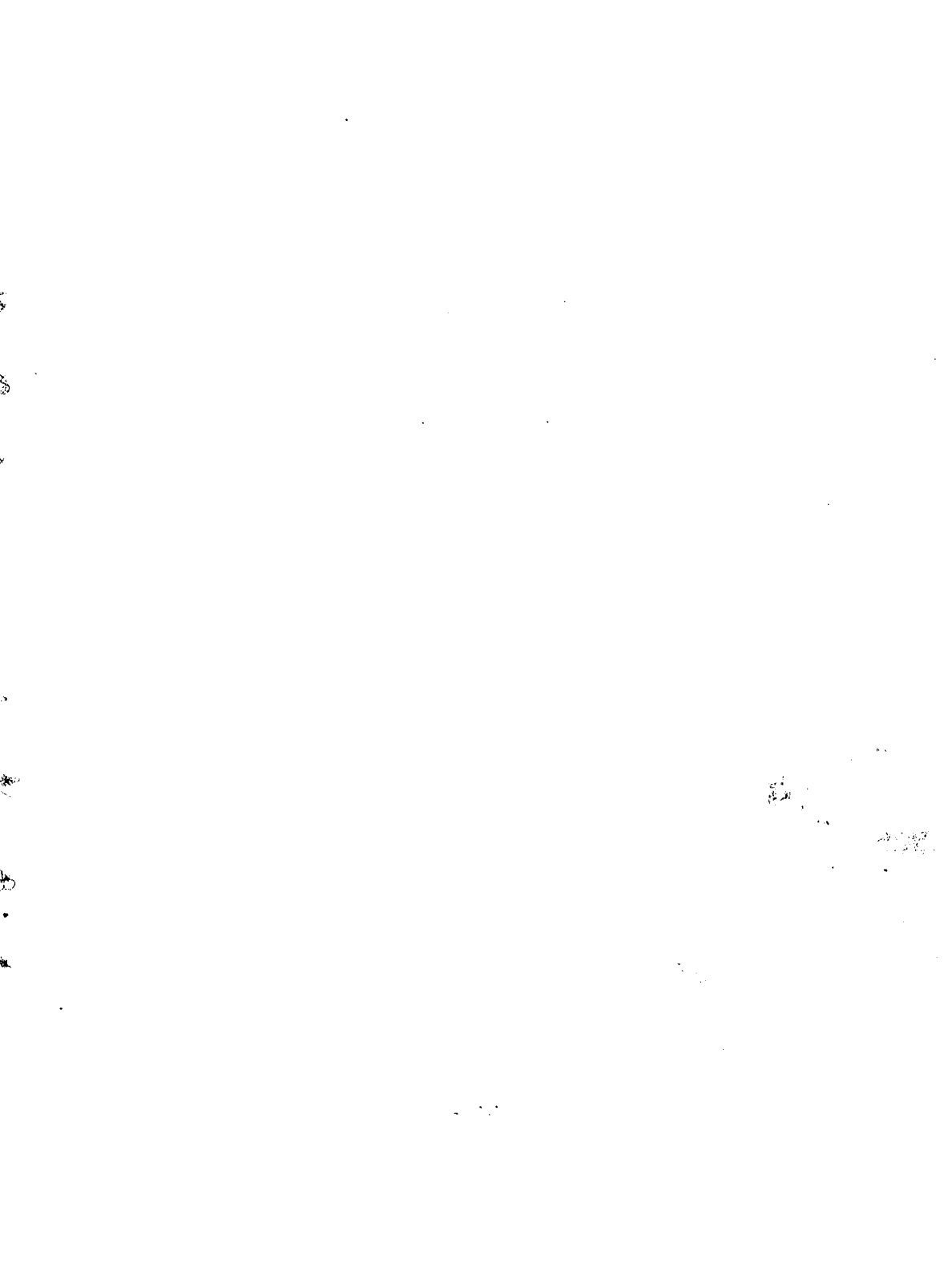
خلاصة القول : ان هذه الرسالة تعبر أصدق تعبير عن روح المجتمع السائد ، وفكر الانسان العربي الحر المعاصر ، جمع فيها بين الغابر والحاضر ، قل من سبقه الى مثلها أديب أو كاتب . ولعل ما قاله العالم الاجتماعي « جان بيشلر » في كتابه « الظواهر الثورية » من أن الأدباء الذين سجلوا أحداث عصرهم في أعمالهم الكبيرة ، قد أعطونا رؤية أصدق وأوضح ، وقدموا الينا من خلال خلجات نفوسهم الصافية ، ومشاعرهم المرهفة ، صوراً شفافة أكثر حيوية وصدقاً من تلك الصور الجامدة التي قدمها الينا المؤرخون المختصون بتدوين أحداث عصرهم ، الذين ينصب همهم الأول على تسجيل سير الحوادث دون الأخذ بما يرافقها من مشاعر ونيات وأفكار وتفاعلات ، بل كان معظمهم في سالف العصر والأوان يهملون ذكر أي شيء عن حقيقة مجتمعاتهم وأوضاعها المختلفة من اقتصادية وفكرية ، مقتصرين فقط على سرد سير وبطولات الملوك والأمراء والسلاطين من ممالك وأعوات !

وفي الواقع ان « غوته » قد عبر أحسن تعبير عن رأيه في كتاب
يمثلون كاتب الرسالة المذكورة ، اذ قال :

« ان المثل الأعلى الحقيقي هو فقط روح الواقع » •

لقد عبر صاحبنا عن روح الواقع في أعماله الكبيرة أصدق تعبير
ثم راح ، وترك لنا رسالة الراح والأرواح !

x x x



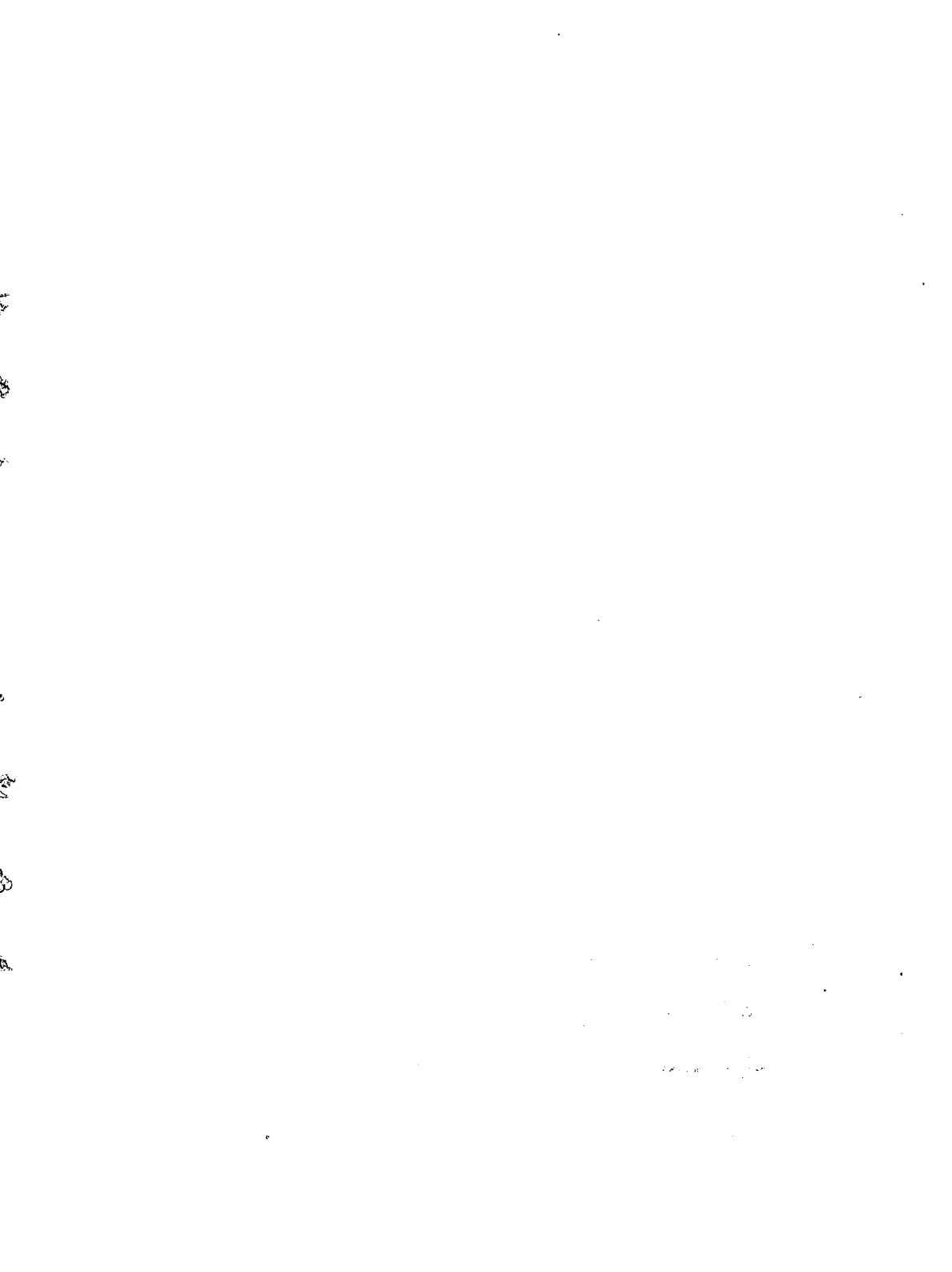
رسالة الرياح والأرواح

الجزء الثاني

(من التمس طريقاً إلى العلم)

(سهل الله له دخول الجنة)

حديث شريف



أضع بين يديك يا صاح ، رسالة الراح والأرواح ، واعلم أنني
كاتبها لجيل غير هذا الجيل ، ولقوم يسلكون غير هذا السبيل ، ثم
ضعها في قمقم من زجاج ، والقف بها في اليمّ لتتناذفها الأمواج ، لتظل
هكذا عصراً بعد عصر ، تطفو على وجه البحر ، الى أن يأتي اليوم الذي
قد ينتشلها فيه انسان ، ويقرأ ما فيها من سر وبيان ، فينشرها على
الناس بأمان ، من بغداد الى تطوان ، ومن الشام الى عجمان .

ومن يدري ، فقد تنجلي عن قومي الغمّة ، في يوم من الأيام ،
ويعلمون أن ما جاء في هذه الرسالة ، لا هو بالمقامة ولا المقالة ، انما
هو حلم من أحلام اليقظة ، راودني بعد معاناة فظة ، واتحاد روحي
عميق ، بصاحبي المعري ، ذلك الفيلسوف العبقري الألمي ، فنهجت
نهجه في رسالة الغفران ، ورسالة الملائكة والشيطان ، علني أغلب الخير
في النفوس على الشر ، وأسقط النفع في الضر ، فيتلاشى ما يكنه الانسان
لأخيه الانسان ، من تزمت وحقد وعدوان ، ويتحول الصراع بين

البشرية ، الى صراع ضد الطبيعة البدائية ، التي لا تزال أسرارها كامنة خفية ، وعواديتها غير مطمئنة ولا آمنة ، تهددنا في كل آونة ، بنذر كارثة لا محال - كما يتوقع أهل الخلاص - آتية ! (١)

وليعذرني من يقرأها اذا ألفتني قد تغاضيت عن لغة أهل ذلك العصر ، فضربت صفحاً عن التكلف في السجع والنثر والشعر ، فلم أنحت كما نحتوا من قبل في الصخر ! اذ لم يعد زخرف القول في عهدنا الحاضر ، يعتبر من الدرر النواذر ، ولذلك كتبت بما نصح به ابن المقفع أهل زمانه ، من الأدباء النجباء ، ألاّ يضربوا بعيدا في متاهات الصحراء ، بحثاً عن حوشي الكلمات الجوفاء العجفاء ، بما لا يمت الى صناعة الأدب الرفيع بنسب ، ولا يساير ركب الحضارة بصلة أو نسب ، ولعل صاحبنا المعري - طيب الله ثراه وقدس سره وأبراه - قد غاص في بطون الدواوين والمعاجم ، طلباً لما فيها من الغاز وطلاسم ، حتى لا يفقه ما يرمي اليه لا الأعاريب من العامة ولا الأعاجم ، سواء أكانوا من الحكام أو الرعية . وأرى في ذلك منه تستراً وتقية ، خشية أن ينال منه الحمقى بما لا ترضاه نفسه الأبية ، فجاء بما لم تأت به الأوائل ، وعجز عن مثله الأعلام الفطاحل ، أو لعل فيما أملى من شعر ورسائل ، ما كان الاّ مباحاة أمام الملأ انه غير عاجز ولا عاطل ، وأنه عليم ببواطن الأمور ، ولو أن القدر حجب عن ناظريه النور ، ولعمري تلك احدى المعجزات ، قد تأتي

(١) يقصد الكاتب بأهل الخلاص هنا أولئك الذين يزعمون بقرب ظهور المسيح أو المهدي المنتظر بعد وقوع الكارثة ، تلك التي هي في ملتهم واعتقادهم واقعة لا محالة - انظر كتاب الظواهر الثورية لجان بيشلر - ترجمة بشير فننصه .

عن طريق ذوي العاهات ، اذا حلت بهم النكبات ، وغمرتهم الظلمات !
وانه لمن العجب العجاب ، في هذا المجال والباب ، أن المعري الذي خلب
بأدبه الألباب ، وثار وقتئذ على أولي الشان والأرباب ، كان معاصروه
معه جدّ متسامحين ، قبل ما يزيد على الألف من السنين ، فلم ينله على
أيدي ملوكهم وحكامهم ، وعامتهم وهجاجهم ، من الأذى والعنت
والضر ، ما أصابنا نحن المخضرمين في أواخر القرن العشرين ، على أيدي
الأمار المتألهين المتكبرين المتسلطين .

ألا فاعلم - أيها الكلبى الحزين - (١) البائس المسكين ، انى قد
دخلت الجنة ، كمن به جنة ، بلا ذلة ولا منة ، وكانت تجربة منى على
تجربة ، فوددت لو أتأكد من صحة ما قال الإمام الغزالي - ذو الهبة
والجلال (٢) في كتابه « المنقذ من الضلال » ، وسواه من آثار وأقوال ،
حول المكاشفة والمشاهدة فأرى في حلم اليقظة ، ما زعمه هو بالذات عن
رؤيته وهو منزو في صومعته في المسجد الأموي أرواح العالم العلوي ،
من ملائكة أطهار ، وصور وأمثال ، الى درجات يضيق عنها النطق
والبيان ، ويعجز عن التعبير عنها اللسان ، بعد اجتياز البرزخ (٣) ، وما

(١) نسبة الى المدرسة الفلسفية اليونانية القديمة المسماة «بالكلبية» (Cynique) وقد سبق للكاتب أن أطلق هذه التسمية على سبيل الدعابة
كما يفهم من مقدمة هذا الكتاب . على صاحبه ، فكان يناديه بيا ديوجين
العصر الحديث .

(٢) « الهبة » في مصطلح الصوفية هي اثر مشاهدة الله في القلب
ويقولون عن الجمال الذي هو جمال الجلال .

(٣) « البرزخ » : في تعبير الصوفية ، العنالم المشهود بين عالم
المعاني وعالم الأجسام ، وفي القاموس الحاجز بين الدنيا والآخرة ، فمن
مات دخل في اعتقادهم البرزخ .

يكون وراءه من نخوار وسيخ (١) ، أو نار وججيم ، أو جنات نعيم •
وقد استبقني الى الباب المسحور ، جواز مرور ، من رب رحيم غفور ،
فاستقبلني رضوان — عليه السلام — بترحاب وحبور ، وقال :

— سبحان مدبر الأمور ••• لقد بلغني الآن جوازك المهور
بخاتم صاحب الشفاعة ، الذي لا ترفض له وساطة ولا ضراعة •

فناديت رضوان ، متجيباً اليه متودداً :

— يا رضو خذ بيدي الى السراط ، فقد بدأت أشعر بالدوار
والانخراط •

نظر اليّ رضوان وقد بدت على وجهه الملائكي علائم الدهشة
والعجب ، فتكهر وهتف بغضب :

— من قال لك ان اسمي « رضو » وليس رضوان ؟

قلت : هكذا أطلق عليك أبو العلاء المعري هذه التسمية النحوية ،
في رسالته الملائكية الصرفية ، ثم ألم يبلغك — يا رضوان — ما قال فيك :

(إنّنا كنا في الدار العاجلة نتكلم بكلام العرب ، وأنهم يرخمون
الاسم الذي في آخره ألف ونون (٢) كاسمك مثلاً — رضوان —
فيحذفونها للترخيم • وللعرب في ذلك لغتان ، تختلف أحكامهما في
القياس ، كما قال أبو زيد : (٣)

(١) « السبخ » تأتي هنا بمعنى الفراغ المطلق •

(٢) لا تزال العرب المتأخرة حتى اليوم ترخم أحياناً أسماء ابنائها
فتناديهم : بحمدو مثلاً بدل حمدان ، ويا سمعو بدل سمعان ، ويا رحمو
بدل رحمان ، وعندهم في ذلك نوع من المعزة والدلال •

يا عثمَ أدركني فان ركيّتي صلدت فأعيت أن تبضَ بمائها

واسترسلت على هذا المنوال ، أردد على مسامع رضوان ، ما سمعت عن المعري من تداخل واشتقاق ، ومذاهب في التفخيم والترخيم ، وما نقل عن قراء أهل البصرة والشام ، وما يجب وما لا يجب أن يكون بالألف واللام والنون ، أو الميم والواو بعد الياء ، وما ينبغي أن يعرفها الذين يشربون ماء الحيوان في النعيم المقيم ، الى آخر ما في ذلك من قال وقيل ، في ضروب النحو والتصريف ، وما اختلف حوله المتقدمون والمتأخرون من أصحاب القياس حول اشتقاق الحروف ، ومستنكر القراءات وسوى ذلك من بينات .

ولما بلغت ما ذكره شيخنا الجليل - في رسالة الملائكة - من أن ذلك لا يجب أن يستغني عنه الولدان المخلدون ، وانه لا يرضى بالقليل مما عندهم من جزاء على تعليم الولدان في جنات الخلد ، قاطعني رضوان بعد أن ضاق خلقه وعيل صبره :

كفاك بالله أيها المأفون : إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون : فانصرف عني فقد أكثرت من الكلام فيما لا منفعة فيه ، وانما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرت في الدار الفانية ، فذهبت مع الباطل . أيهزأ شيخك هذا الضرير المهزار

(٣) هو منذر بن حرملة الطائي . عاش أيام عثمان سنة ٣٠ هـ ، ويعني بياعثم « يا عثمان » ترخيماً . وعثمان في الأصل معناها فرخ الثعيبان .

مني ومن الملائكة الأطهار • سيكون لي معه حساب وأي حساب ،
وسأقذف به الى خارج هذا الباب !

فقلت : يا مولاي يارضوان - عليك ألف تحية وسلام - لم أكن أعلم
أن الملائك يكون لأحد حقداً أو ضغينة ، كما فعلت في السالفة زمر
من الخوآن والجوايز وسواهم من المناكيد المناحيس •

أطرق الملاك الكريم قليلاً ثم قال :
- هون عليك وادخل معي الجنة يا ابن الطيبين •

قلت : « ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » •

وأخيراً اجتزنا الصراط المستقيم ، ودخلنا جنات النعيم ، جنات
عالية ، قطوفها دائية ، ولم أتساقط عن يمين أو شمال ، ولم أستعن
بزقونة أو ميمونة ، كما فعل من قبلي المعري ، عندما وقف موقفي ،
ولم أعان من الطموش (١) بما ترتجف لهوله الأكاءروالوحوش •
فغمرتني على التواللحظة ، نشوة لا يعرفها الا من دخل الجنة • نشوة
علوية ملكت علي مشاعري ووجداني ، وزادت في صبوتي وتحناني ،
ومررنا بالخمائل والرياض والغيطان ، والملائك من حولنا تسبح وتقول :

(ادخلوها بسلام آمنين)

الى أن بلغنا شجرة طيبة « أصلها ثابت • وفرعها في السماء •
تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » (٢) •

(١) الطموش : البلايا والمصائب •

(٢) سورة ابراهيم •

إرم ذات العماد

« اسم تر كيف فصل ربك بعاد . إرم ذات
العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . »
قرآن كريم

لشد ما أثار بي الدهشة والعجب ، وأنا أضرب في رحاب الجنة
كل مضرب ، وأتبع رضوان في كل درب ، ان ما أشاهده الآن في دار
البقاء ، يكاد ينطبق كل الانطباق ، في الوصف والأبعاد ، على ما ورد
في الآية الكريمة عن إرم ذات العماد ، وقوم ثمود وعاد (١) ، وما رواه

(١) جاء في مختار الصحاح حول « إرم ذات العماد » و « قوم عاد »
ما نصه : قوله تعالى « بعاد إرم ذات العماد » فمن لم يصنف جعل
« إرم » ولم يصرفه ، لأنه جعل عاداً اسم أبيهم ، وإرم اسم القبيلة وجعله
بدلاً منه . ومن قرأ بالاضافة ولم يصرفه جعله اسم أمهم أو اسم «بلدة» .
هذا وقد تناول بعض الشعراء والأدباء المحدثين « إرم ذات العماد »
بأشعارهم ونثرهم كصورة حية لجنة ضائعة ، مثل جبران خليل جبران
وبدر السياب ، وقد جاء في شرح بديوان هذا الأخير ما يلي : عند
المسلمين ان شداد من عاد بنى جنة لينافس بها جنة الله وهي « إرم »
وحين أهلك الله قوم عاد اختفت إرم وظلت تطوف وهي مستورة في الأرض
لا يراها السنان الا مرة كل أربعين عاماً وسعيد من فتح له بابها .

« الشعبي » في سيرة الملوك حول أسطورة الملك شدّاد والمدينة العجيبة الساحرة ، التي بناها في صحراء قاحلة ، وعادت بي الذاكرة الى تلك الأسطورة التي تناقلتها العرب في الجاهلية قبل الاسلام ، جيلا بعد جيل ، نقلا عما رواه فلان بن فلان أو هكذا قيل • ولا يستطيع أحد الجزم بأن الأسطورة لا يداخلها خيال أو زخرف أو تزويق • اذ قال الشعبي - والعهدة على الراوي - : ان الملك شدّاد جمع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب ، واتخذها لبناً لبناء القصور ، واستخرج الكنوز المدفونة ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر وقصر ، بعدد رؤساء مملكته من أمراء كل عصر ، كل قصر على عمدة من أنواع الزبرجد واليواقيت معقدة بالذهب • طول كل عمود مائة ذراع ، وأجرى في وسطها أنهارا ، وشق منها جداول لتلك القصور والبساتين والرياض ، وجعل أشجارها ثمر أشكالا من الزبرجد واللكلئ والعقيق (كالشجرة ذات الأنواط) وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر ، وجعل فيها « جنة » مزخرفة ، وجعل عليها أنواع الطيور المسموعة الصادح والمغرد وغير ذلك والله أعلم •••» (١) •

(١) بما أن التنقيبات والحفريات الاثرية لم تسفر حتى اليوم عن نتيجة محسوسة تدل على وجود مثل مدائن صالح وثمود وعاد وإرم ذات العماد ، فاني أرجح ان الاسطورة العربية التي رواها الشعبي على النحو الذي أشار اليه الكاتب ، قد تكون مستوحاة من ذكريات العرب الآراميين عن تدمير أعظم مدن الشام وعروس البادية العربية السورية في العهود الاولى التي دمرها فيما بعد الرومان وأحرقوها وأسروا ملكتها كما تؤكد ذلك المراجع التاريخية ، اذ تدل آثارها وعمدها الضخمة ومعابدها وقناطرها ومسارحها وقصورها وأضرحتها وغوطتها التي تضاهي

و بينما أنا على هذه الحال من استذكار واستظهار واستبطان ، رنّ
في أذني صدى حديث شريف ، له مغزاه البعيد ، ومعناه المفيد ، فيما
توارد على ذهني من فكر ، ألا وهو : « يدخلها بعض أمتي » أي يدخل
هذه الجنة •

تساءلت في سري : أحقاً تكون « إرم ذات العماد » رمزاً أسطورياً
للفردوس الموعود عند العرب الأولين ؟ كما خيل إلى رواتهم وشعرائهم
الأقدمين والمحدثين •

x x x

الولدان المخلدون في ظل الشجرة ذات الأنواط قيام وقعود ،
وكم بالمغفرة نيلت السعود ، وقد سبق للمعري أن قال في سطر من
السطور : ان هذه الشجرة ذات الأنواط ، صلة من الله لعلي بن منصور ،

غوطة دمشق حتى اليوم ، وكرومها وأعابها ونخيلها وتينها وزيتونها
ورمانها ومياها المعدنية وحماماتها وسواقيها وجداولها وأقنيتها ، على
أنها تلك « البلدة » التي حاك العرب حولها أسطورة « إرم ذات العماد »
ولا شك ان بعض الرواة قدغالوا في وصفها ، فذهب بهم الخيال بعيداً
حتى قالوا ان قصورها شيدت من لبنات من ذهب وان عمدتها من الزبرجد
الرخ . ولقد قام في الأربعينات من هذا العصر المستشرق البريطاني سان
جون فيلبي الذي أطلق عليه عرب الجزيرة لقب الشيخ عبد الله فيلبي
أو هكذا سمي نفسه ، قام ببحث وتنقيب في أعالي الجزيرة العربية عن
آثار لمداين صالح وعاد وثمود وإرم ذات العماد ، ولكنه لم يعثر على شيء
يستحق الذكر سوى بعض الرسوم والأرقام •

انظر (ارض الانبياء) من تأليف المستشرق المذكور •

خبثت له الى نضخ الصور (١) ، وكانت تجري في أصولها وأمثالها من
الشجر ، أنهار من الكوثر ، وأخرى من الراح والعسل ، وقد أجاد في
وصفها الشاعر ، اذ قال - كما روى عنه أبو العلاء - :

تشفي الصداع ولا يؤذيه صالبيها

ولا يخالط منها الرأس تدويم

رأيت فتى غض الاهداب بهي الطلعة ، لا لحية بيضاء له ولا حدبة
ولا صلعة ، ولا جدري يشوه وجهه ولا لطفة ، يعترف منها بكووس
من العسجد ، وأباريق صنعت من الزبرجد ، ويعب من تلك الخمرة
الإلهية الدائمة ، لا الذميمة والاذائمة ، ولا تأخذه في شرابه لومة
لائمة . وكانت تجلس الى يمينه غادة شقراء ، والى شماله حورية
سمراء ، تنشدها بأعذب الألحان ، على ايقاع الدف والعيان ، وأنواع
من الكمان ، يعزف عليها ولدان من أبناء الجنان .

وتعرف الفتى النشوان ، على الملاك الكريم رضوان ، فحيّاه
أحسن تحية ، وأشار اليّ إشارة استفهام خفية ، وسألته من يكون هذا
الغلام بالرفقة الملائكية ؟

قال رضوان عليه السلام : انه أحد تلاميذك المقربين ، من السذج
المتغابين ، حدثني أنك تناولت الملائكة الأبرار ، الأولياء الأطهار ،

(١) علي بن منصور ، هو ابن القارح الذي كتب اليه أبو العلاء
المعري رسالة الغفران المشهورة . أما الشجرة ذات الأنواط ، فكانت
العرب تعظمها في الجاهلية وتعتبرها شجرة شبه مقدسة .

برسالتك الملائكية الشيطانية ، بالنقد والسخرية • فهل هذا صحيح
يا أحمد يا ابن أم دفر (١) ، لا بارك الله بك ولا غفر ؟

قال أبو العلاء :

— أنت ملاك كريم ، فلا يجب أن تقيم وزناً لكلام ثرثار أئيم ،
ألا ترى معي هذه الكتب والرسائل والأسفار ، التي أمليتها وأنا أعمى
على صبيان صغار ، لا يفقهون من أسرارها ما يفهمه الملائك الأبرار •
وعلى كل حال فقد أعاد الله عليّ "نعمة البصر ، وانجلت عني الغمة وزال
الخطر ، وخرجت من الظلمات الى النور ، وأنا على أحسن ما يكون ،
فأدركت ما كنت أتعثر فيه من شعور ، ولسوف أعيد النظر هنا فيما
أنشأت وأمليت ، وفيما نظمت من شعر ونثرت ••• فخفف عنك هذا
العبء الثقيل ، ودعك من القال والقييل ، واترك عندي هذا التلميذ
الواشي الزنيم ، فلي معه حديث يذكرني بأهل الفانية ، وما كانوا عليه
من جهالة فاشية !

واستطرد أبو العلاء في القول — كعادته في الانتقال من حديث الى
حديث : لقد سبق وقلت « اذا رجع الى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينبي
عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل
أن يظهر الانسان تديناً ، ويجعل ذلك تزيئاً » •

وهكذا كان شأني مع أهل زمانني • وأنشد يقول :

(١) « أم دفر » اي الدنيا الفانية الدنية .

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً

تجاهلت حتى ظننّ أنّي جاهل

ابتسم رضوان البتسامة ملائكية ، وهمس في أذني أن سيعود الى
لقائي ثانية *

توجهت الى شيخنا الجليل - قدس الله سره - بعد أن رأته قد
انقلب بقدرة قادر ، الى شاب بصير مبصر ، أتيق جميل لبق ، ونخاطبته :

- يربك هلا أنبأتني يا أبا عبد الله - كبت الله عدوك وأدام رواحك
الى الفضل وغدوك - كيف انقلبت من شيخ ضرير الى شاب نضير ،
منتصب القامة ، موفور الهمة ، عالي الهامة ؟ وبهم غفر الله لك
وأنت القائل :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له

ولا صلاة ولا صوف على الجسد !

قال : نعم قلت هذا ، ولكن لماذا لا تتبع هذا البيت بالذي يليه :

وانما هو ترك الشر مطرَحاً

ونفضك الصدر من غلٍ ومن حسد

ان عند ربي - جلت قدرته - علم الحساب ، فكل شيء عنده
بمقدار وميزان * ألا ترى معي ان الكفتين متعادلتان ؟

قلت : أراك الآن تعباً من المدام عباً ، وتشنف الأذان بالأغاني
والألحان • أولست أنت القائل ؟

فلا تعجبك عروس المدام ولا يطربك مغن صدح
ومن يفتقد له ساعة فقد مات فيها بخطب فدح

قال : يبدو أنك حفظت الكثير من شرطي وشعري ، فما كان اسمك
في الدار الأولى ؟

قلت : اسمي فلان بن فلان • وقد شبهني بعضهم بديك الجن
الذي أضاع بجهالته حبيبته « ورد » كما أضعت أنا حبيبتي « وردة » •

قال ساخراً كعادته في الساخرة : والله لا يصلح لك اسم في هذا
الفردوس الا « ديك الجنة » ما لك « لورد » أو « وردة » ، فاقفز هنا
على الحور العين ما شاء لك القفز ، فلا خوف عليك من عوج أو عجز ،
ودع البكاء على فقد الأجرة ، لمن كان لا هم لهم ولا شغلة ، الا الندب
والنواح ، على ما فات وراح ، والبكاء على الدوارس والأضرحة
والأطلال ، ثم قل ترى ما فعل الله بذلك الشاعر الذي شُبّهت به ، الذي
جعل من رماد جثمان جاريته التي افتتن وجنّ بها حباً وهياماً ، كأساً
يتعاطى بها الراح في الاصبح والامساء •

شعرت بقشعريرة تسري في بدني لما تذكرت فعلة ذلك الشاعر
الجناني ، فتشاغلت عن الحديث مع المعري ، وعاودتني ذكرى وردتي
الضائعة ، وأحسست بتبكيك الضمير لتركها بين أيدي طغمة فاستقة •
وشخصت ببصري الى الأمام ، فلمحت شاباً أسمر نحيل القوام ، كحيل

العينين ، يقف على قنطرة فوق نهر من لجين ، أرق وأصفى كثيراً من
نهر السين ، وسمعتة يتحدث بفرنسية طليقة ، الى حسناء حلوة مرحة ،
فحدثني النفس قائلة : لا بد أن هذا الشاب الأريب ، هو طه بن الحسين
نفسه الأديب ، صاحب المعري في الدارين ، وحامل لواء فلسفته وأدبه
في الخافقين • وقد فارقه منظاره الأسود ، وغدا اليوم - بنعمة الله -
من المبصرين •

أشرت الى المعري مقاطعاً : أرأيت الى صاحبك طه يقف هناك
على القنطرة ؟

ونظر الشيخ الى حيث أشرت ، وبصره اليوم حديد ، وقال :
أتحسبني لا أرى من بعيد ؟ (والله اني لأكون في مغارب الجنة ، فألمح
الصديق من أصدقائي وهو بمشارقتها ، وبينني وبينه مسيرة ألوف أعوام
للشمس التي عرفت سرعة مسيرتها في العاجلة) (١) •

قلت : والله انك غدوت هنا أبصر من زرقاء اليمامة (٢) •

انفجرت أساريه وقال : هلمّ وناده ، فاني مشتاق الى مجلس
سمر وطرب مع هذا الصديق الذي خلد ذكراي بعد ألف من السنين •

(١) ورد هذا النص في رسالة الغفران على لسان المعري بالذات ،
الامر الذي يدل على ما كان يشعر به من نقص في حياته الدنيا من جهة ،
وما يدل كذلك على اطلاعه على علوم الفلك في عصره من جهة أخرى .
كما يستدل من نثره وشعره على اطلاعه العميق على الفلسفة اليونانية
والحكمة والطب الى جانب تجرعه الواسع في مضمار اللغة ونحوها
وصرفها وآدابها •

(٢) زرقاء اليمامة ، اسم جارية زرقاء عند العرب كانت تبصر
الراكب من مسيرة ثلاثة أيام ، وبها ضرب عندهم المثل المذكور •

ويا ليتك تنادي كذلك على هذا الشاب الأنيس ، الجالس تحت الشجرة
بين الطاسات والكؤوس والأباريق ، ومن حوله الولدان المخلدون
وهم يتنادمون *

فهمت ما كان يرمي اليه صاحبنا المعري ، فناديت بأعلى صوتي ،
على طه بن الحسين ومن بعده الحسن بن هاني ، فهرعا الينا على عجل ،
وتساءلا ما الخبر ؟

قلت : هذا هو صاحبكما المعري يلح في طلبكما لقضاء سهرة
أنس وسمر معكما ، فتقبل كلاهما الدعوة بكل سرور ، ولحقت بهما
شرلوت ومن خلفها الولدان المخلدون ، يحملون الكؤوس والأقداح
والبواطى والطاسات ، على أشكال من الجواهر والجمان ، وأجناس من
الطير والحيوان * وأقيمت أمامنا مآدبة من مآدب الجنان ، لم يسبق أن
احتفل بمثلها كسرى انوشروان ، ولا أحد من أباطرة الرومان *

نظرت الى أولئك الأعلام الفطاحل ، وقد جمعتهم المجمع ، على
صعيد واحد ، فأيقنت بعد روية وامعان نظر ، ان لا زمن يباعد بين أهل
الفكر ، طال أم قصر *

قال طه مستهلاً الحوار : لعلكم تريدون مني أن أعيد على
مسامعكم « حديث الأربعة » (١) الذي جمعت فيه بالرأي والفلسفة ،

(١) من المعلوم ان طه حسين قد كتب في العشرينات من هذا القرن
سلسلة من المقالات في احدى المجلات تحت عنوان « حديث الأربعة » ،
حاول فيها أن يجمع ما بين فلسفة أبي النواس « الحسن بن هاني » ،
والمعري على صعيد واحد ، رغم اختلافهما في المسلك ، كما حاول أن

فيما بينكما من أوجه الشبه والعللة ؟

قال أبو العلاء : آه . . . لا تذكرنا هنا بأيام الأسبوع ، فالسبت عندنا كالخميس ، والثلاثاء كالأربعاء ، فلا حاجة بنا الى تعداد الأيام والأسابيع ، ولا الأشهر والسنين . الزمن عندنا مطلق بلا حساب ولا تقويم . بل كل ما هنالك خواء وفراغ وتهويم . ألم يبلغك قولي في شعر الجان :

فالأحد الأعظم والسبت كالأثنين والجمعة مثل الخميس

ثم أشار اليّ باستهزاء وقال : الا اني أوصيك يا « ديك الجنة » ألا تصيح كصياح الديكة المعرة التي كانت تقض مضجعي وتوقظني من غفوتي كل صباح على حين غرة .

أجبت ساخراً بدوري : سمعاً وطاعة يا مولاي الشيخ أحمد . . . ولكنني أسألك بالله أكان صياح الديكة يعكر عليك صفو تفكيرك وحياتك أكثر من نباح كلاب أو خوران بني كعب ، وصهيل خيل أمير الدولة ، ومن بعده ابنه ولي العهد الذي حاصر المعرة وحاول الفتك بأهلها .

تجاهل أبو العلاء ما سمع ، وصفق عدة صفقات ، فاذا بأربع بجعات ، سابحات في البحيرة أمامنا فائنات ، ينتفضن بقدرة القادر على كل شيء - الى أربع حوريات ، يسحرن الأبصار ، ويخلبن الأبواب ،

يتمثل روح العصر العباسي من خلال شعر الحسن بن هاني ، وضرب لذلك الأمثال بأشعار كثيرة تحكي بجلاء واقع عصره الاجتماعي ، وتعبّر اصدق تعبير عن الاتجاهات الفكرية والأدبية ، والتيارات السياسية التي كانت سائدة في ذلك العصر .

ويحيرن الأفكار ، ويشرعن في الرقص على الألحان السماوية ، النابعة
من مختلف الآلات الوترية والنحاسية ، المرئية وغير المرئية ، فامتلات
أرجاء الجنة بقدسية النغم ، كأنها همس التساييح والنسم •

هتف أبو العلاء بأحدى الحور العين الى يمينه أن تنشدا شيئا من
الشعر يتناسب وهذه الألحان ، ففردت بأغنية من أحلى الاغنيات مطلعها :

لا تسألوني ما اسمه حبيبي أخشى عليكم ضوعة الطيوب

قلت في سري والله ما هذا الا صوت فيروز المخملي ، ولكنه الآن
صوت ذو جرس ملائكي • الا أن ما أثار بي العجب ، ان غدت فيروز
بهذا الحسن الخلب ، وعهدي بها في الفانية عجناء عصائية ، تكثر من
الأصباغ كأنها عجوز متصايبية •

ما أن انتهت الأولى من غنائها ، حتى أشار الشيخ الى الجارية
الثانية الى شماله أن تنشدا بما يعن لها من بديع القصيد ، فنادها :
هيا يا ثومة •

وهنا قاطعة صاحبه طه بقوله : كفانا بالله ما سمعنا من أم كلثوم
في الدار الساخرة ••• انها تطيل وتطيل بما لا أتحمل وأطبق ، فأنا لم
أعتد على التكرار والترديد ، لا في باريس ولا مجريط •

قال أبو العلاء : صبراً ••• صبراً يا طه • ما جئنا بك لتشقى ، بل
لتسعد بيننا وترضى ، ولتسمع ما هو خير وأبقى ، فشومة اليوم في جنة
الخلد ، على غير ما عهدت ، فلحنها أصبح لا إطالة فيه ولا ترديد ، بل
فن وحسن أداء وتجويد •

نظرت الى تلك الجارية ، فاذا أنا أمام غانية فتانة فاتنة ، وقد فارق
عينها الرمد ، وزال منهما الجحوظ والكمد ، فعدت - بعونه جلت
قدرته - سمراء هيفاء ، تمشي المطيطاء ، ناعسة الطرف ، خفيفة الظل ،
فأنشدت قصيدتها المشهورة ، بعد جولة أمامنا قصيرة ، وهي تلوح
بمنديلها ، كأنها حاملة لواء الفن والحسن يمينها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
وما أن بلغت البيت التالي الذي قال فيه أحمد شوقي - غفر
الله له :

الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
حتى رأيت صاحبنا المعري ينتفض في جلسته ، ويسأل رفيقه طه :
- واعجباہ أترى الدين والاشتراكية يتفقان ؟ ان ما علمته فيما
بعد من مطالعة كتب المتأخرين ان الاشتراكية تقوم على أسس من
العلمانية ، والفلسفة الجدلية • فما علاقتها بالمدائح النبوية ؟
أجاب طه بتؤدة كالمعتاد كأنه يقرأ في كتاب مفتوح :

- ألا فاعلم يا سيدي الشيخ الجليل ، ان شوقي لما ذكر الاشتراكية
في قصيدته هذه ، كان كل من ينادي بالاشتراكية في أرض الكنانة يدق
عنقه ، أو يزج به في أعماق السجون ، هذا اذا لم يذوب بالأحماض
بعد طول عذاب ، كما جرت العادة وقتئذ عند أولئك الحكام •••
ولعل شوقي أراد أن يتستر على الاشتراكية باسم الدين • ثم ألم تكن
أنت نفسك تقول شيئا وتضمر أشياء • أتريد أن أذكرك برسالتك التي

سميتها « برسالة الهناء » وظلت مجهولة مدة من الزمان ، وقد حشوتها بالخلل والنفاق والرياء ^(١) ، بما لم يسبقك إليه أحد من الشعراء والأدباء ، لا من قبل ولا من بعد .

أطرق المعري خجلاً . ثم رفع رأسه ونظر الى الأفق الأزرق البعيد ، نظرة ملؤها الأسى العميق وقال : ان لرسالة الهناء التي ذكرت قصة وأية قصة . . . انك لا تعلم شيئاً عن الظروف التي فرضت عليّ تلقينها . . . لقد أنقذت بهذه الرسالة بلدتي الصغيرة من غزوة طاغية ، ومجزرة دامية ، فقد حاصرها « صالح بن مرداس » صاحب حاب ، ونصب المجانيق عليها ، واشتد الحصار علينا ، فجاءني أهل البلدة وسألوني لعجزهم عن المقاومة ان أتدارك الأمر بالخروج الى « صالح » بنفسي ، وتدير الأمر برأيي ، إمّا بأموال يبذلونها ، أو طاعة يقدمونها ، فخرجت ويدي في قائدي ، وفتح لي باب من أبواب معرة النعمان ، وقابلت حاكم حلب وهو على رأس جيشه العرمرم .

ماذا كان بوسعي أن أقول لهذا الأمير بعد أن مثلت بين يديه وأنا العاجز الضرير ؟

قلت له : أطل الله بقاء الأمير كالنهار الماتع ، قاط ووسطه ، وطاب أبراده (وهما العداة والعشي) أو كالسيف القاطع . خذ العفو وأمر بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين .

(١) انظر (رسالة الهناء) لأبي العلاء المعري فيدهلك ما تطلعه فيها من رياء !

فأجابني الأمير : لا تثريب عليكم اليوم • وقد وهبت لك المعرفة
وأهلها !

وأمر بتقويض خيام الجند ، فقوضت ورحل • وبعد ذلك قلت :

نجي «المعرة» من برائن «صالح» ربّ يعافي كل داء معضل
ما كان لي فيها جناح بعوضة الله ألحفهم جناح تفضل

وكذلك قلت في « لزوم ما لا يلزم » :

بعثت شفيحاً الى « صالح » وذاك - من القوم - رأي فسّد
فلا يعجبني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد !

في جو فاسد كهذا الجو المشحون بالمحن والإحـن ، كتبت (رسالة
الهناء) لأفتدي أرواح العباد ، ولو اني شـبـهت نفسي بها بالفأر يتناول في
حضرة غضنفر جبار ، وأهنيء المشيرين الخطيرين ، بقدم وزير السلطان
وولي العهد الى حلب (١) • فإن قلت للجرذان انكم فيلة ، ولبغاث

(١) اتى المرحوم كامل الكيلاني على شرح واف للمناسبات والظروف
التاريخية التي احاطت بالمعري وقتئذ وحدث به الى املاء رسالة الهناء ،
اي في النصف الاول من القرن الرابع الهجري ، ومدى علاقته بحكام
حلب ، امثال صالح أمير حلب وولي عهده والمشيرين الخطيرين ، وبعض
ذوي النفوذ لدى السلطان الذين كانوا يكونون للمعري الاديـب الشاعر العالم
كل تقدير واحترام ، على الرغم مما كان يروجه بعض الكاشحين والمتزمتين
من اذساليـل واباطيل • ولا ريب أن موقف صاحب حلب الذي
أحسن استقباله ، وأكرم وفادته ، فوهب له المعرفة وأهلها ، ليدل دلالة
قاطعة على مدى ما كان يلقاه فيلسوف المعرفة بل العرب أجمعين من تقدير
وتكريم ، واجلال واعتبار من الحكام قبل الرعية والائام •

الطير انكم نسور ، فما ذلك معناه الا عكس المقصود . ولهذا نصحت
قومي ذات يوم بقولي :

وقبّل يد الجاني التي لست قادرأ

على قطعها وارقب سقوط جداره !

وكذلك قلت في لزوم ما لا يلزم :

اذا كان علم الناس ليس بدافع ولا نافع فالخسر للعلماء

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم ، وضاعت حكمة الحكماء

واختتم المعري حديثه قائلاً :

— لقد أوضحت لكم عذري في املاء رسالة الهناء ، المحشوة
بالكذب والرياء ، ولكن لا ينبغي أن يعرب عن البال ، في جميع المناسبات
والأحوال ، اني وسبق وقلت :

« لقد اتبعت هذا الإطناب تبيين ألفاظ فيه ، ليكون الهذيان كاملاً
والمرض لفضوله شاملاً » .
وأظن في هذا كفاية .

قال طه حسين : صدقت والله يا أبا عبد الله . لقد امتحنت أنا
بالذات ، بعد ألف عام ويزيد ، بمثل ما امتحنت به أنت مع السلاطين ،
فأحرقوا كتبتي ومؤلفاتي ، وعانيت من دنائس قوى الظلام أكثر مما
عانيت أنت من المشيرين والحكام في ذلك الزمان ، وما هذا الا لأنني
أظهرت بعض الشك في صحة ما قيل في الأدب الجاهلي ، أو لأنني طالبت
بتعليم المرأة وتحريرها من الجهل والعبودية ، أو لأنني لما تسلمت وزارة

المعارف ، ووجهه اليّ خديو مصر تلك الالهانة ، في غفلة من الزمن ، فلم أشأ أن أرد على اهاتته الا باصراري على الزامية التعليم ، فسيروا ضدي المظاهرات العوغائية تهتف بسقوطي ، وتنادي بموتي ، وكم حمدت الله آنذاك أني أعمى ولم أبصر وجوههم الآثمة تلك .

كنت كلما دعوت أمة العرب الى اليقظة والغضب ، على ما آلت اليه حالها من تمزق وقطيعة وجهل وسغب ، اتهم بالجحود والكفران ، والشغب والعصيان .

وصمت طه قليلا يفكر ، ثم نظر الى « ثومة » نظرة ملؤها العتب ، واستطرد قائلاً :

— ثم ماذا كنت أحسب وأنا أستمع الى « أم كلثوم » تنشد القوم :
وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً !

فيهب القوم وقوفاً ، ويصفقون ويهتفون ، وينادون بالويل والثبور ، ويملاؤن الأرض والسماء ضجيجاً وعجيجاً ، ان سيأخذون الدنيا غلاباً .
كنت أحسب انهم في صبيحة اليوم التالي سيهبون في ثورة عارمة ، لاسترداد الحقوق المغتصبة ، وتحرير تراب الوطن من الخليج الى المحيط ، من كل غاصب ودخيل ، فاذا بي لا أسمع شيئاً مما خيل اليّ انه ثورة وتحرير ، بل جلّ ما في الأمر انفعالية عرفت بها الشعوب العربية ، لا تزيد في طاقتها عن تصفيق وهتاف ، وبكاء وعويل ، وآهات وأئن (١) .

(١) ورد هذا الحديث على لسان طه حسين في تسجيل أذاعه بعد وفاته أحد أصدقائه من الصحفيين .

وهنا قاطعته « ثومة » التي عرفت بنكتتها اللاذعة في الأولى :

— ماذا كان يأمل مني صاحب المعالي ، المفكر الكبير المتعالي •
هل كان ينبغي عليّ أن أعني وأحمل البندقية بيد ، والعود باليد الأخرى؟
ألا يكفني فخراً اني كنت أحاول ايقاظ النيام من كثرة الأنين
والبكاء ، وحدة الصياح ، وشدة النواح ؟

ضحك كل من في الحلقة حتى استلقى على قفاه •

وعاودنا جو من المرح ، وحاولت تغيير مجرى الحديث ، فسألت
الحسن بن هاني :

— أرى انه قد طاب لك المقام هنا أيها النواصي ، فيها قد نلت
ما تتمنى وتشتهي من الولدان والهور العين ، ثم تلك الخمرة الأزلية ،
الجارية في أنهار لازوردية • ألا ترى انها لا تشبه بما وصفتها في
السالفة ، من انها خمرة قرققة ؟

به نديمي يوسف يسقيك خمرا قرقفا

وهنا انبرى لنا المعري وقال محتجاً بشدة :

— يا لجهلك يا ابن هاني ألا تعلم ان فعل يسقيك كان ينبغي أن
يجزم ، فتحذف ياؤه لأنه وقع جواباً للطلب ؟

فأجابه النواصي بأسلوبه الهازيء : ألم تترك بعد تلك التفاهات ،
وتنصرف الى غير الاشتقاقات والقراءات ، بما لا يفيدنا هنا بشيء ان
جرمت أو رفعت أو نصبت ؟

فسكت المعري على مضض • وتوجه طه بسؤال الى النواصي :
- ألم يثنك يا صاحبي ما رأيت من صور الحور العين في هذا
النعيم المقيم عن الغزل بالغلماان والمردان ؟

قال النواصي : لا والله اني مصر على ما قلت في الدار الأولى :

له آخرة قد أشه بهت في الحسن دنياه
فلو أنا جحدنا الله يوماً لعبدناه !

قال المعري غاضباً ساخطاً : يا لك من ضل من ضل !
وأثنى عليه طه قائلاً : إنك لا تهدي من أحببت ان الله يهدي من يشاء •
ردّ النواصي بلا اكترات :

- يجب ألا تنسى يا أيها الجهبذ الفاضل ، والشيوخ المناضل ، أنه
لولا غزلي بالغلماان لما استطعت أنت أن تأتي بكتابك (حديث الأربعاء)
فتستخلص من شعري وغزلي ما جعلت منه نموذجاً لعصري ومجتمعي ،
فصادفت ذلك النجاح الباهر ، في عالم الأدب المكشوف السافر •

سأله طه : وما أدراك اني كتبت عنك ما كتبت ؟

- قصدت مكتبة الجنة ، فاذا بها عامرة بملايين المؤلفات ، أضعاف
أضعاف ما كان في خزائن بغداد وقرطبة ومكتبات الفاتيكان ووشنطن
من مختلف الكتب والأسفار والمخطوطات ، فطلبت الى أحد خزنتها
أن يقدم اليّ (حديث الاربعاء) فما كان منه الا أن ضغط على عدة
أزرار ، فاذا بالكتاب ملك يدي ، فطالعته بشغف ، وأكبرت فيك

ما صرفت في دراسة أدبي وشعري من عناء ونصب ، فخلدت بذلك
ذكرى • لقد كنت صادقاً في تحليلك وتعليك بما لم يجسر أحد غيرك
على ذكره وبيانه ، حتى ولا الإشارة الى أصوله وأسبابه • واني لأحمد
الله أن لا وشاة في الجنة ، ولا حملة أخبار أو سعاة أو أصحاب فتنة
ووقية •

قال طه : •• ولكن ما يحيرني في أمرك بهمَ غفر الله لك ؟ أأنت
أنت القائل :

واني بشهر الصوم اذ بان شامت

وإنك يا شوال لي لصديق

فقد عاودت نفسي الصباة والهوى

وحان صبوح باكر وغبوق

أجاب النواصي : هذا لا ينفي أنني كنت صائماً مع الصائمين •••
لقد غفر لي ان يدي لم تمتد الى أحد بسوء ، ولساني لم أذكر به سوءة
امرى ، وأنت تعرف بحق - وانت سيد العارفين - ان المسلم من سلمت
الناس من يده ولسانه ، كما جاء في الحديث ، أما ما قرضته من شعر
فلا يتعدى التغني بما وعدنا به العلي اللطيف الخبير الكريم ، من نعيم
مقيم ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ، وينابيع من خمرة تفتش الأسرار ،
ثم هنالك الولدان المخلدون ، وكل ما يتوق إليه القوم ويشتهون • فهل
ذلك ما يدعو الى اللوم والعتب ، والضجيج والسخط والصخب • ثم
أأنت أنا الذي سبّح بحمده وآلائه ، بما لم يأت به كبار أوليائه بقولي :

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
لولاك يا رب هلك كل نبي ومملك !
واختم بخير عملك لبيك إن الملك لك

الى آخر ما في هذا الدعاء الطويل ، من تضرع ورجاء وثناء ، لذي العزة والجلالة والجمال والبهاء .

قال المعري : والله من يستمع الى مثل هذا الدعاء ، ليحسبناك يا أيها النواسي الضال من أئمة الصوفية الكبار ، وشاعراً من شعرائها المتطرفين بعشق الذات الإلهية ، المتسامين فوق اللذائذ البشرية المادية .

لمحت عن بُعد شاباً رقيقاً ، تبدو عليه مخائل الخجل والحياء ، فناديت ها قد جاءنا أبو ماضي ، شاعر الحب والجمال في المهجر والوطن .

ما ان سمعني الشيخ أذكر اسم ذلك الشاعر حتى قال : بربك الحق به لينضم الى الحلقة ، ويتناول معنا كأساً دهاقاً ودهمقة . (١) ، ففي شعره عقب وجوى ، ما دام ثمة أمل وحياة وهوى .

لبي الشاعر المغترب الناعم دعوة المعري ، فجلس بيننا القرفصاء ، بكل حشمة وحياء وقال : والله ما كنت أحلم في دنياي أن سوف يضمني مجلس فيه أمثالكم من الأعلام .

(١) الدهمقة : لبن الطعام وطيبه ورقته . ومنه حديث عمر رضي الله عنه (لو شئت أن يدهمق لي لفعلت) . ولكن الله عاب قوماً فقال : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » .

قال أبو العلاء : أنت لا تعلم من قدرك ما نعلم ، فأنت بحق شاعر
ملهم ... لقد صورت لنا في فردوسك الضائع - وأنت نفسك بانح - ،
من مباحج الدنيا ومتعها وجمالها ، وخيرها وخصبها وعطائها ، ما حرمتنا
منه نحن أهل التشاؤم والخبية ، وأصحاب النقمة والحيرة والظلمة .
أولست أنت القائل :

أيها الشاكي وما بك داء كن جميلاً تر الوجود جميلاً
أيها الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلاً ؟

قال الشاعر المهجري : نعم قلت هذا ، وقلت ما هو أروع منه
وأجمل ، من وحي فردوسي الأرضي الذي خلقتة أنا بنفسي من حولي .

قال المعري : هات زدنا زادك الله نوراً وجهوراً .

فأنشدنا أبو ماضي قصيدته الطافحة بالتفاؤل والأمل :

قال : السماء كئيبة وتجهما قلت : ابتسم يكفي التجهم بالسما

الى آخر ما في هذه القصيدة العصماء ، من تفاؤل وخير وصفاء ،
فطرب كل من في الحلقة ، ثم خاضوا في أبواب من الشعر والبيان ، لم
يسبق أن سمعت بمثله في سالف العصر والأوان ، فكان لكل شاعر
وأديب منهم ما يخفيه عن الخاصة والعامة ، ولكنهم في هذا المجلس ،
حيث لا رقيب عليهم ولا حسيب ، انطلقت قرائحهم على السليقة ، فدار
بينهم حوار ، لا هو بمديح وغزل ولا هجاء ، إنما شعر ينبع من الأعماق ،
ويصدر عن الوجدان ، بلا قيود ولا قوافٍ ولا أوزان ، وإن كان له

وقع محجب الى القلوب ، يختلف عن وقعه في الآذان !

وهذا ما سميته بشعر أهل الجنة !

كانت تتخلل هذه المحاورات فترات من الطرب والغناء • ولما غنت أم كلثوم « أهل الهوى يا ليل » بلغ الطرب بشيخنا الكبير حداً أن ضرب رأسه بجذع الشجرة ذات الأنواط ، غير آبه بما عرف عنه من هيبة ووقار • ثم نادى أم كلثوم :

ـ فديتك بروحي ومهجتي يا سيدتي ، أن أعيدي ورددني ، ولو
كره ذلك عزيزي طه منك ومني !

ومضت « ثومة » في لياليها وفي شدوها وهناتها ، وسقط بلبل في حضنها من أعلى الشجرة ، فارتعشنا لهول المنظر ، وخشينا على البلبل المسكين أن يكون في خطر ، أو انه خر صريعاً ، متأثراً باللحن الحزين ، ولكن ما لبثنا أن شهدناه بعد قليل ، يرفرف بجناحيه ويحاول أن يطير ، وكان ينظر الى صاحبه باستعطاف وحنان ، وهو يفادرها الى غير مكان •

تساءلنا أليس من العجب العجاب ، ونحن في دار الخلود ، أن نرتجف فرقاً لموت عصفور ؟

جاءت هذه الحادثة المثيرة ، مصداقاً لما رواه لنا شيخنا المولوي علي بن الدرويش ، امام أهل الفن والغناء في العصر الحديث ، الذي حفظ للعرب تراثهم من التواشيح ، انه رأى ذات صباح بلابل صداحه تنخر في حضن المطرب الغريد ، أحمد بن الفقس ، لما تسامى بمواويله

وهناته حتى بلغ العرش (١) ، وهو يعني في حفل حلبي بحديقة الأزرابية
— وقد عرفت حلب آنذاك بأنها أم الغناء والطرب بين جميع بلدان
العرب — فشعر كل من في المجلس بنشوة صوفية ، فهموا على وجوههم
يطوفون كالسكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن روعة النغم الحنون ،
سلبت منهم الألباب والعقول ، وجعلتهم يهللون مع المطرب الكروان ،
الى سماء لا يبلغها الا من اشتد به الوجد والهيام ، وازداد به الشوق
والحنين ، حتى حسب نفسه في أعلى عليين •

وما ذلك على الله بعسير ، أن يعيد علينا ونحن في الباقية مثل هذا
المشهد المثير •

ثم صنف الشيخ صفقة ، فجاءه أحد الغلمان بخفة ورقة ، يحمل
صينية من فضة ، عليها ما لذ وطاب من فاكهة الجنة •

نظر أبو العلاء الى هذه الفاكهة ذات الأنواع والألوان ، من تفاح
ذي عبير فواح ، الى عنب ورماني كأنه الجمان ، وكلها تصلح لأن تكون
لوحة من ابداع فنان • وسأل الغلام : أين الكمثرى ؟

قال الغلام : لقد التهم الولدان الآن جميع ما حملت « الشجرة »
من كمثرى •

صاح فيه المعري غاضبا : لقد لحت يا ولد • قل شجرة ولا
تقل شجرة •

احمرت وجنتا الغلام خجلا وقال بلثغة محببة : ثمعا وطاعة • شجرة

(١) يعني الكاتب بالعرش هنا « عرش الغناء » ولا ريب •

ثم توجه بدلال الى أحد الشعراء المنسيين ممن لم يعرف لهم اسم
ولا كنية في السالفة والحاضرة ، وكان قابلاً في زاوية من الحلقة ،
وسأله :

— هل تريد يا سيدي أن أصب لك « كائناً » أخرى ؟

فرد عليه الشاعر المجهول مداعباً :

ناولاني الكؤوس ملاءى دهاقا واجملا لي مزاجها أثلاثا

من يدي ألثغ يقول اذا ما أبطأ الكأس عن هات الكائنا

ضحك الحضور ، وضحك السمار والندامي لقول هذا الشاعر
المغمور ، فقلت له :

— يربك ألت أفأ الشاعر البازرياري الذي فقدت آثاره في
الفانية الى أن أشر الشيخ عبد الرحمن بن الخير على مخطوط لك بلا
اسم ولا عنوان ؟

أجابني والكأس بيده ، ونظره عالق بالغلام :

— ما يهكم أفأ من الأسماء • انها تتشابه في كثير من الأحيان •
عليك التبصر بجوهر العقد المنظوم ، وليكن قائله من يكون •

اتفقت الحلقة ، وأصحابها على ما هم عليه من الاشراف والافتتاح •
واتفقوا على لقاء آخر بعد العشاء • وانصرف كل الى شأنه يتبعه
سماره وغيده وحسانه •

x x x

عند الغبوق ، وما أحلى غبوق الجنة ، تحسب نفسك تحلق فوق
الغمام ، كأنك طير أو حمام ، ترفرف بجناحين فوق الأثير ، كالفراشات
الرشيفة تطير ، من زهرة الى زهرة ، ومن ثمرة الى ثمرة ، ولعلني لن
أجد وصفاً لراح الجنة وريحانها ، خيراً مما قال الشاعر الصوفي في
راح شربها على ذكرى حبيب ضائع :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن تخلق الكرم

لها البدر كاس وهي شمس يديرها
هلال وكم يبدو اذا مزجت نجم !

وعاودني الحنين الى ذكرى الحبيب ، فأغرقت همي في كأسه ،
وتناسيت الى برهة نفسي ، فلم أعد أستمع الى حديث السمار ، ورنين
الكؤوس ، التي أدارت الرؤوس •

ثم لما التأم الشمل ، ولم يعد أحد يفرق بين صاح وثل ، ودارت
الأقداح ، وتعانقت الأرواح ، تهافت علينا رهط كبير من الشعراء
والأدباء والأعلام ، فأمر الشيخ - قدس الله سره - من في المجلس من
الغيد والولدان ، وأصحاب الفن والألحان ، بالانصراف عنا قليلاً ،
وقال :

- ليست الجنة كلها لهو وعبث ، وبطالة ومجون ودفن ، والا
أصابتنا العلل ، ودب فينا السقام والملل • اني أتوق الآن الى حديث
سمر بيني وبين ابن هاني ، ذلك الشاعر الماجن المتصابي ، أو ليس هو
القائل في مثل هذا الغبوق الحالم :

قد عاودت نفسي الصباية والهوى

وحان صبوح باكر وغبوق

وقوله أيضا :

اني لفي شغل عن العاذلين بالراح والريحان والياسمين

سبحان من سخر هذا لنا يوماً وما كنا له مقرنين

قال النواصي معقبا :

— حفظت يا رهين المحبسين شيئاً وغابت عنك أشياء !

قال أبو العلاء : وما غاب عني ؟

رد النواصي : هذا سر بيني وبينك •

ونظر اليه نظرة تفيض بالوجد والحنين ، ومال عليه وهمس في أذنه همستين • فانتفض رهين المحبسين ، كمن لسعته أفعى وصرخ في وجه النواصي : عليك اللعنة يا ابن الشمطاء ، ألا تكف عن مجونك وفجورك ؟

في هذه الأثناء ، تفتقت ثمرة يانعة من أعلى العريشة ، عن شاعرنا الحبيب عمر بن أبي ريشة ، فهبط علينا بخفة ورشاقة وهيولة ، شأنه في ذلك شأن أمثاله من شعراء الصوفية والشاذلية ، فرحب به كل من كان تحت تلك الشجرة ، وسروا بانضمامه الى الحلقة • وابتدره أبو العلاء بالسؤال المعهود :

— بم غفر الله لك يا أبا شافع ؟

أجاب أبو ريشة اليافع :

غفر لي أيي ناصبت الحكام الأشقياء ، منذ مطلع شبابي العداء ،
وقلت فيهم الكثير من شعر الهجاء • غفر لي اني قلت في حفل تنصيب
الدكتاتور حسني الزعيم ، الذي كان أول من فتح باب الانقلابات
العسكرية ، في أقطارنا العربية ، بعد أن أطاح بحكم الدستور والشورى ،
وقبض على ناصية الأمور بيد من حديد ، عام ألف وتسعمائة وخمسين :

يا للرئاسات كم غرت مفاتها وكم كبار على اغرائها صغروا
ناموا على بهرج الدنيا وما علموا أن الفراش على المصباح ينتحر !

وفي الواقع ، لقد انتحر الكثيرون من الطغاة على لظى شهوة الحكم
من قبل ومن بعد • وكان في مصرع السادات عبرة لمن يعتبر •••
أطرق عمر قليلا ، ثم ذرف دمعين وقال :

— لكن قاتل الله الفقر ، انه لا يرحم عزيز قوم ذل ، انه كاد كما
قيل لي في السالفة أن يكون كفرا •
قاطع المعري :

— هون عليك يا عمر ••• فقد فعلت أنا بالذات فعلتك ، وما هو
أسوأ منها وأبشع • ألم يبلغك ما أمليت في رسالة الهناء من مدائح
واطراءات بحكام الدولة وسلاطينها ومشيريهها ؟••

وساد صمت تخلته تأوهات وأنات •

عادت الى أبي ريشة رغبته في الكلام بعد أن استعاد رباطة جأشه ،

وهذا المعري من روعه — وكان بارعاً في الرواية وان لم يكن ثبثاً ، كما كان بارعاً في الخطابة وان وثب بها وثباً — قال :

— لقد سمعت أحاديث الندامى والسمار ، فطاب لي أن أشاطركم الحوار ، • ألا فاعلموا اني قضيت بقية العمر في البحث والتنقيب عن مغمور الشعر ، والمنسي من نوادر الدر ، في بطون الكتب والمخطوطات ، والمؤلفات والروايات ، وفي سير الأولين الماضين ، لعل فيها عبرة للمتأخرين •

لا أكتسبكم أني غادرت « أم دفر » — وحق لشيخنا أن يسميها هكذا — لأنها كانت دنيا عنفة تعج بأهل التزمت والتخلف والشر • غادرتها وأنا غير آسف على شيء مما فعلت ، بيد أني كنت أشعر بالأسف والغصّة ، على ما مثني به العرب والمسلمون ، من جهل ومرض وفرقة ، وهم ينساقون كالأنعام وراء من يزعمون انهم أئمة الاسلام ، والدين منهم براء ، ويدعون بالعودة الى نظم وتقاليع عصور الظلام والاقطاع ، وحكم أئمة اليمن « التعيسة » — ولست أدري لم سميت باليمن السعيدة — عندهم يعتبر المثل الأعلى للشريعة السمحاء •

تركتهم وهم يحكمون بعض أقطار العالم الثالث ، ويرجمون الناس ويجلدونهم ويمتنصون دماءهم ويتلعون ثرواتهم وخيراتهم ، ويعدمون من يشاؤون بلا محاكمة ولا شريعة ولا قانون ، ويحرمون على المرأة العمل والعلم ، ويحكمون عليها بالسجن ، على مدى العمر ، فدور الحریم عندهم خير من دور المعلمين والمعلمات ، وأسواق النخاسة في رأيهم خير من المعامل والأندية الثقافية والتعاونيات ، وقد تناسوا أن المرأة العربية في فجر الاسلام وصدرة كانت تقف في الجهاد والعمل الى

جانب الرجل بإياء وكبرياء ، وتقوم بأعمال التمريض والرعاية والمواساة ، الى جانب عملها في المزارع والحقول • وكان في السيدة عائشة خير مثل للمرأة النيرة الناضجة ، وفيها قال الرسول « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » • وكانت السيدة سكينه بنت الحسين التي فتحت بيتها كندوة لأهل العلم والفن والأدب ، فضربت بذلك المثل ، وأي مثل ، على أن المرأة العربية لم تكن كما يظن بعضهم أمة أو جارية في سوق النخاسة ، بل كانت للرجل خير رفيق ، وللبعل نعم الصديق ، • أحدثكم الآن حديثاً عجباً نقلنا عن رواية لعميد الأدباء والشعراء الوزير نور الدين بن عمران ، صاحب « المرقصات والمطربات » حول حادثة جرت بين سيد الغناء ابن سريج ، وسيدة النساء سكينه بنت الحسين - عليه السلام - قال أخبرني الحسين بن يحيى عن حماد بن أبيه ، عن مصعب الزبيدي :

« كان ابن سريج قد أصابته الريح الخبيثة ، وآلى يميناً ألا يغني ، ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفي ، ثم خرج وفيه بقية من العلة ، فلما قدم المدينة نزل على اخوانه من أهل النسك والقراءة ، فكان أهل الغناء يأتونه مسلمين عليه ، فلا يأذن لهم بالجلوس أو المحادثة ، ثم أراد الشخصوص الى مكة ، فبلغ ذلك سكينه بنت الحسين ، فاغتمت اغتماماً شديداً وضاق به ذرعها ، وكان أشعب - ولا أحد سواه - يخدمها ، وكانت تأنس بمضاحكته ونوادره • وقالت لأشعب : ويلك ان ابن سريج شاخص ، وقد دخل المدينة منذ حول ولم أسمع من غنائه قليلاً أو كثيراً ، ويعز عليّ ذلك ، فكيف الحيلة في الاستماع اليه ولو صوتاً واحداً • فقال لها أشعب :

— جعلت فداك ، وأنى لي ولك بهذا الرجل اليوم وهو زاهد ولا
حيلة فيه ، فارفقي بحالي ، وامسحي بوزك تنفحك حلاوة فمك !
فأمرت بعض جواريتها فوطئن بطنه حتى كادت تخرج أمعاؤه ، وخنقته
حتى كادت أنفاسه تتلف ، ثم مرت به ، فسحب على وجهه فخرج على
أسوأ حال •

واغتم أشعب غماً شديداً ، وندم على ممازحتها في وقت لم ينبغ
له ذلك ، فأتى منزل ابن سريج ليلا فطرقه فقبل له : من هذا ؟ • قال :
أشعب • ففتحوا له ، فرأى على وجهه ولحيته التراب والدم سائلا من
أنفه وجبهته وثيابه ممزقة ••••• فنظر ابن سريج الى منظره فظيع هاله
وراعه ، فقال له :

— ما هذا ويحك ؟ فقص عليه القصة • فقال ابن سريج : اتا الله
وإنا اليه راجعون • ماذا نزل بك — والحمد لله الذي سلم نفسك •
لا تعودن الى هذا أبداً •

قال أشعب : فديتك هي مولاتي ، ولا بد لي منها ، ولكن هل لك
حيلة في أن تصير اليها وتغنيها ، فسيكون ذلك سبباً في رضاها عني •
قال ابن سريج : كلا والله لن يكون هذا أبداً بعد أن تركته •

قال أشعب : قد قطعت أملي ورفعت رزقي ، وتركتني حيران لا أحد
يقبلني في المدينة وهي ساخطة علي • فאלله الله وأنا أنشدك الله الاء
تحملت هذا الاثم علي • فأبى عليه •

فلما رأى أشعب ان عزم ابن سريج قد تم على الامتناع ، قال
في نفسه لا حيلة لي وهذا خارج وان خرج هلكت ، فصرخ صرخة آذن

أهل المدينة لها ونبه الجيران من رقادهم ، وأقام الناس من فراشهم • ثم سكت ولم يدر الناس ما القصة عند خفوت الصوت بعد أن راعهم !

قال ابن سريج له : ويلك ما هذا ؟ • قال : لئن لم تصر معي إليها لأصرخن صرخة أخرى لا يبقى بالمدينة أحد الا صار بالباب ، ثم لأفتحه وأريهم ما بي ، ولأعلمنهم أنك أردت أن تفعل (كذا وكذا) بفلان (يعني غلاماً كان ابن سريج مشهوراً به) فمنعتك وخلصت الغلام منك ، وأنت أظهرت النسك والتعفف لتظفر بحاجتك منه •

وكان أهل مكة والمدينة يعلمون حاله معه • فقال ابن سريج : اغرب أخزاك الله • قال أشعب : والله الذي لا إله الا هو ، الا فما أملك صدقة وامرأته طالق ثلاثاً ، وهو بخير في مقام ابراهيم والكعبة ، وبيت النار ، والقبر قبر أبي رغال ، إن أنت لم تهض معي في ليلتي هذه لأفعلن •

فلما رأى ابن سريج الجدد منه ، قال لصاحبه : ويحك • • أما ترى ما وقعنا فيه ؟ • وكان صاحبه فاسكاً فقال : لا أدري ما أقول فيما نزل بنا من هذا الخبيث • وتذمم ابن سريج من الرجل صاحب المنزل فقال لأشعب : أخرج من منزل الرجل • فقال : رجلي ورجلك • فلما صارا في بعض الطريق ، قال ابن سريج لأشعب : امض عني • قال : والله لئن لم تفعل ماقلت لأصيحن الساعة حتى يجتمع الناس عليك ، ولأقولن انك أخذت سواراً من ذهب من سكيئة على أن تجيئها فتغنيها سراً ، وانك كابرني عليه وجحدتني وفعلت بي هذا الفعل •

وقع ابن سريج فيما لا حيلة له فيه ، فقال : امض لا بارك الله فيك •

فلما صاروا الى باب سكيينة قرع الباب ، فقيل من هذا ؟ • قال : جاء
أشعب بابن سريج • وفتح الباب لهما ودخلا الى حجرة خارجة عن دار
سكيينة ، فجلسا ساعة ، ثم أذن لهما بالدخول فدخلوا الى سكيينة ،
فقال : يا عبيد ما هذا الجفاء ؟

قال : لقد علمتِ بأبي أنت ما كان مني •

قالت : أجل

ثم تحدثنا ساعة ، وقص عليها ما صنع به أشعب ، فضحكت
وقالت : لقد أذهب ما كان في قلبي عليه • وأمرت لأشعب بعشرين ديناراً
وكسوة • ثم قال لها ابن سريج : أتأذنين بأبي أنت ؟ قالت : وأين ؟ •
قال : المنزل • قالت : برئت من جدي ان برحت ثلاثاً ، وبرئت من جدي
إن أنت لم تعني ان خرجت من داري شهراً ، وبرئت من جدي إن أقمت
في داري شهراً إن لم أضربك لكل يوم تقيم فيه عشرأ ، وبرئت من جدي
إن حثت في يميني أو شفعت بك فيك أحداً !

فقال عبيد : واسخنة عيناه وا ذهاب دنياه •• وا فضحتهاه •

ثم اندفع يعني :

أستعين الذي يكفيه تفعي ورجائي على التي قتلتنني !

قالت سكيينة : هل عندك صبر ؟

ثم أخرجت دملجاً من ذهب كان في عضدها ، فرمت به اليه وقالت :

— أقسمت عليك لما أدخلته في يدك • ففعل ذلك •

ثم قال لأشعب : اذهب عزّة فأقرئها مني السلام واعلمها أن عبيد

عندنا ، فلنأتنا متفضلة بالزيارة •

فأثابها أشعب ، فأعلمها ، فأسرعت المجيء ، فتحدثوا باقي ليلتهم •
ثم أمرت عبيداً وأشعب فخرجوا وناما في حجرة مواليها ، فلما أصبحت
هثيء لهم غداؤهم ، وأذنت لابن سريج فدخل وتعدى قريبا منها مع
أشعب ومواليها ، وقعدت هي مع عزة وجواربها ومواليها •

ولما فرغوا من الغداء قالت : يا عزة إن رأيت أن تغنينا فافعلي •
قالت : أي وعيشك • فغنت لحنها من شعر عنتره العبسي :

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقمر بعد أم الهيثم
ان كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليل مظلم

قال ابن سريج : أحسنت والله يا عزة • وأخرجت السيدة سكيئة
الدمليج الآخر من يدها فرمته الى عزة وقالت : صيري هذا في يدك •
ففعلت • ثم قالت لعبيد : هات غننا •

قال : حسبك ما سمعت البارحة !

قالت : لا بد أن تغنينا في كل يوم لحناً •

فلما رأى ابن سريج انه لا يقوى على الامتناع عنى :

قالت من أنت على ذكر فقلت لها

أنا الذي ساقه للحين تقدار

قد حان منك فلا تبعد بك الدار

بين وفي البين للمبتول أضرار

ثم قالت لعزة في اليوم الثاني غني ، فغنت لحنها من شعر الحرث
ابن خالد ، ولابن محرز فيه لحن ولعزة لحن هو أحسنهما :

وقرت بها عيني وقد كنت قبلها
كثير البكاء مشفقاً من صدودها
وبشرة اخود مثل تمثال بيعة
تظل النصارى حوله يوم عيدها

قال ابن سريج والله ما سمعت مثل هذا قط حسناً ولا طيباً ، ثم
قالت لابن سريج : هات فاندفع يعني :

أرقت فلم أنم طرباً وبت مسهداً نصبا
لطيف خير خلق الله انسانا وان غضبا
فلم أردد مقاتلتها ولم أك عاتباً عتبا
ولكن صرمت جبلي فأمسى الجبل منقضباً

قالت سكينه : قد علمت ما أردت بهذا وقد شفعنالك ولم فردك ،
وانما كانت يميني على ثلاثة أيام فاذهب في حفظ الله • ثم قالت لعزة :
اذا شئت • ودعت لها بحلة ، ولابن سريج بمثلها •

وانصرفت عزة ، وأقام ابن سريج حتى انقضت ليلته وانصرف من
وجهه الى مكة راجعاً •

هكذا انتهت قصة ابن سريج مع السيدة سكينه المصونة • قال
عمر أبو ريشة • وأخشى أن أكون قد أطلت عليكم السيرة ، ولكني
قصدت أن اوضح لكم ما كانت تتمتع به المرأة العربية - ولو أنها تمت

الى الرسول الأعظم بالنسب والحسب - من حرية في التصرف ، ومن ذوق رفيع ، وأدب جم ، ومراسم في الاستقبال والوداع ، ومن حرمة وشرف وكرامة ، واعتداد بالنفس ، وفهم لمعنى الحرية الواسعة التي منحها اياها الاسلام ، بعد عصور من الجهالة والاحتقار والوآد والعبودية والاسترقاق •

واقطع عمر هنيهة عن الكلام ، ثم تساءل :

- ويحكم ما لكم تنظرون اليّ بدهشة وعجب ؟ ألم يبلغكم ما رواه أبو الفرج في سفره الكبير ، من حديث الخليفة عمر بن عبد العزيز ، التقي الورع العادل الجليل ، الذي كان أول خليفة للمسلمين ، اشتغل في الغناء والتلحين ، مذ كان والياً على الحجاز ، مهبط الوحي ، ومركز الاشعاع الفكري والروحي في فجر الاسلام • ألم يكن هذا الخليفة المؤمن الصالح الطيب القلب ، الخفيف الظل ، من عشاق الفن والجمال ، ألم يكن شاعراً ذواقة للشعر النابع من القلب والوجدان ، ألم يكن كارهاً لشعر المديح والهجاء والاطناب ؟ ألم تسلم دموعه مدرارة على لحيته عندما أنشدته عزة جارية أحد قضاة المفضوب عليهم شعراً للأخطل ، فعفا عن صاحبها القاضي وبكى • ثم أوليس هو الذي هام يمثل أعلى تصويره في « سعاد » حبيته وجنة خلده ، كما جاء في شعره المعروف ؟ وأخيراً أليس هو القائل - في خريدته العصماء - التي لا يزال يرددها حتى الآن الكثيرون من رواة الشعر :

سبحان ربي برى سعادا لا تعرف الوصل والودادا

لقد علق قلبه - كما قال - بحب سعاد ، ومن بعدها سعدى ،

ثم عاد ليعشق ليلي ونعمي ! كل ذلك بحثاً عن ضالته المنشودة ، في
خلود الأرواح الهائمة المفقودة ، كما يفعل صاحبنا « أمين » - وأشار
الي " اشارة لخبية فيها همز ولز - في سعيه ورا ءوردته الحمراء ، الهائمة
بين الأرض والسماء * ؟؟

ثم أخرج أبو ريشة غليونه من جيب سترته ، وأشعله بعود ثقاب
لا يعلم أحد متى كان في حوزته ، فتطير شرر وتتصاعد دخان ، فلما رآه
المعري على هذه الحال صرخ صرخة فزع وقال : ان هذا الرجل يحاول
أن يحرق نفسه ويحرقنا * * * ويحه هل جاء من النار ليعود الى النار .
هلموا معي الى اطفاء هذا الشيطان ، والا أت علينا جميعاً النيران .

تضحك شاعرنا عمر وقال : هون عليك يا مولاي الشيخ * *
لا حاجة بك الى عملية اطفاء حريق ، فالتدخين - تلك العادة السيئة
الذميمة - التي اقتبسناها عن القبائل الأميركية ، ثم سرت بين الناس
بعد رحيلك عن الدار الأولى بمئات السنين ، سرعان النار في الهشيم ،
أصبح معظم الناس بسببها من المدخنين !

قال المعري بعد أن هدأ روعه قليلا : اني أعجب لقوم يجعلون من
أنفسهم مداخن ومواقد ، تشتعل في بطونهم نار ، ويتصاعد من أفواههم
دخان . فهل للدخان طعم ولذة ؟

أجاب عمر على هذا التساؤل : فيه مادة النيكوتين ، لعلها نوع
من المخدر أو المهيج اللعين ، لست أدري الا أنها عادة مستقبحة ، لم
تستطع الافسائية منها خلاصاً ، كالخمرة تماماً . وأظن أن الجنة لا تخلو
من نبات التبغ !

قال المعري : والله ما كان يخطر لي على بال ، أن يصبح الانسان عبداً للدخان • أما كفى ان العديد من الأقوام عبدت من قبل النار ؟

ولاذ الشيخ برهة بالصمت ، ثم سأل عمر :

— هل حقاً انك كنت على مذهب الشاذلية الصوفية ؟

— نعم كنت كذلك •• وهل في ذلك ضر •• انه مذهب كسائر المذاهب ، فيه طرق حرة كثيرة ، وفيه أسرار حجت عن ذوي العقول القصيرة ، كنا ننادي بانطلاق الفكر وتقديس الجمال •• وان الله جميل يحب الجمال ••• كنا نرى الله في بديع خلقه ، في كل زمان ومكان ، ولذلك أنجبت الشاذلية الكثير من الشعراء ••• لقد كنت أشاهد والدي في أواخر أيامه في الاولى ، يقف أمام النافذة المطلة على الحقول الخضراء ، والرياض الغناء ، ساعة صامتاً خاشعاً ، ولما سألته ذات صباح لم يقف هكذا دون حراك ؟ أجابني باقتضاب : اني أصلي !

قال المعري : ولكن سبقكم الى ذلك طائفة من فلاسفة اليونان ، تأثر بهم كثير من فلاسفة العرب وحكمائهم ونقلوا عنهم الشيء الكثير من المبادئ والمتاهج ، وقد تأثرت أنا بالذات ببعض آرائهم ، الا أن من بيدهم الحل والربط — من أصحاب الجاه والمال والسلطان — قضاوا عليهم بقوة السلاح • فهل فعلوا بكم ما فعلوا بهم ؟

— لا كنا من السابقين ، وتوقعنا على بعضنا بعضا في طائفة صغيرة لا تشكل خطراً عليهم ، وعمدنا كما عمد كثير من قبلنا الى « التقية » •
فيما كنا على هذه الحال من سمر وسجال وحوار ، تفتقت ثمرتان

من الشجرة ذات الأنواط عن شخصين مهيين ، عرفنا الأول فإذا هو
الشاعر جميل صدقي الزهاوي ، والثاني معروف الرصافي •

كان جميل يتأبط سفراً ضخماً • فسأله الشيخ : ماذا في يمينك
يا جميل ؟

قال الزهاوي : انه ديواني وأنيس وحدتي ، فيه قصيدتي
وملحمتي ، تلك التي استلهمتها من رسالة الغفران ، التي أملتتها أنت
قبل ألف عام ، وقد نهجت نهجك في ملحمة « ثورة في الجحيم » ،
فاعتبرني ابنك الروحي أيها الشيخ المعري ، الفذ العبقرى •

قال الشيخ : والله ما كنت أحسب وأنا ألمي رسالتى تلك أن
سيكون لها مثل هذا الأثر في عالم الأدب ، وأن سيكون لي تلاميذ بعد
ألف من السنين، ولكن آه ثم آه من تلاميذي الأوائل الأغرار، كانوا يمزجون
فيها الشرح بالمتن ، وأنا لا أبصر ما يصنعون ، فجاءت هكذا مخالفة
لروح العصر ، غير مترابطة في الدبج والسرد • ومع ذلك لم يخف هذا
على أولي الألباب ، كأمثال طه والكيلاني و بنت الشاطىء • هات يا جميل
وأسمعنا شيئاً من ملحمتك التي سميتها « ثورة في الجحيم » •

انتشى الزهاوي طرباً ، وشرع يلقي قصيدته ، فاستهلها بقوله :

بعد أن متّ واحتواني الحفير جاءني منكر ونكير

ومضى بها الى آخرها الى أن قال :

ان قول الحق الصراح على

الأحرار حتى في قبورهم محظور !

ولما انتهى الزهاوي من الالتقاء ، سأله المعري السؤال المعهود :
بمَ غفر لك ؟

قال : قولي في هذه الملحمة :

ان الإله فوق كل منال ال عقل منّا وهو العزيز الكبير !
وقولي :

انه في الجبال والبر والبحر في الأرض والسموات نور
ثم التفت المعري الى شاعر الحرية معروف الرصافي وسأله :
وأنت بمَ غفر لك ؟

قال الرصافي : غفر لي أنني كنت مع المظلومين ضد الظالمين ، وما
ربي بظلام للعبيد ، واني عارضتك في قولك بلزومياتك :

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسة
فأفٍ من الحياة وأفٍ منهم ومن زمنٍ رئاسته خساسة
فقلت :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبات عميدها !
فما أنت يا أيها الموت الا نعمة يعز على أهل الحفاظ ججودها

وهنا انبرى الزهاوي ثانية وقال :

— أعقب على قول زميلي الرصافي أنني نظمت قصيدة حال دون
نشرها أصحاب « الخفية » والجاسوسية ، في زمن السلطنة العثمانية ،
هذا مطلعها :

يقولون كن اماً حماراً تقوده
واما على أبناء قومك جاسوسا ا

تل مسن لدننا رفعة ومكافاة
وتصبح رئيساً بعد أن كنت مرؤوساً

قال الشيخ : حمداً لله انك لم تصبح حماراً ولا جاسوساً ولا رئيساً !

قال الزهاوي : والا قلت قولك المأثور :

يا موت زر ان الحياة ذميمة
ويا نفس جدي ان دهرك هازل !

وعقب الشيخ على كل ما قيل في هذا الصدد متعجباً : أراكم كلكم
ذهبتم نهجي في تقمتي وثورتي على أهل الظلم والبغي ، والجهل
والفساد ، والسعاية وخنق الأنفاس ؟

وهنا عنّ لي أن أنتطح قليلاً أمام أبي العلاء ، وأظهر ، بشيء من
التباهي والخيلاء ، فأدليت بدلوي بين الدلاء ، وقلت له : فدينك جميعاً
يا شيخ الأدباء ، لقد أقمنا لك في حلب الشهباء ، بمناسبة مرور ألف
سنة على ميلادك حفلاً تذكاريّاً في باحة المدرسة التجهيزية • وكان ذلك
في أوائل القرن العشرين ، ضمّ عدداً كبيراً من أدباء وكتاب وعلماء
الجيل ، ومن بينهم صاحبك طه حسين ، وعبد القادر المازني ، والشيخ
المغربي ، وأئيس المقدسي ، وعمر أبو ريشة وسواهم كثيرون • وقد
تكلم في هذا الحفل طه فتحدث عن فلسفتك وأدبك ، ودعوتك الى
حكم العقل والضمير ، وتحدياتك لأولئك المتزمتين ، فسحر ببيانه
الألباب ، وكان يتكلم كأنه يقرأ في كتاب مفتوح • ثم ألقى أبو ريشة

قصيدة أطرى فيها مناقبك وروحك الحرة الوثابة ، وأثر ذلك في الفكر
العربي جيلا بعد جيل • وتكلم آخرون وكلهم أشادوا بابن المعرة البار ،
وفيلسوف العرب المختار •

قال الشيخ : كفى يا هذا ••• ما كنت أظن أنني أستحق مثل هذا
الثناء والاطراء •

وأيد أقوالي كل من كان في الحلقة من الأدياء المتقدمين ، وأثنوا
على الشيخ شاكرين •

الآن اني لم آبه بمقاطعة المعري حديثي ، فأردفت قائلاً :

— وكذلك أقاموا لك تمثالا في الساحة ، من نحت المثال الحلبي
فتحي بن القباوة ، فثارت ثائرة أهل القباوة ، وزمرة الجمود والقذارة ،
متذرعين بالخوف على الاسلام ، أن يعود الى عبادة الأصنام ، متناسين
انهم غدوا أمة يحكمها ألف صنم ، ويرفرف عليها ألف علم ، وانهم
أصبحوا من بقايا الأمم •

فتبسم المعري وقال : دعني بالله من حديث الجهال والأغبياء ، فقد
أصابني منهم الكثير من الضر والبلاء •••

ثم شرد بنظره الثاقب الى بعيد وقال : أين أمير شعرائكم أحمد
شوقي — الأرسطراطي الاشتراكي — لم لم ينفصل وينشدهنا شيئا من
شعره الرافي ؟

قال أحد الولدان : انه في شغل شاغل عنكم اليوم ، فهو متربع
في أيكة ، تشبه البردوني في زحلة ، يستمع الى لحنه المفضل « يا جارة

الوادي » يؤديه في حضرته تلميذه محمد بن عبد الوهاب ، ذلك الفتى
الغض الاهاب ، البارع في اختطاف الألبان ، أو نقلها أحياناً كنسخة
طبق الأصل ، دون أن يداخله في ذلك لوم . الا أن أحداً لا ينكر عليه
انه شجي الصوت ، عذب النغم .

قال المعري : كفاك يا بني شرحاً وتفصيلاً ، طرحنا عليك سؤالاً ،
فاذا بك تلقي علينا مقالا . دعوا أحمد شوقي وشأنه ، ينعم بما يطيب له
عند جارة « الوادي ، المقدس » .

عدت أنتنطع مرة أخرى فقلت : لعله الآن يتمتع ويتنشق عبير
الجنان ، ما هو خير له وأبقى من الكوكان ، اذ بلغني انه لا يميل الى
بنت الكرمة أو أخت الحان ، فقد روى لنا الشيخ السفير ، الخليل بن
تقي الدين ، نقلًا عما سماه « بدفته الخاص » أن أمير الشعراء عندما
كان يحل في بيروت ، يجلس في مقهى « النجار » في ساحة البرج ،
وحوله شلّة من الأديباء والظرفاء ، وكان على عادته صامتاً لا يتكلم ،
فاذا مدح أجب بابتسامة متواضعة ، وهز رأسه هزة خفيفة ، وكان
يعيش في دنياه ، دنيا داخله ، فلما جاءه الغلام يسأل ماذا يشرب ، طلب
شوقي كأساً من البيرة ، ومال على الخادم وقال له :

— وحياة عينك تأتيني بالزجاجة كما هي وتصبها هنا أمامي .

هذا ونحن ننظر ونعجب ، فقد كنا نظن أن شوقي لا يذوق
الخمرة ، وان تكن جعة قليلة الكحول .

وعاد الغلام بزجاجة البيرة ، فملاً كأس شوقي ، ولكن شوقي لم
يدن الكأس من شفتيه ، بل رفعها يميناه ، وأدناها من أذنه وأصغى !

ثم طاف على ثغره خيال ابتسامة ، وفي عينيه شبه بريق ...
ازددنا عجباً ، وقال أحدنا : ماذا يا باشا ؟ (وكان الجميع
يخاطبونه هكذا) •

فأعاد الكأس الى مكانها على الطاولة ولم يجب ، ولكنه ظل
يبتسم ، فألححنا عليه في السؤال ، فقال :

— نظمت اليوم مقاطع من « مجنون ليلي » وفيها هذا البيت :
وأذن المغني تحس الخفوت وتسمع في الكأس جرس الحبيب !
فأردت أن أتأكد من أن للفقاع — الجبب — التي تعلق الكأس
جرساً وهي تتكسر ، أي صوتاً خافتاً ، قد حصل والحمد لله !

أما نحن فلم نكن في حاجة الى دليل لنعرف أننا في حضرة
فنان أصيل •

وما ان انتهيت من رواية الشيخ تقي الدين ، حتى تناولت كأساً ،
وشربت على ذكرى « وردتي » وجرسها الحبيب يرن في أذني •

وتلفت حولي ، فاذا برهط آخر من شعراء الجاهلية والاسلام
يحيطون بنا من كل حدب وصوب ، كأنهم في سوق عكاظ جديد ،
وراحوا يتبارون بالأشعار ، التي لم تتعد الحماسة والموشبات والمديح
والهجاء ، وكان بينهم العديد من شعراء المعلقات ، فنظر اليهم طه بن
الحسين بعجب وريب ، وقال : بالله دعونا نستمتع الى مقاطع من شعر
هؤلاء • فأنشده بعضهم ما وصف بأنه من شعر المعلقات ، فلم نفهم منه
الا النذر اليسير ، فقال طه مبتسماً : رأيتم اني كنت مصيباً فيما

ذهبت اليه في كتاب « الأدب الجاهلي » وما شككت فيه . . . أليست
تلك بينة على آفة الرواة ؟

كان النواصي يستمع الى الشعراء الجاهليين وعلائم التذمر بادية
عليه ظاهرة ، فسأله المعري :

— ما بك يا ابن هاني ؟ قال هذا :

عاج الشقي على ربع يسأله وعجت أسأل عن خمارة البلد
بيكي على طلل الماضين من مضر

لا درّ درّك قل لي من بنو مضر

ولكنه هنا بدل أن يقول « لا درّ درّك » شتم شتماً قبيحاً :
كقوله (كذا في أمك) أو ما شابه ذلك . وحاول النواصي الاستطراد
بشعره على هذا النحو التبيح الذي اشتهر به في الدار الساخرة ، الا
ان المعري قاطعة بقوله : ألا تستحي أيها الخليع ؟ ألا فاستمع الى شعر
الأولين ، فلولاه لما كان لنا شعر ولا قريض .

فسكت النواصي على مضض . وسمعته يلعن بني تميم وقيس
وكليب وتغلب وجحيش ومن لف لفهم .

قام بعض الحاضرين من الرواة السالفين ، يتهمون النواصي
بالشعوبية والزندقة ، فأسكتهم الشيخ الحكيم وقال لهم دعوه له دينه
ولكم دين ، ونحن هنا لا نريد أن نضغط على فكر أحد من أهل الجنة ،
فليميز كل منا ما يقال ويكتب ، إن خيراً أو شراً ، فإن وجد في الأول
ما ينفعه أخذ به ، وان وجد في الثاني ما يضره فلينبذه .

عرفت بين هذا الرهط من الشعراء والأدباء العديد من أعلامهم
وفطاحلهم أمثال ابن الرومي ، والمتنبي وابي تمام ، ومولانا جلال الدين
الرومي وحوله دراويشه يدورون على أنفسهم كالعواصف في حلقات ،
وتتفتح بدورانهم الجلايب والعجات ، وكان نصر منهم يتربع على
سدة ، يتوج رأسه بكلاه تلفه عمامة ضخمة ، وهم ينشدون الأذكار ،
ويسبحون بحمد باري الأكوان •

x x x

على حين غرة تفتقت ثمرة أخرى عن شاعر فارسي أصيل ، أسر
بشعره وخمرياته ورباعياته قلوب العالمين ، فإذا نحن أمام عمر الخيام ،
الشاعر العالم الهمام ، وتفتقت بعده ثمرة ثانية عن جارية غانية ، وفي
يمينها كأس فضية ، طافحة بخمرة وردية ، فتناولها منها وعبء الجرعة
تلو الجرعة ، وتأوه وتنهّد ، وشهق وزفر ، ثم فاجأ القوم بقوله :

— لقد سمعت ماقاله الزهاوي والرصافي في حكم الاستبداد ،
والتخلف والاستعباد ، إني أنا عانيت بالذات ، ما عانيتم أتمم جميعاً
من طغيان قوى الظلام •

وهنا قاطعه المعري متسائلاً ، وماذا قلت فيهم يا أيها الفارسي
الجميل ؟

قال الخيام :

نحن يا مفتي الورى منك أدرى

لم تنزل عقلنا مدى السكر راح
أنت تحسو دم الأنام ونحسو
دم كرم فأينا السفاح؟

وقدمت إليه الجارية بعدئذ آنية من زبرجد ، وابريقا من عسجد ،
وصبت له قدحاً آخر ، وهنا سأله الشيخ سؤاله المعهود : بم
غفر الله لك ؟

تأوه الخيام وقال : « يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي
وجعلني من المكرمين » ••• غفر لي ربي لأنني توصلت إليه يوماً بقولي :

إذا كنت تجزي الذنب مني بمثله

فما الفرق بيني وبينك يا ربي ؟؟

ثم نادى على الجارية وقال : هات المدام يا « ••••• » وأينما
شئت فاذهبي •••

وقال : سمعت ما يدور في مجلسكم من شعر ونثر ، وأخذ ورد ،
بيد أن لي معكم أمراً وأي أمر •

قال الشيخ : وما هذا الأمر يا سيد الشعراء ؟

قال الخيام : أتأذن لي بمواجهة سيدة الغناء ؟

فصفق المعري صفقتين ، فاذا بثومة تمثل أمام الخيام وجهاً لوجه ه
وقد أطرقت رأسها — على غير عاداتها — خفراً وحياء •

قال الخيام مخاطباً إياها بالذات : أليس من العار والشنار يا مطربة
الملوك والأمراء ، ويا آسرة قلوب الصعاليك والفقراء ، أن تطلبي الى
شاعرك ، أحمد بن رامي ، ذلك العجوز المتصابي ، الذي أطلق عليه
لقب شاعر الشباب ، أن يزور في ترجمته رباعياتي ، فيتلاعب في بعض
المقاطع والألفاظ ، ويحرف دون وازع من شرفٍ أو ضمير ، في شعري
الذي لا يقبل الزيف ولا التحريف ، لأنه أصبح معروفاً مقروءاً من
العالم قاطبة . كيف تجرأ فبدل كلمة (الحان) بكلمة (الغيب) في مطلع
الرباعية التي غنيتها أنتِ للناس على لساني فقلت :

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى من (الغيب) غفاة البشر

مع أنها في الأصل : نادى من (الحان) غفاة البشر ! وكذلك حرّف
وبدل على هواه مقاطع أخرى من رباعياتي ، كأنه هو قائلها ولست أنا
أنا الخيام الذي نظمها عن وعي وادراك وقصد ، وكنت في كل كلمة
وحرّف ، أرمي الى هدف ، وأعبر عن رأي .

فلماذا هذا التزوير في الترجمة ؟ . ألا يعتبر ذلك منكم جميعا ،
من الشاعر المترجم ، والمطربة الفنانة ، والملحن المشهور خيانة وسوء
ائتمان ؟ . ألا تعلمون أن الأمانة مقدسة ولا يجب التصرف بها ؟ .

لقد كان الفرنجة خيراً منكم في ترجمة رباعياتي ، فلم يعمد أحد
منهم الى العبث في ترجمة شعري وتشويبه وتزييفه كما فعلتم أتمم ،

واني أقرّ بأن أشرفكم كان احمد الصافي النجفي ، فلقد نقل شعري
بأمانة وان لم يستطع أن يسبغ عليه روح شاعريتي الحضرية ، فجاء في
بعض مقاطعه جافاً كالشعر الصحراوي •

وهنا قاطعته أم كلثوم بقولها : ولكن ألا تعلم يا سيدي الشاعر
المجيد ، لو اني قلت (الحان) بدل (الغيب) لكنت عرضة لهجمة شرسة
من رجال الدين وأهل التقى والورع ؟

قال الخيام متهمك : ألت أنت ربيبة حان ، ومطربة الأزبكية
منذ قديم الزمان ، وفي أوائل عهدك بالغناء ، فعلام الخجل والحياء ؟
ان أحداً من الكاشحين لم يستطع أن يمسّ عفتك وسمعتك بسوء ،
فكنت خير مثل للفنانة الموهوبة المحترمة المنزهة عن الهوى • ثم هل
كانت الأزبكية غير حان ؟

هل كانت معبداً مقدساً لا طرب فيه ولا غناء ، بل ترتيب قداس
وذِكْرٍ فقط ودعاء ؟

يا للعرب كم يخفون رؤوسهم في الرمال كالنعام ، فلا يرون الى
أبعد من أنوفهم الى أمام ، يعيش كثير منهم - ولا سيما لفيف من
كتابهم وأولي الرأي فيهم - في جو من العهر الفكري ، كما وصفهم
بذلك أديب متقدم عصري ، فهم يحبون النكاح جاً جماً ، ويعملون على
اجهاض كل فكرة أو حركة تحمل في ثناياها معنى من معاني العرفان
والتقدم ، ولو كان جينياً حياً • لقد زور بعضكم التاريخ ، والحديث
الشريف ، ولا تزالون تعيشون في ازدواجية قاتلة مدمرة للعقل ،
وتخشون أن تواجهوا الواقع كما هو ، وأنتم سادرون في أحلام الماضي
السحيق ، فلا حق عندكم ولا حقيق •

حاول الشيخ أن يهدىء من روع الخيام وغلوائه ، وغضبته ولغوه ،
فقال مواسياً :

— هون عليك يا ابن الخيام ، والامت بغيظك ، فليس أهل فارس
بخير من العرب في هذا المضمار ، فكلنا كما قال أحمد بن شوقي — في
الهمّ شرق ! • والآن ما لنا ولأحاديث أهل الفانية ، وما كانوا عليه من
زيف وختل ، ونفاق ودجل • دعونا من سير المتأخرين والمتقدمين ، من
« أهل العمائم والحجيج ، الذين يرفعون التلبية بالعجيج » وهم
لا يفكرون الا بالربح الوفير ، والأمر المستهين الخطير « فكلنا بحمد الله
مضل • فعلى من نحمل وعلى من ندل ؟ » (١)

وصفق الشيخ ونادى على أربع جوار برقن للرئين ، وأمرهن أن
يرقصن على أبيات الخليل :

ان الخليط تصدع	فطر بدائك اوقع
لولا حور حسان	مثل الجآزر أربع
لقلت لظاعن اظعن	اذا بدالك او دع

ورقصت الحوريات الأربع ، على ايقاع لم يطرق مثله أذني ولم
أسمع ، وكنّ بخفة الفراش ، ورقة النسيم ، يتماوجن بين يمين وأديم ،
كأنهن شهب أو نجوم متألقة ، يتراقصن ويتألقن في السماء السابعة !
ورأيت أحد الولدان يعرف بكأس من فضة من نهر العسل
بمقدار ، ويقدمها تودداً وتكرماً الى النواصي الماجن الهزأة الثرثار ،

(١) انظر رسالة الغفران للمعري .

ويقول له : اخذ وذق شهد الجنة ما أحلاه وما أطيبه ، فاتهره هذا بقوله :

— ما أثقل دمك يا غلام يا رقيق . . . هل هذا الأمر بمستساغ لذي ذوي الذوق الرفيع ؟ ألا تعلم أنك بالخمرة والعسل ، قد تسوقني الى المعتسل ؟ ألا تعلم انها عسيرة الهضم ، ثقيلة على المعدة اذا مزجت ببنت الكرمة ؟

ولكن شاعر بني عبس وبطلها المغوار ، تناول الكأس من يد الغلام ، وتجرع الشهد الرقراق الحلو المذاق ، دفعة واحدة بلا ملام ، وقال يا لطيبها من حلوى ، والله كنت أحلم وأتوق اليها أكثر مما كنت أحلم بوصول عبلي !

ولمحت من بعيد شاباً نحيل القوام ، يترنج من السكر ، فلما دنا منا سمعناه ينشد وهو يتلثم :

يا طلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
روّت من دمها الثرى ولظالما روى الهوى شفتي من شفتيها

قال المعري : ها قد جاءنا نذك ونظيرك ، ديك الجن ، شاعر الجنون والشر ، عبد السلام بن رغبان . . . ربما طيف ضحيته « ورد » يلاحقه في غدوه ورواحه ، ويطارده في يقظته ومنامه .

دهشت لقوة ذاكرة المعري ، وشدة ملاحظته ، الا اني لم أكنمه غيظي من أن يشبهنى بهذا الشاعر الشرير .
سأله الشيخ : بهم غفر لك ؟

قال ديك الجبن : تشيعي لآل البيت ، وترديدي قول الإمام
الشافعي (رضي الله عنه وعنك) :

إذا كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان اني رافضي !

وهنا انبرى « للديك » نفر من الشعراء الذين كانوا من مداح
معاوية بن أبي سفيان ، وحاولوا مقاطعته بالكلام ، فقال حاشا لله أن
يكون هذا « الديك » من أهل حمص الطيبين ، فما هو الا قاتل هجطين ،
قتل جاريته ظلماً وعدواناً ، وقام يدعي التشيع لآل البيت الكريم
زلفى ورياء •

وثار جدل عنيف بين الجماعتين ، اذ لحق بديك الجبن زمر من
الشعراء المتشيعين وما أكثرهم ، وكاد أن يقع صدام فيما بينهم ، لولا
أن رضوان - عليه السلام - حضر قبل فوات الأوان ، وأنذر المشاغبين
من الجانبين بقوله :

- الا فالزموا الصمت أيها الجحاجة من سنة وشيعة ، فلا عربدة
في الجنان ، انما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السفلة والهجاج !
فسكت الجميع ، وانصاعوا للأمر الخطير ، وعاد كل يتلهى بشأته
بين حوره وولداته •

ومال الشيخ على أذني وهمس :

- لقد سمعت وأنا في أم دفر ، من هؤلاء النفر ، واضرابهم
وأشباههم ما جعلني أشمئز من معشرهم ، وألومهم على سوء مسلكهم
عندما اشتد النزاع الطائفي والمذهبي في اللاذقية :

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدق وذا بمأذنة يصيح أ

الى آخره •

قلت : لو انك وجدت في أواخر القرن العشرين ، وشهدت ما حدث في لبنان الجميل المسكين الغلبان ، من مجازر طائفية ، نتيجة العصبية المذهبية والدينية ، والمؤامرات الأجنبية ، لقلت أكثر مما قلت في اللاذقية • تلك هي كانت مصيبتنا في مسيرتنا ، ولذلك أصبحنا نهياً للأقوياء من الدول ، وأضحوكة الشعوب والأمم • ألا ترى أنك كنت على حق اذ قلت يوماً :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة

وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

وكذلك صدقت رؤيتك في مصير قومك اذ قلت فيهم :

فلا تطيعن قوماً ما عقائدهم

الا احتيالاً على أخذ الأتاوات

ان الشرائع ألفت بيننا إحناً

وأودعتنا أفافين العداوات

صدقت والله أيها الشيخ الفصيح • كان ذاك في ناقوس يدق ، وهذا في مأذنة يصيح • والشعب يتساقط بين ذبيح وجريح ، ولا رشيد بينهم ولا نصيح • والزعماء يملأون جيوبهم بالأتاوات والرشوات ، لا فرق عندهم سواء أكافت من هنا أو هناك •

في هذه الأثناء ، لمحنا ثمرة أخرى تتفتق عن شاب لطيف ، خفيف
الظل نحيف ، ، فاذا نحن أمام صديقنا الشاعر المصداق ، عبد الله بن
يوركي الحلاق ، فاستأذن الجلوس في الحلقة وقال :

— سمعت ما قاله شيخنا الجليل ، فيما جرى في اللاذقية من ضجيج
وعجيج ، مبعثه التعصب الزميم • ألا فاسمعوا ما قلت أنا المسيحي في
السالفة ، مندداً بأمثال هؤلاء من مثيري الفتنة :

قبس من الصحراء شعشع نوره فجلا ظلام الجهل عن ديانا
أنا مسيحي أجلّ محمداً وأراه يعرّبَ حكمة وبيانا
وأطأطأء الرأس الرفيع لذكر من صاغ الحديث وعلم القرآنا

قال الشيخ : بخ ••• بخ يا ابن الحلاق ، والله إنك ما رددت إلا
صدى دعوتي الى الأنام لدفن البغضاء والأحقاد ، والبعد عن الفتنة
والخصام ، فالغزاة من مغل وترك ، لم يفرقوا بين مسلم ومسيحي ،
وكذلك شأن غيرهم من الغزاة الكثيرين ، الذين مروا بهذه البلاد ،
وپردوا منها مشيعين باللعنات ، وكلهم لم يكن لهم من همّ إلا القضاء
على كل عربي حر ••• ان جمال السفاح — على ما علمت فيما بعد —
لما علق على أعواد المشاقق أحرار العرب لم يفرق بين مسلم وذمي •••
صدقت يا عبد الله فبورك فيك وبأمثالك من الأحرار •

أعود الى القول اذا كان كفراً حب عيسى والمصطفى ، فليشهد
الخافقان أنني كافر !

x x x

عاد « ديك الجن » الى النواح والبكاء على « ورد » التي سفك
دمها ، بلا رحمة ولا شفقة ، ثم ندم فجعل من رمادها كأساً يعاقر بها
الخمرة كل صباح وليلة ، وراح يردد قوله والدمع يفيض من عينيه :

فوحق نعليها ، وما وطىء الثرى

شيء " أعز " عليّ من نعليها

لكن ضننت على العيون بحسنها

وأنتت من نظر الحسود اليها

وهنا قاطعة المعري باشمئزاز وقرف ، وقال له : ألهذا قتلت
« ورد » يا جاحد الحسن والجمال ، يا من مات فيه الضمير والوجدان ،
لا ريب أنك من عبدة ابليس ، والا لما حل فيك هذا التلبس . . . ألا
بربكم اقصوه عني ، واطردوه من حضرتي ، فأنا لا أطيق النظر اليه ،
والا عاودني العمى . اني رفضت في الدار الاولى أن يذبحوا دجاجة
من أجلي ، لشفائي من علتي وسقامي ، فكيف بهذا الحمصي الخليع
الهبيل ، يقدم على ذبح جارية طروب لعوب ، هي آية في الحسن
عروب (١) .

عندئذ أطل علينا ابليس - عليه اللعنة - من المطلع . يقحح
كالمسوخ وهو يضطرب في الأغلال والسلاسل ومقاطع الحديد ، تأخذه
من أيدي الزبانية فيقول :

(١) العروب : الزوجة المخلصة المتفانية في حب بطلها .

— كذب ديك الجن هذا وحق النار ، فما هو بحمصي أصيل ،
بل انه حموي عريق !

رد المعري عليه محتدأ : انغرب عنا أيها اللعين خزاك الله ، أما كفالك
ان فرقت بيننا في الدنيا فوسوست للناس هذا حمصي وهذا حموي ،
وهذا شامي وهذا عراقي ، وهذا عربي وهذا فرعوني ، كما جعلت بيني
قومي في الأندلس من قبل ، فأضاع ملوك الطوائف ملكاً وحضارة ،
وكانت للعرب مذلة وخسارة ، بما أوقعت بينهم ما بين قيسي ومضري ،
وعدناني وقحطاني ويميني وشاوي أو عنزي ١٠٠٠ لا تأبهوا لقول ابليس
انه خبيث درديس ، ومن تبع خطوات هذا الشيطان ، يبوء بالمذلة
والخسران •

عندها تملك ديك الجن الغضب ، فقذف ابليس على رأسه بقدرح ،
فتكسر القدرح ولم يصب اللعين بعطب ، بل عاد يقهقه ويث أضاليله
وسموه ويتحجج ، في صفاقة ووقاحة ، وسماجة ورقاعة :

— يا لكم من بؤساء أيها الأدباء والكتاب والشعراء الأحرار •••
ما نفعكم نضالكم الطويل من أجل الحرية والنور • أما دفن كثير منكم
وهم أحياء في قبور ، وهل جنيتهم غير الدماء والدموع ، ولو أنكم عملتم
بنصحي ، وسرتم على دربي ، فسأيرتم ركب الحكام في كل زمكان
ومكان ، لنعمتم بالخيرات والملذات ، والجاه والمال والسلطان •

واستطرد اللعين قائلاً :

— ان « شرکم » عندي ابن برد وهو القائل :

ابليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا يا معشر « الأخيار »
النار عنصره و آدم طينة والطين لا يسمو سمو النار ا

« وهكذا ترون يا بني آدم انكم ما زجرتم عن شيء الا
وارتكبتموه ، فما معنى ان الخمرة حرمت عليكم في الدنيا ، وأحلت
لكم في الآخرة - وهي خمرة كخمرة الدنيا من قريب وبعيد - وسوى
ذلك من المنكرات أصبحت الآن عندكم من المباحات » (١) .

صاح المعري بأعلى صوته : أما فيكم ابن نحيزة (٢) قوية ليشب
وثبة مضرية على هذا اللعين لعنة أبدية ، فيجذبه الى سقر ، وبئس
المستقر ؟

وهبط علينا رضوان - عليه السلام - على الفور ، وأمسك
بابليس أبي الفجار ، وقذف به الى النار .

وحضر الخزنة (٣) صفاً صفاً ، وسألوا ما الخبر ؟ فقال لهم
المعري : انتهى الأمر !

وهم رضوان بمغادرة الحلقة لشأنه، فتمسكت بجناح منه وقلت :
- فديتك يا رضو لي عندك حاجة فهلا قضيتها ؟

(١) انظر « رسالة الففران » .

(٢) نحيزة : طبيعة أو مروءة .

(٣) أصل خزنة من خزن وخزن كما جاء في مختار الصحاح تأتي
بمعنى كتم السر ، أي ان الخزنة في الجنة يعتبرون مثل كتمة السر
أو أمناء السر .

— قال : وما حاجتك اليّ ؟

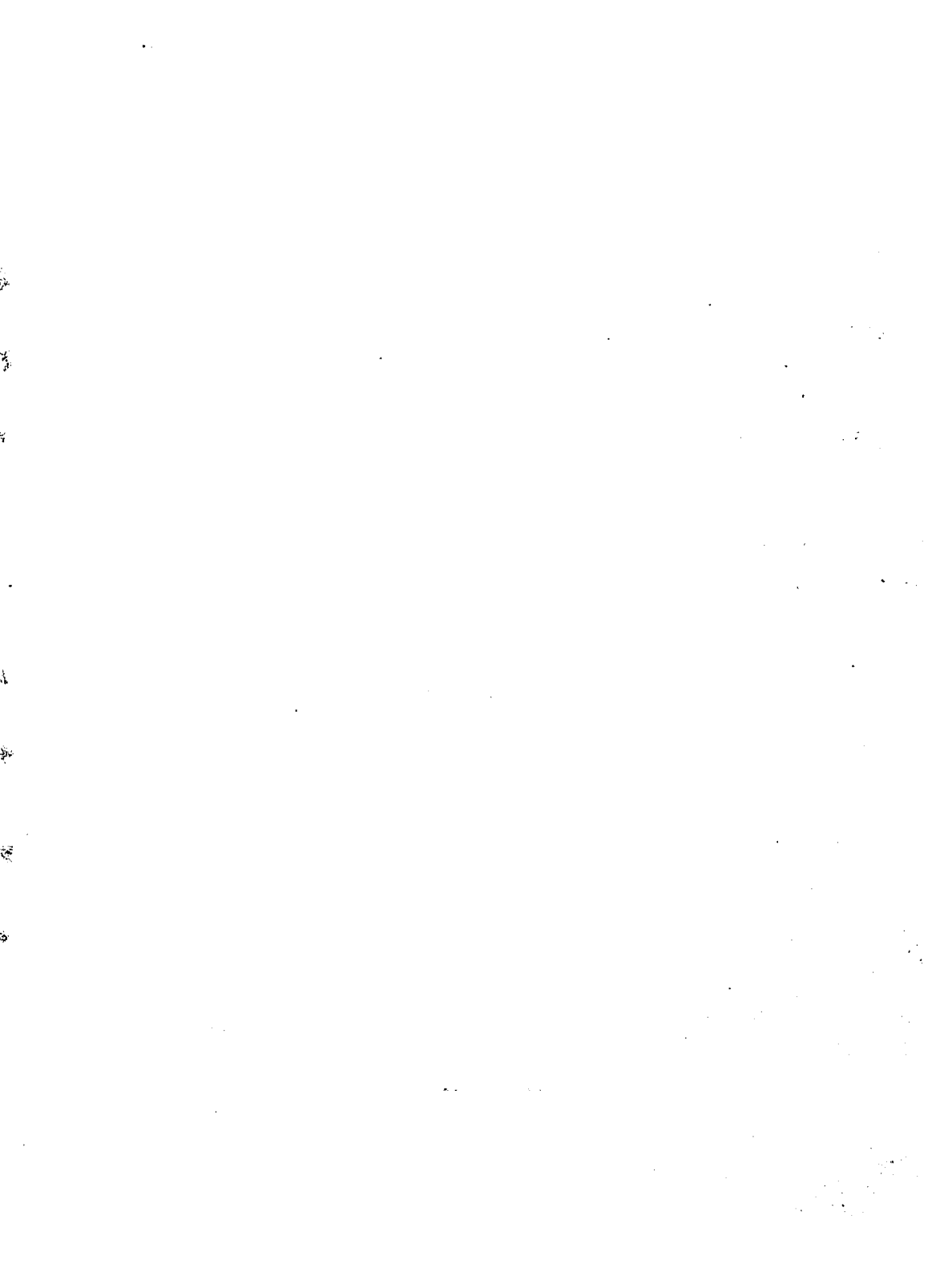
قلت له بلهفة : فديتك بروحي • أود أن تدلني على « وردتي » ،
حبيبتى ومالكة لبي •

قال : وأنى لي أن أعرف من هي وردتك هذه وأين تكون ، ففي
غيطان الجنة ورياضها وخمائلها ألوف الألوف من الورود والياحين ،
والغيد والخور العين ؟

قلت ملحاً متوسلاً في طلبى : الاّ أنه لا نصير لي في هذا الفردوس
إلاّك ، فأنت ملاك كريم ، بل أكرم ملاك ، والاّ أوردتني بصدك
موارد الهلاك !

قال بعطف وحنان : هوّن عليك ، فأنت من العشاق على ما يبدو •
ونحن الملائك نحب العشق والعاشقين ، والحب والمحبين ••••• اتبعني
عسى أن نعر على وردتك أمّ الورود ، كما وصفت يا أيها المفتون •

x x x



ذكريات على الدروب

« ماذا لو جرد الانسان من ذاكرته
وتذكاره ؟ »

••••

غادرت أهل الشعر والأدب ، وهم على ما هم عليه من عريضة
وسمر وطرب ، ورحت أبحث في رحاب الجنة الواسعة ، عن وردتي
الضائعة ، في بساينها الزاهرة ، وسهوبها النضرة ، وجبالها الشاهقة ،
ووديانها السحيقة الساحرة • في مجاهلها الغامضة الباهرة ، وقصورها
الشيقة العامرة ، ومنازلها البديعة المتناثرة ، على شطآن أنهارها وبحيراتها
وبحارها • وفي كهوفها ومعارجها ومغاميلها • وكان رضوان - عليه
ألف تحية وسلام - يطوف من حولي كفراشة ناصعة البياض - مبارك
الحركة سريع الانقضاض - لا يكل ولا يمل من القفز من فنن الي
فنن ، ومن شجر الي شجر ، عله يعثر معي على ضالتي في ظل خميلة من
الخمائل ، أو في منزل من المنازل •

اقتربنا من واحة ذات شمائل (١) ، وذات نخيل وأعنان وسنابل ،
فشاهدت في مروج متماوجات ، فقرأ من الشبان والشابات ، يرقصون
على ايقاع الخليل بن أحمد ، رقصاً يفوق بروعته ورقته باليه البجع ،
فشعرت كأن أرجاء الجنة تهتز من رقة النغم ، وأغصانها تتمايل من همس
التسايج والنسم ، وبراعمها تتفتح على وجنات الورد للطلل أدمع •
وهنا تذكرت ما كان ينشده بعض المطربين في جنات الأندلس من شعر
موسى بن سعيد ، ذلك الشاعر المنسي البعيد ، الى أن جاءنا في الزمن
الأخير الشيخان الفنانان علي بن الدرويش ، وعمر بن البطش ، والملحن
عزيز بن الغنام فدوونوا لنا ذلك التراث الفني الأصيل ، وصانوه من
الضياح ، فتتلمذ عليهم مطرب شاب ، من أبناء الشهباء ، ذاع صيته
وشاع ، لما تميز به صوته الرخيم ، من جرس ونغم بديع ، وهو صباح
ابن أبي قوس ، الملقب بصباح فخري ، نسبة الى معلمه فخري البارودي
نائب الشام ، أول من رعى وأحيا هذا النوع من التراث و « السماح »
فأنشد صباح الصدهاح ، مثل هذا الشعر الذي عن لي ولاح ، وسواه
من الأشعار والقدود والتواشيح ، فبلغ بذلك قمة الشهرة من المحيط
الى الخليج •

أجل تذكرت شعر ابن سعيد ، الرائع المعبر أجمل تعبير ، في وصف
جنة من جنات النعيم ، ليس في السماء البعيدة المنال ، بل في الأرض
الطيبة ذات الألوان والظلال ، اذ قال :

(١) الشمائل : كما جاء في الشرح ، رياح باردة منعشة تهب من
الشمال .

ألا حبذا روض بكرنا له ضحى

وفي وجنات الورد للطل أدمع

وقد جعلت بين العصون نسيمه

تمزق ثوب الظل منه وترفع !

وسالت دمعة من عيني ، فرأى رضوان ذلك مني ، فحاول مواساتي
ودفع الهمّ عني ، وقال : اصبر فالصبر جميل ، ولكل مرید سبيل ،
ولسوف نعثر على ضالتك المنشودة ، وحببتك الحميراء المفقودة ،
فأجبتته مردداً قول الشاعر :

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها

عن الدمع بعد الحلم أسبلتنا معا

لما أعياني التنقل والتجوال ، بين الروابي والرياض والتلال ،
خامرني شك أن تكون « وردة » في أحد الغماميل (١) ، أو في وادٍ ذي
مداهيل (٢) ، فرجوت رضوان ، أن يخوض معي في مجاهل الجنان ،
علمني أعثر على ما لم أعثر عليه في الغيطان ♦

(١) غملول : الوادي الضيق الكثيف النبات ، المتشابك الأغصان ،
الملتف اللبابيب .

(٢) ادحال : حفر غامضة شديدة الغم ، ضيقة من أعلى ، واسعة
من أسفل .

قلت في سري وأنا أسري : مغناك يا وردتي ، يازهرتي ، يا فاتنتي ،
أبعد للمشتاق من إرم •

x x x

بينما كنت أشق الدرب ، وأبحث في كل حذب وصوب ، هاجت
بي ذكريات الماضي ، وحامت أطيافها من ورائي وأمامي ، ولست أدري
أذلك لأنني عربي أصيل ، يعيش على ماضيه الطويل ، ويتغنى أبداً
بمجده التليد ، ولا يتقن صناعة سوى القريض ؟ • قلت في سري ألا تبا
لمن هو مثلي ، فمن كان شأنه شأني ، عليه أن يتخطى الحواجز
والمصاعب ، ولا سيما أنني عرفت في دنيائي بأني باحث عن المتاعب ، فلن
أتقاعس هنا في الآخرة وأتقاعد ، ولسوف أبلغ ما أبغي مهما طال بي
المطاف وتباعده • « ومن يظفر بوردة لا يهمله أن تدمي يده شوكة » •
فقد كفانا بكاءً على الأطلال ، فذلك ما شغلنا عما كنا نعانيه من مظالم
وآلام واذلال ، فتناسينا الحاضر ، وأغفلنا المستقبل • وهكذا ذهبت
كرامتنا هدرأ ، وذبحت حريتنا ذبيحاً ، فما أفادنا البكاء في شيء على
الدخول وحومل ، ولا التوجع والأقين على جبل الكرمل !

ثم ألم ننظم القصائد والخرائد من مختلف البحور ، في حرب
البسوس (١) ، ومن ثم في النكوص بعد العبور •

(١) حرب البسوس ، كما جاء في المراجع هي في الأصل اسم لامرأة
من العرب تدعى بسوس هاجت بسببها الحرب أربعين سنة ! ف ضرب بها
المثل بين القبائل بالشموم •

هكذا راودتني أفكار سوداء ، وخواطر غريبة بلهاء ، وأنا أسير
على الدرب الشائك في المعاميل ، فعقدت العزم على مواصلة المسير ،
ولو أن الطريق طويل وعسير • وساءلت نفسي ترى ما كان قد يحل بي
لو أنا صارحت قومي في الفانية ، بمثل هذه الخواطر والأفكار البالية ؟
فغشتني العاشية ، واتبنتني نوبة طاغية ، اذ حسبت كأن بعض الزبانية ،
قد اقتادوني مكبلاً بالأغلال الى أحد الأقبية • وعندئذ استنفقت من
حلمي تحت وطأة هذا الكابوس ، وعلمت بعدها أنني في الفردوس ،
وثبت الى رشدي ، فإن استطاعوا أن ينالوا ويمثلوا في جسدي الفاني ،
فلن يستطيعوا بعد اليوم أن يغتالوا روحي !

لقد اغتالوا - عبر التاريخ الانساني الطويل - ملايين الأجساد ،
ولكن أيديهم الآثمة الملوثة بدماء الأبرياء ، لم تستطع أن تمتد الى
الأفكار • وهل الأفكار في العالم الا رسالة الأرواح ؟ ولقد تعب في
مراسها - منذ قديم الزمن - الأقوياء والطغاة •

وكم في الخلق والخلق من شيم

تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم

قلت غشتيتني مثل هذه الخواطر العمياء ، فازددت ضيقاً واعياء ،
الآن اني واصلت المسيرة ، فدنوت من دوحة فواحة ، فرأيت رجلاً عبوساً
يكتب تحت صفصافة ، ويدخن غليوناً كالجمرة ، والى جانبه دنّ من
الخمرة ، فسألت ملاكي الحارس : من يكون هذا العنظوان ؟

قال : ألم تره في دنياك ؟ انه اللورد كرومر الانكليزي

الظرمذان ! (١)

تقدمت منه فلم يعرني التفاتاً •

حقاً انه بعينه اللورد كرومر ، والى جانبه زجاجة « الجوني ووكر » •
وظل اللورد المتعطرس منهمكاً في تدوين أوراقه • سألت الملاك :

— قل لي بربك ماذا يكتب هذا اللورد المرقعان ؟

— ألا ترى من قريب أو بعيد ؟ انه يدون مذكراته ، بما ينبىء عن
أيام حكمه في مصر ويفيد • ألا ترى العنوان ؟ انه (انقراض
الامبراطوريات • وانهيار المستعمرات) • (تحت ضربات الشعوب
والثورات) •

قلت مخاطباً اللورد الكبير : ان ما تكتبه أيها الأمير ، لا يرب
انه خطير •

نظر اليّ نظرة باردة ، ولكن يامعان وقال : من تكون يا انسان ؟
قلت : أنا عربي من بيسان ، من موضع بنواحي الشام •

قال بمرارة : أتود أن تذكرني بأشياء لم تكن لتسرني من صاحبي
اللورد بلفور ؟ ذلك الذي سميتموه بصاحب الوعد المشؤوم يا أبناء
سام وعاد وشمود ؟

(١) الظرمذان كالغنظوان ، اي كمن يفتخر بالباطل ، ويمدح بما
ليس فيه • ويقول ابن منظور انه من يفاوض من موقع القوة • وهكذا كان
فعلاً شأن اللورد كرومر •

قلت : لا •• ولكن أود أن أسألك بهمَ غفر الله لك وكانت دولتك
قد أمعنت في سلب ونهب مصر ، فوطدت لها أنت ودزرائيلي أركان
الحكم الفيكتوري الامبرطوري بما يفوق الحكم القيصري الروماني ؟
قال : الأمر في غاية البساطة ، لة دغفر لي اني قلت يوما ، وأنا
السيد الحاكم المطاع في وادي النيل بلا نزاع : « أفضل ألف مرة أن
تقطع يدي ، من أن أوقع على قرار بتعطيل جريدة أو منع مجلة من
الصدور ، أو اعتقال كاتب أو صحفي ، مهما كان لونه أو ميله ، أحر»
أم ماجور •

ألا أستحق بذلك الرحمة والغفران ؟

أما ما تدعيه من سلب المستعمرات ونهبها ، فقد يكون في ذلك
شيء عظيم من الصحة • الا انها مرحلة تاريخية ، قضت بها ثورتنا
الصناعية ، فلولا أقطان مصر لتوقفت معامل مانشستر • وعلى كل حال ،
فالتاريخ شاهد على أنني لم أكن ظالماً كظلم المماليك والسلاطين • اسمع ،
سأتلو عليك فقرة من مذكراتي ، وردت ليس على لساني بل على لسان
المؤرخ المعروف « فولتي » في كتابه (تأملات في ثورات الامبرطوريات):

« كل ما يقع في مصر تحت السمع والبصر ، ليدل على أن هذا
البلد ، بلد الاستعباد والاستبداد ، فانك لا تسمع حديثاً الا وله صلة
بفتنة أهلية أو طائفية ، أو فاقة عامة ، أو ابتزاز مال ، أو قتل نفس تقية
فالأمن فيها على الأرواح مفقود ، ودم الانسان يهدر كدم الحيوان ،
والقضاء نفسه يسفك الدم بصورة غير قضائية ، ولا أحكام شرعية •
ورجال الأمن وعسس الليل يتولون في جولاتهم الليلية منها والنهارية

الفصل في الخصومات بين البرية ، وينطقون بالأحكام على الفور
وينفذونها في أقل من لمح البصر ، وترى الجلادين يرافقون العساكر
أنى يذهبون وحيث يحلون» •

توقف اللورد المرقعان قليلا عن تلاوة مذكراته وسألني فجأة :
ألا فقل لي بربك هل فعلنا نحن المستعمرين بكم ما كنتم أنتم
تفعلون بأنفسكم ؟ ثم ماذا صنعتم في معظم أقطاركم بعد الاستقلال ؟
هل غير الانقلابات والخطب والمهرجانات والمظاهرات ؟ قل لي بربك أين
يذهب الذهب الأسود عندكم ؟ هل في بناء المدارس والجامعات
والمستشفيات ، أو المصانع والمعامل والمنشآت ، و المدن والحدائق
والسدود والقطر والأساطيل ، أو في تعزيز أسباب الدفاع والصدود ،
أم انها تتسرب الى بنوك لندن ونيويورك وباريس وبرلين ، في سبيل
خدمة استثمارتنا نحن الغرباء المستغلين • هذا فيما عدا ما ينفقونه
في مواخير وأندية الغرب من أموال تكفي لجعل بلادهم من أعز بلاد
العالم ، وأكثرها رخاء ، وأغناها ثروة ، وأعظمها خيراً وبركة ، وأشدها
مناعة وقوة ؟ • ألا تراهم وهم قابعون في قصورهم فوق الرمال ،
ومن تحتهم أنهار الذهب الأسود تجري بلا حساب ، يكيدون لبعضهم
بعضاً ، ويتنازرون بالألقاب ، ولا هم لهم الا اقتناء الجواري والعبيد
والخصيان ؟ !

أجبتهم بهدوء قائلاً : وهل غيركم من مشط لحاهم ، ووضع التيجان
على رؤوسهم •• ألم يكونوا كلهم من عبيدكم ومخلفاتكم ؟ ألم يكونوا
الدمى التي نصبتموها ملوكاً وأمراء وشيوخاً ، وكنتم تتلاعبون بها
على هواكم ، وحسب ما تقتضيه مصالحكم لامتناص دماء الشعوب

العربية وإذلالها والحيولة دون تقدمها وخلصها من الفقر والمرض
والجهل ؟

قال على الفور : بلى هذا صحيح الى حد بعيد . كان ذلك منا
خطأً شنيعاً كلفنا فيما بعد الكثير من التضحيات بالأموال والأرواح ،
واضطرنا الى خوض حروب استعمارية قذرة أطاحت بالملايين منا ،
وكادت تقضي على كل ما بنيناه من حضارة وبشرنا به من عدالة . لعله
كان من الخير لنا أن نحسب حساب الشعوب قبل حساب الملوك
والاستثمارات ، فذلك في علم الحساب أربح وأوفر - كما اكتشف
هذه المسألة الواضحة في زمنكم الأخير من أواخر القرن العشرين
جهاذة علم الاجتماع وبعض الساسة المتفهمين العالمين بيوطن الأمور -
ولكن من كان يتقلد زمام الحكم في دول الغرب لم يظن الى مثل هذه
العملية الحسائية البسيطة ، بل أغراهم الطمع ، وأعماهم الجشع ،
ودفعت بهم شهوة الحكم والعز والسلطان الى قمع كل حركة تحرير
أو عصيان بالحديد والنار تارة ، وبالأفيون وشراء الضمائر ، ولف
العمائم تارة أخرى !

نحن نعترف الآن بأخطائنا ، وتلك هي نعمة عندنا من نعم حكم
الأغلبية ، وحرية الرأي والصحافة . ولكنكم هل تعترفون أنتم بخطأ
واحد من أخطائكم ارتكبتموه والا فهذا عيب عندكم يا عرب ؟

يا لكم من مساكين !

لاذ قليلا بالصمت البارد ، ثم سألني على حين غرة :

- أنت نفسك أيها العربي هل تعرف ما تريد ؟

أجبتة بلا تردد : نعم أعرف ما أريد •

قال : وماذا تريد ؟

قلت : وردتني الحمراء الضائعة • اني الآن جاد في البحث عنها •

قهقه اللورد ذو العنقوان ضاحكاً وقال : الحمد لله ••• لقد عثرت على عربي يعرف ما يريد ••• أي " انك تجد " في البحث عن حبيبتك الضائعة وتسعى • حسناً جداً ••• اسمع ، انك تذكرني بحادث لا أنساه وقع لي في مصر وأنا حاكمها :

لقد دعيت ذات ليلة الى حفلة غناء في دار الاوبرا الملكية ، يرافقني ذو الحضرة الخديوية ، فجلسنا في المقصورة العلوية ، لنشنتف الآذان بالأغاني العربية ، فأطل علينا من على التخت ، مطرب مطربش متكرش ، يحتضن عوده ويرتعش ، وقبع خلفه عازفون ومطربون ، ينشدون على أنغام العيدان والدفوف والنايات • وابتدأ المطرب المحبوب بلحن لا نهاية له ولا حدود ، وهو يعني ويردد على طول ، زهاء ساعة كاملة وهم قعود : حبيبي راح فين ؟ حبيبي راح فين ؟ راح فين ؟ • ويردد من خلفه أفراد الجوقة ، نفس المعزوفة والنغمة ، وظل هكذا يكررويعيد ، والحضور يقابلونه بالعويل والصفير والتصفيق ، ويتماهلون طرباً ذات اليمين وذات الشمال ، وعندها شعرت بالضيق والملل والخرج ، فلم أستطع صبراً على هذا الهرج والمرج ، والنغم الشيطاني الواحد الرتيب ، يتخلله الآهات والتأوهات والإئين ، فسألت كبير الياوران الى جانبي : ماذا يردد ويكرر ويعيد هذا المعني البائس المسكين ؟

قال : انه يقول حبيبي راح فين ؟

قلت ألا ليذهب الى الجحيم هو وحببيه ••• اذهب وقل لهذا
المطرب الخامل أن يتحرك ويهب للبحث عن حببيه ••• فمن أين تأتيه
نحن بحببيه الضائع؟ عليه اللعنة انه لا يتحرك ولا يتحرك ، ويريد أن
يأتي الحبيب اليه طائعا مختارا ؟

وهكذا أراك أنت على خلاف ذلك المعني الكسلان واضرا به من
من أولي الشأن وغير الشأن ، فأجرك جادا في البحث عن حببيك أو
حببيتك ، وهذا هو الغريب في أمرك • والآن اغرب عني ، ودعني
لشأني ، فحببيتك يا بني ليست عندي • اذهب وفتش عنها ، فلعلها
أصبحت جارية أو سرية في أحد القصور الخديوية ، أو في دار أحد
العساكر الانكشارية •

وهممت بمغادرته على عجل ، ولكنه ناداني قبل الرحيل بلا خجل ،
وقال بمكر ودجل :

— هل ما يزال أهل الكنانة كما غادرتهم وهم على ما هم عليه من
استسلام واستكانة ؟

قلت : حاشا لله أن يكونوا كما كانوا • لقد أصبحوا اليوم
— بنعمة الله — لا يعرفون الاستسلام ، ولا تلين لهم قناة ، ولا يفتح
لعدوهم قنال ، ولا يركعون لمملوك أو خديو أو أحد من الخصيان كما
كانوا فيه في قديم الزمان ، كما انهم يرفضون تسلط أو غطرسة أي
كان ، سواء أكان من السلاطين أو الدكتاتوريين أو السادات •

وحشت الخطى مبتعدا عن هذا اللورد العرييد الدخيل ، فهل كان
يوسعي أن أقول أكثر مما قلت في اخوتنا أبناء وادي النيل ؟

x x x

على مقربة من المطلع شاهدت رجلاً بديناً يتأمل ويتطلع ، متجلبباً
برداء أسود ، يشد بطنه حبل أبيض من مسد ، وفي يده كتاب ، فتقدمت
إليه علكه يرشدني إلى من أهوى ، ومن من أجله أسعى وأشقى •

سألته : من تكون أيها الأب المحترم ؟

قال : أما عرفتنني ؟ أنا الأب لويس شيخو المارديني ، المؤرخ
الصحفي اليسوعي •

قلت : أنعم وأكرم بك من مؤرخ وكاتب وأديب ولغوي ضليع •
لقد طالعت لك في العاجلة العديد من المؤلفات والمقالات ، وكلم عسير
في العاجلة على الانسان المتلهف على المعرفة أن يطالع كل شيء مفيد ،
ففضلك على العربية لا ينسى ، وذكرك لن يمحي ، ، ولكن خبرني باسم
الأب والابن والروح القدس ، بم غفر لك ؟ قال : غفر لي لأنني عملت
ما في المستطاع ، لإحياء لغة العرب الأفتاح ، فلا تنس أني ابن ماردين
العربية ، من أحفاد بني تغلب وبكر ، تلك التي باعتهما فرنسا أم الكاثوليك
الحنون ، إلى الترك ، دون أن تأخذها رحمة بنا ، ودون أي اكتراث
بما يصل بيننا وبين الفرنسيين من وشائج الكشلكة والدين •

قلت مواسياً : لا تعجب لأمر تلك الدول العظمى أيها الأب المبجل ،
ان هممها هو مصالحها الاستعمارية ، لا حماية الطوائف الدينية ، أو
الدفاع عن قضاياها الوطنية المصيرية ، وحدودنا وحقوقنا الانسانية •
ألم تعلم أنهم قد باعوا بعد ماردين في كليكية ، الاسكندرون وانطاكية ،
بشمن بخس ، بل قل في سبيل لاشيء • نعم لقد باعوا لواء الاسكندرون ،
وإن الله وإننا إليه راجعون • ليس للسياسة باأبتي من دين ، ألم يتحالف

يوماً هتلر وستالين ؟ ثم لا تعجب اذا سمعت من أبناء الدنيا ان تحالفاً
قد تم بين اميركا والصين ضد الشيوعيين !!

أجابني الأب المحترم : لا تقاطعني ودعني أتابع حديثي • لقد
غفر لي رب الأرباب أنني تصديت في السالفة لتلك الزمرة الماسونية التي
لا هي بالمسيحية ولا المجوسية ، فضضحت أمرها على البرية ، بعد أن
دخلت فيها دخلة خفية !

سألته بلهفة : وكيف كان ذلك ؟

قال : أوهمتهم أنني منهم وفيهم ، فاطلعت على أسرارهم الخفية ،
في محافلهم السرية ، وهياكلهم السليمانية ، على الطريقة الجوزيتية • •
ثم أصدرت كتابي المشهور « السر المصون • في شيعة الفرمسون » •
وبه استعداد عليهم السلطان العثماني ، ليقضي على زمرةهم بلا رحمة
ولا تواني ، ولكن مشاريعي أحبطت ، وخططي أخفقت ، ذلك لأنه كان
لهم في بلدز بطانة كبيرة ممن أطلقوا على أنفسهم أحرار العرب ، وعلى
رأسهم العابد والجابري ، والصيادي وملحمة وشوكة والقوتلي وسواهم
كثيرون ، وجلهم الى تلك الزمرة ينتمون أو يؤيدون • وكان لهم أنصار
في الجيش والقيادة والباب العالي الهمايوني ، وحزب التقدم والترقي ،
فأدى بهم الطيش الى الإطاحة بسلطان بني عثمان ، ونفيه الى بلاد
البلقان ، فلجأت أحرص عليهم الفاتيكان ، ليكتب عليهم الحرمان ، بعد
أن غسلت يدي من فرنسا التي كان يحكمها جماعة غامبتا الكافر
العلماني الماسوني • • • ثم ألم يبلغك ما قالوه في رجال الدين من
شعر ونثر وأفانين ؟

قلت : كلا • أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ا

قال : اذن فاستمع الى ما نشرته في الصفحة الأربعين والأخرى
الخمسين مما قالوه فينا من هجر الكلام وفاحش القول • أجل استمع
الى هذه الآيات التي تهتز لها الأرض والسماوات ، ولا أحسب قائلها
الا ابراهيم اليازجي ، ذلك الزنديق الباغي :

الخير كل الخير في •• •• ••
•• •• •• •• •• ••
بل هم القوم الأبالس •• •• ••

الى آخر ما في هذا الشعر من هجاء في سادات القوم وأصحاب
الكرامات •

قلت : عليه اللعنة ••• الا أنه قد بلغني في الساخرة أنك كنت
منهم وفيهم ، وقد اتممك أنك بكتابك الذي سبق وأشرت اليه روجت
لدعوتهم وكنت سبياً في نشر تعاليمهم وأفكارهم وأفكهم كما تقول •

قال : نعم كنت منهم وفيهم ، ألم أقل لك أنني دخلت فيهم كالخفية
على الطريقة الجزويتية (١) ، لأتجسس عليهم ، وأكشف القناع عن
وجوههم الدنية • أما ما يقال بأنني بشرت بدعوتهم فهذا هراء مستهجن ،
فما أنا بالغرّ الأرعن •

واستطرد قائلًا وقد تملكه الغضب :

(١) كلمة « الخفية » كانت تطلق على البوليس السري للسلطان
عبد الحميد كما جاء في تاريخ حلب للشيخ كامل الغزي •

— أتدري أنهم كانوا يعلمون أبناءهم فلسفات « أفيروس » (أي ابن رشد) والمعري والريحاني ، ويشيرون مبادئ الهراطقة المخاريق ، كأمثال فولتير وجان جاك روسو وديدرو وروبسبير وسان جوست وداروين وغيرهم ممن حرمت الكنيسة الرومانية مطالعة كتبهم ومصنفاتهم ، أو نشر آرائهم وعلومهم وتعاليمهم الكاذبة .

والأنكى من هذا كله ، ان بعض شعرائهم وأدبائهم نادوا بعلمانية الدولة ، وما أدراك ما علمانية الدولة ، كقول أحدهم في تقليعة شعبية :

جمعيتنا غايتها نشر العلوم حتى تتمدن وتهذب العقول .

- مسلم يهودي نصراني كلها خرافات .
- نسائي بين العالم كل الطبقات .
- وتكون جمعيتنا جمعية كل الأمم .

والغريب المريب في أمرهم كذلك أنهم كانوا يطالبون بالمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات ، ويصرون على تعليم المرأة ودخولها ميادين العمل ، فانظريا رعاك الله أي دجل هذا الدجل .

قلت مستغربا : لقد حدث كل ذلك منهم في أواخر القرن التاسع عشر كما ذكرت أنت في مقالاتك ، ولكنهم انتصروا عليكم على ما يبدو ، وأصبحت تعاليمهم التي ذكرت في صلب ميثاق الأمم ، وشرعة حقوق الانسان ، ولم يعد أحد يرى فيها أي " ضرر أو بأس ، ولو كان من غلاة الجزويت ، أو دعاة التمييز العنصري بين الأجناس ، أو مختلف الطبقات بين الناس ، إلا أصحاب التزمت والشقاوة ، ودعاة الشر والعداوة .

قال : اذن هذا هو آخر الزمان !

وتركني وشأني ، ومضى يتلو في الكتاب ، وقد بدت على وجهه
علائم الاكتئاب •

× × ×

مضيت في الطريق ، وأنا أشعر بالألم والضيق ، مما أسمع من
سوالف الماضي السحيق ، إذ لا تزال ذكريات الزمن الغابر تجول في
مخيلتي ، ولا أستطيع طرحها من خاطري •

توقفت قليلا أمام خميلة ، خلف دار صغيرة جميلة ، تلف جدرانها
أغصان وفروع اللبلاب والياسمين ، وتحيط بها الزنابق والورود
والرياحين ، فرأيت رجلا قابعا على أريكة ، يتشاغل في تصليح ساعة
قديمة من طراز القرن الثامن عشر ، فعرفته من هوايته هذه على الفور ،
فاذا به الفيلسوف والأديب « فولتر » الحكيم ، فبادرته بالتحية ، فرد
بأحسن منها ، وابتسامته الساخرة لا تفارق شفثيه ، ونظراته الثاقبة
تشع من عينيه •

سألني : من أنت ؟

قلت : فلان بن فلان •

قال : واه ••• حسبتك صاحبي « زاديق » ، رفيق الطريق ،

فبينك وبينه شبه غريب فريد •

قلت : يا ليتني كنت مثل صاحبك « الصديق » ، فقد قضيت أنا

معه عبر ما خلفته لنا من آثار ، تدل على مدى حكمته ورجاحة عقله ، ساعات وساعات ، أقلب الفكر فيما جئت به على لسانه من مآثور الأقوال والعبر ، فقد كان « بطلك » لا يؤمن الا بحكم الضمير والعقل ، ولهذا أدخلك كثير من رجال الدين وعلى رأسهم قداسة البايوس في سجن الباستيل ، وحرموا على المؤمنين مطالعة كتبك ومقالاتك • ولكن ألا تخبرني بم غفر الله لك ، وقد ألصقت بك في السالفة تهمة المروق والهراطقة ؟

قال : غفر لي لأني قلت قولي المآثور ، الذي أصبح فيما بعد كالدستور ، لمختلف الأمم والشعوب ، الى يوم النشور ، فعلت به أمم وأهملته أمم • ألسنت انا القائل : « قد اختلف معك في الرأي ، ولكنني على استعداد لأن أدفع حياتي ثمناً لحقك في الدفاع عن رأيك » •

أليس هذا روح الدستور الذي ساد حكم الأغلبية في الغرب ، بعد كفاح دامٍ مرير ، فأصابت بعدئذ ذلك النجاح في مختلف المجالات الحضارية ، وتقدمت أشواطاً في مضمار العقلانية الانسانية ، ولو أنها لا تزال في حدود اقليمية تتنازعها الأهواء القومية ، والميول الرجعية والطرقات العنصرية ، والمصالح الامبريالية ، التي من شأنها الحيلولة بينها وبين التقاها على صعيد الأهمية العالمية الشمولية •

ثم لا تنسى أيها الغريب ، أنني أنا الذي أفنتت الرقابة الملكية — أي الرقابة الكنسية — بالسماح بتداول القرآن الكريم ، وترجمته الى اللغة الفرنسية ، فليس فيه ما يتنافى والفضائل المسيحية •

قلت : اذن هذا هو السر في اقتصار ارادة الشعوب في الأرض ،

وتوطيد دعائم حكم الأغلبية في الغرب ، فكان ذلك فاتحة عصر جديد ،
لا تحكم فيه الشعوب باسم ملك أو سلطان يتقمص العناية الإلهية ،
فلم تعد الملوك في كثير من أنحاء العالم ظل الله في الأرض ، وأن كل
ما عليها من زرع وضرع وما هب ودب ملك لهم دون منازع ، ولا
شريك لهم - في أعمال السلب والنهب - إلا أولياء العهد ، أو من يمتنون
اليهم بحسب ونسب ، أو صلة وسبب ♦♦♦

حقاً أيها الفيلسوف الحكيم ، لقد جئت بالرأي السديد ، فجعلت
من حكم الأغلبية ، خير تجربة للشعوب الغربية ، والأقوام الاسكندنافية ،
حيث يستطيع كل امرئ منهم أن يصرح برأيه ، ويختار من يشاء لينوب
عنه في الحكم ، وينتقد من لا يرى فيه الكفاءة ، فلا يلام ولا يسجن
ولا يعذب ♦ وياليتهم لم يحتكروا حكمتك لأنفسهم وحدهم ، على
عكس ما رأيناه في الدول التي يسودها حكم الاوتوقراطية والبيروقراطية
والمونوبولية ، اذ كنا نشاهد الرؤوس تتطاير ، والثورات تقيم أعراساً
وسط حمامات الدم ، وتتابع أعمال القمع والسحق والمحق ، وكم من
أهرامات من الجماجم شيدت ، وكم من الطوائف دفنت ، وكم من
الشعوب سحققت وأبيدت ♦ ومن العجيب ان أول من يذهب ضحية هذه
النوعيات من الحكومات ، رؤوسها المتعالية ، من ملوك وسلالين
وشاهات ومارشالات ، إذ تنفجر في وجوههم الطاقات كالحمم من فوهة
بركان ، فنقوم للشورات الدامية أعراس وأية أعراس في كل زمان ومكان !

قال : صدقت يا من يشبه « صديقي » هذا ما توقعته وأندرت
به ♦♦♦♦ وهذا ما كان ♦

— هل تعلم أنه بعد رحيلك من الدار الساخرة ، أيها الفيلسوف
الساخر ، الذي سخر من جهالة أهلها كثيراً كثيراً ، قد أقاموا لك التماثيل
في الشوارع والحدائق ، ووضع كثير من الناس تماثلك في بيوتهم رمزاً
للحكمة والمحبة ، وتخليداً لذكراك العطرة • ؟

قال بتواضع الحكماء : ما أتيت أنا يا صاحبي بشيء جديد ، انما
عبرت عن تطلعات انسان يولد حراً ، ويود أن يظل حراً ، وتلك سبينة
طبيعية — اذ كل ما يجري بالكون يجري بحرية — وكل كبت أو تضيق
على الحريات أمر مناقض لنواميس الحياة ، وخلق الكائنات •

ثم عاد وانهمك في تصليح الساعة التي كانت بين يديه ، فسألته :
— هل للزمن عندك من أهمية ، وأنت في هذه الدار الأبدية ، حتى
تعود الى ضبط الساعة كأنك على مواعيد لا غنى عنها ولا محيد ؟

— الزمان •••• آه من الزمان • نعم ان للساعة فائدتها حتى في
جنات الخلد ، لأن التاريخ يمشي الى الأمام كالساعة ، ولا يعود الى
الوراء أبداً • وكم حاولت في الفانية أن أبصر أولئك الأغبياء بأن التاريخ
لا يعيد نفسه ، وان عقارب الساعة لا تدور الى الوراء ، ولا تعود
بالعكس ، فلا تسلني أكثر من ذلك عن الزمن ، وان شئت مزيداً من
الاطلاع على مثل هذا الموضوع الخطير ، فما عليك الا بالرجوع الى
العلامة اينشتاين العظيم ، فعنده من علوم الرياضيات وأبعاد الأزمان
الخبر اليقين •

ثم قال مداعباً كعادته :

— الا قل لي بربك ماذا قال لك عني ذلك « البندكتان » البدين ؟
لقد رأيتهما معا تتحدثان حديث الأخوان •

أجبتته وأنا أحاول أن أصرف عني الوشاية والنميمة ، فليس ذلك
من شيم الكرام ذوي النوايا السليمة :

— ما قال فيك الا خيراً • وقد طلب لك الصفح والغفران من لدن
الرحيم المتعال •

— لا ••• هذا غير معقول ، فهم لن يغفروا لي ما قلت فيهم كلمات
حق ••• لقد جبلوا على الحقد والبغض ، وياليتهم يعلمون أن الفضل
في بقائهم على قيد الوجود يعود اليّ بالدرجة الأولى ، فلولا دعوتي
الصادقة الى حرية الرأي والتعبير ، لاندثروا وقضى عليهم حكم الفرد ،
أو اجتاحتهم ثورات الشعوب فلم يعد لهم من ذكر ولا أثر •

ثم جرنا الحديث — والحديث ذو شجون كما يقولون — الى
سيرته بالذات وما عاياه على أيدي المتزمتين من ذوي العقول المتحجرة ،
فحدثني باقتضاب عن أطرف ما حدث له مع أولئك « الفرازة » من
القساة البرابرة ، واذا تحدث « فولتير » سحر الناس ببيانه وفصاحته ،
وقوة حجته وبرهانه ، وواسع علمه واطلاعه ، فقال : انه لجأ الى
سويسرة بعد أن ضاق ذرعاً بمن يطاردونه من تلك الزمرة ، فأقام فيها
زهناً ١٥ عاماً في قرية « فرناي » ، وهي قرية صغيرة على الحدود ،
كانت موئلاً للعديد من الأحرار المضطهدين الفارين من بغي الملوك
المستبدين في بعض البلدان الاوربية المجاورة ، وقد سميت هذه القرية
بحق (قرية الفلاسفة) • وكان ذلك بين عامي ١٧٦١ — ١٧٧٨ •

واستطرد قائلاً : وفيها ألفت عشرات الكتب ، ودونت مئات الرسائل ، وبعثت ببعضها الى ملوك أذكى وأدباء وفلاسفة ونجباء ، ومن جملة من كان يرأسني فريدريك الكبير ، امبراطور بروسيا ، وكاترين ، امبراطورة روسيا ، ومن هذه القرية بالذات انطلق الجدل الفلسفي في أوروبا في القرن الثامن عشر . كانت رقابة السلطنة الكنسية والحكومية شديدة على كل ما أكتب وأنشر ، فكنت ألجأ الى توقيع كتاباتي بأسماء مستعارة ، حتى لا تمنعها الرقابة ، اذ متى شاهدت توقيعى على مقال ، دب فيها الهلع ، ومزقته شر ممزق . كان مجرد اسم « فولتير » يبعث في نفوسهم الرعب ، لأنه يمثل في نظرهم كلمة يرتجفون فرقا لذكرها . انها « الحرية » !

كنت أمقت الحرب ، الا اني وجدت فقط في حرب «سبارتاكوس» محرر العبيد والمضطهدين في العهد الروماني ، الحرب الوحيدة العادلة ! صمت قليلا يفكر ، ثم قال : أتدري ان لخصومي من بعض الاكليروس وسواهم كانوا يطلقون علي لقب « الوحش الكاسر » ؟ قلت : أجل أعلم ذلك ، فقد قال عنك أحدهم عندما رأى تمثالك ينصب في « بيغال » ان هذا ليس بتمثال لفولتير . انه تمثال وحش كاسر . انه الوحش بعينه !

— نعم . . . لقد كنت السبب في تقويض دعائم سيطرتهم ونفوذهم ، فليس غريباً أن يطلقوا علي مثل هذه النعوت . . . وحش . . . زنديق . . . كافر . . . الخ ، وأخيراً لما استتب لأحد أصدقائي من الوزراء في البلاط ، ولا تعجب أن يكون لي أصدقاء بين الصفوة

الحاكمة ورجال الكنيسة أنفسهم ، لأن قول الحق يؤثر في الناس ، في بعض الأحيان ، دون تمييز بين طبقاتهم وطوائفهم ، أقول لما استتب الأمر لهذا الوزير الصديق ، استدعاني الى باريس ، فعدت اليها ، ولكني وأنا أجتاز الحدود تصدى لي رجال الخضر ، وسألني أحدهم عما اذا كنت أحمل معي من ممنوعات ومهربات • فأجبتة على الفور : (ان الشيء الوحيد الممنوع من دخول البلاد هو أنا بالذات ! •••)

وسكت فولتير ، وراح يحرق في الآفاق البعيدة ، لهذه الجنات الضالدة •

وخطر لي أن أغير مجرى الحديث الى ما رافق حياة هذا المفكر الكبير من أسرار ، لا يعرفها الا القلائل من المؤرخين ، فقلت له مداعباً :

— لقد عثرت بين كتب وأوراق منسية على (سرك الدفين في مصرع أدرين) الممثلة الساحرة الجمال، التي قضت نجبتها في ظروف غامضة • وقد ذكر بعض المؤرخين انك افتتنت بحسنها وجمالها وفنها وظرفها وأدبها ، فقلت فيها شعراً لم يقله أحد من قبلك ولا من بعدك •• فهل هذا صحيح ؟ وهل هذا يليق بفيلسوف حكيم كبير ؟

قال وقد بدت مسحة من الأسى على وجهه الحزين :

— نعم هذا صحيح ••• فقد أشفقت على « أدرين » الفاتنة وأحببتها عن يقين • ثم من حرم الحب على فيلسوف أو شاعر أو أديب ••• من منا لا يعشق الجمال ؟ اللهم الا أولئك الغلاظ الأكباد ، أو المرضى في أبدانهم وعقولهم من شر العباد ؟ • لقد حزنت على ما أصابها من بؤس وشقاء على أيدي المغرمين بها من العشاق ، من أمراء

ودوقة ومراكيذ ، وأغنياء حتى من أصحاب العكاكيز • لقد تناحروا عليها
تناحر الذئاب الكواسر ، فأدى تناحرهم هذا بها الى أن لقيت مصرعها
في ظرف غامض ، ولكن الكنيسة أبت دفنها حسب الطقوس والمراسم ،
فألقت بجثمانها خارج المقابر ، فنظرت الى فعلتهم الشنعاء ، بعين تقيض
باللوعة والرثاء ، وأبتها في مقاطع من الشعر أذكر منها الآن :

» يا لمأساة الفن وأهله •

أفات وزفرات وحسرات •

على انهيار هيكل الفن المقدس •

ترى ما سوف يقوله الجيل الصاعد ؟

إذا أدرك ما اقترفه غلاظ الأكباد •

بحق الفن وهيكل الحسن والجمال •

أولئك الذين أبوا مواراة جثمان فنان •

كان اليونان في قديم الزمان •

يقيمون له النصب والتماثيل والمخاريب •

• • • •

إذا عاش فنان بيننا تهافت الناس عليه كالذئاب •

وهفت اليه قلوب العاشقين من كل باب •

فاذا رحل عنا أصبح مجرماً تخشاه الذئاب •

لا يستحق التشييع الى مثواه الأخير •

يرقد - كما يرقد الآخرون - في سلام القبور • «

أثار في هذا الشعر ، كوامن الحزن ، على فراق وردتي الحمراء
التي قد تكون لاقت نفس المصير ، الذي لقيته « أدرين » ، حبيبة
فولتير الحكيم •

ولحظ فولتير ما ارتسم على وجهي من آيات اللوعة والجوى ،
فسألني : هل أحببت يوماً أنت أيها « الصديق » ؟

- نعم •• أحببت « وردتي » الحمراء ، أكثر مما أحببت أنت
« أدرين » التي سميت بالزنبقة الزرقاء ، أحببتها حباً يفوق حبك الذي
ينطوي على الشفقة والرثاء ، حباً فيه ثورة هوجاء ، وفيه تطلع وثناء ،
واني أبحث عنها الآن في كل مكان من هذه الجنان ، فلم أعثر لها على
طيف خيال • فهل مرت بك واحدة بمثل جمالها وفتنتها وبهائها ؟

أجابني نقياً ، وهز رأسه أسفا • وقال :

- أفا أفنسى عن « زنبقة » وأنت تجري وراء « وردة » • وكلانا
في الهوى سواء !

x x x

قال رضوان : والله لآخذنك الى مدائن في الجنان ، لم يطرقها من

قبلك انس ولا جان ، ولسوف ترى فيها من العجائب ما يبهر البصر ،
ويسلب منك اللبّ والفكر •

قلت : فديتك فافعل !

قبل أن يرفرف بجناحيه ويطير ، قال اضغط على زر في رداك
القصير ، فمثلي تصير • وحلقت خلفه أتبعه في الأجواء ، ممتعاً الطرف
بما في ذلك الفضاء ، من عجائب الأكوان السماوية ، والأجرام النورانية ،
والأجسام الشعشعائية • وبانت من تحتنا القباب الزبرجدية ، وتلاّات
من بعيد المنائر الذهبية ، الى ان اقتربنا من قصر منيف ، فوق رابية
خضراء ، يحيط بها سور ذو أبراج ، فقال رضوان ان باب هذا القصر
مرصود ، وان داخله مفقود ، ولكن لا بأس عليك وأنت في حمايتي ،
وتحت جناحي وكنفي ، من أن تلجه معي • وولجنا القصر المسحور ،
وشهدنا الأبواب تفتح أمامنا بشكل غير منظور ، كأنها على الكهرباء
تدور • وعبرنا القنطرة الموشاة بالذهب والفضة ، الى صالة مزخرفة ،
ذات عمد من رخام ، لا مثيل لها في ايوان كسرى انوشروان ، أو مساجد
قرطبة وكنائس الفاتيكان •

ناديت بأعلى صوتي : أين أنت يا وردتي ؟

فكان رجع للصدى من بعيد ، ووقع للصوت من مكان سحيق ،
يبد أنه لا من سائل أو مجيب •

وقفت برهة كالمشده ، أحقد فيما حولي من صور ورسوم
وتماثيل ، لا تضاهيها في روعتها واتقانها وابداعها آثار دافنشي أو انجلو

أو رفائيل • وفيما أنا على هذه الحال ، سمعت وقع خلخال ، فاذا بحورية ذات هبة وجلال ، تحيط بوجهها الوسيم الأنوار المحمدية ، وهي تهبط علينا من أعلى السلالم المرمرية ، فهمس بأذني رضوان : ألا تغض الطرف أيها الانسان ، فأنت في حضرة سكيئة بنت الحسين ، المرضي عنها في الدارين • انها تسكن هذا القصر بعد أن ضرب عليها الحجاب ، وأوصد من دونها كل باب ، وقد انقطعت الى العبادة والصلاة ، وسلكت بذلك جادة الصواب ، وقطعت لها كل صلة بأهل الفن والغناء والشعر والآداب ، بعد أن وشى بها السعاة لدى جدها الأعظم ، فكظم غيظه منها ما كظم ، وأمر بحبسها في هذا القصر المسحور ، حتى لا ترى أحداً من أمثال ابن سريج أو ابن الخيتبور (١) ولا تفتح أبوابها في وجه أحد من هؤلاء الناس ، حتى لا يداخلها الوسواس الخناس ، فاسألها ما تريد ، ولا تطل السؤال والترديد •

قالت السيدة سكيئة بصوت رخيم :

— من أنت ؟

فتلعثمت ولم أجبها على الفور ، ولكن خطر على بالي في التو ، ما كان ينشدها ابن سريج وطرِب له أشد الطرب ، من شعر المخزومي ابن أبي ربيعة ، فقلت متجاهلاً : أنا ؟ • ثم أنشدتها :

(١) اسم لجني عند العرب • يقال انه ملهم أهل الغناء والطرب • وقد ردد المعري ذكره في أكثر من مناسبة •

قالت من أنت ، على ذكر فقلت لها

أنا الذي ساقني للحين مقدار !

نظرت اليّ سكيّنة بدهشة بالغة ، وتبسمت عن أسنان كاللؤلؤ
ناصعة ، وقالت :

— ويحك يا ابن الفانية ، لقد ضربت على وتر حساس في قلبي ،
وعدت بي الى ذكر مجلس من مجالس أنسي ، وعهد كان لي ببكة ،
لا أجد مثله هنا في الجنة ، أو في أية أيكة .

ثم أطرقت قليلا وقالت : قل ما حاجتك اليّ ؟

قلت : أرجو — عليك ألف تحية وسلام — يا سيّدة العرب
والاسلام ، أن تأخذي بناصري ، وتشدي أزري ، وتبشيني أين
« وردتي » وضالتي التي حسبها تعيش جارية في قصرك ، وتنعم بعطفك
وحنانك ، فأنا غريب مثلك ، وهل يسعد الغريب غير الغريب ، ألا
تذكرين قول الشاعر ، وأنت أرق نساء العرب مشاعر :

أسعديني على الزمان « عريب »

انما يسعد الغريب الغريبا !

أجابتنني ساخرة : وهل يسعد « الأسير » الأسير ، ألا فاعلم
يا ولدي ، ان وردتك ليست عندي ، فقد تكون الآن هائمة بين النجوم ،
تتمتع بالحرية والنور ، وهي — على ما ذكرت — تأبى أن تصبح جارية
أسيرة في القصور . حتى ان « عزة » خديتني وجليستني ، وأنيسة

وحدتي ، أبت أن تسكن معي ، وراحت منطلقة حرة تعني في رياض
الجنة •

ثم تمتمت بكلمات غير مفهومة ، فشعرت كأنها قد دخلت في حال
مريية ، فلمزني رضوان أن تغادر هذا المكان ، والا وقع ما ليس
في الحساب !

رددت وأنا منطلق مع ملاكي نخارج القصر قول الصمّة :

ولما رأيت البشر أعرض دوننا

وحانت بنات الشوق^(١) ، يحنن نزعاً

قاطعني رضوان وأنا أتمتم بهذا الشعر :

— أتقيض عينك من الدمع على سكينه أم على « وردة » ؟

قلت : على كليهما معاً !

x x x

(١) بنات الشوق : الدموع .

في جحور الهامشية

« ان الحد بين الجريمة لكونها جريمة ،
وبين الجريمة الناشئة عن احتجاج بلا واعي ،
انما هو حد وهمي ، ان لم نقل انه حد
مصطنع . »

جان بيشلر

قادني رضوان الى متاهات بعيدة ، وأدخني في سراديب مظلمة
مديدة ، وكهوف عفنة سقيمة ، وجحور كالاسطبلات ، ذكرتني
« بالسلولات » ، في سجون المزة قبل عهد غير بعيد ، والليمان في
الصعيد ، وغيرها من المعتقلات ، في أقطار العروبة والاسلام على مختلف
الجهات ، فسمعت هنا وهناك ، آهات وأنات ، ورأيت أناساً كالأشباح
وما هم بأشباح ، عيونهم غائرة ، وأفواههم فاغرة ، وكان بعضهم ينظر
اليّ ببلاهة ، وبعضهم الآخر يرمقني بشراهة ، كأني أوزة أو دجاجة .
ولا ريب أن الجوع قد بلغ منهم كل مبلغ ، حتى خيل اليهم أن كل شيء
يمكن أن يتلع أو يمضغ . ولقد عرفت في الفانية أمثال هؤلاء الناس
- اذا عضه الجوع بنابه - حسب البقرة فرخة ، ووطن بصاحبه الجائع

مثله بطة أو خروفا أو عجلا أو عنزة ، فيسيل لعابه ويدهم صاحبه ، ويحاول دق لحمه بعظامه والتهامه ، ولقد عجبت أشد العجب أن يكون في الباقية ، مثل هذه الزمرة البالية ، التي سبق لشارلي شابلن الممثل الفيلسوف الهزلي أن صورها في فيلم مضحك ساخر ، سماه (البحث عن الذهب في العالم الفاجر) .

لحظ رضوان ما ساورني من ريب وعجب ، فقال : لا تأخذك الدهشة من أمر هؤلاء المساكين ، فهم من أهل الهامش بين النعيم والجحيم ، فلا هم من أصحاب المشامة ولا أصحاب الميمنة ، بل جلّهم من ذوي الأمراض العقلية ، من مختلف المستويات الذهنية ، بنسب متقلبة متفاوتة ، بين بلاهة وعبقرية ، فمنهم من النساك والمرابطين وبعض أهل الصوفية ، والمشردين التائهين ، والهيبيين العدميين ، والفوضويين الضائعين ، والمجرمين المحترفين وغير المحترفين . . .

قلت : ربما كنت مخطئا في تقديرهم ، فلعلمهم من المساجين ؟

قال : لا سجون عندنا ولا معتقلات ، ولا أقبية ولا زنانات ، إنما تصنيف للزمر والجماعات ، ترك لها العزيز الحكيم حق الاختيار ، وهي التي اختارت هذا المصير ، دون اكراه أو تهديد أو وعيد .

قلت : إذن فلعلمهم من المجانين أو المنتحرين .

قال : والله لا أدري نوعيتهم وحقيقتهم عن يقين يا أمين !

x x x

أردت الوقوف على كنه ما يؤمن به بعض هؤلاء الهامشيين ، من مذاهب ودعوات وايدولوجيات ، علّني أجد بينهم بعض العزاء ، عما أفتقده وأنا في حالة الضياع ، فسألت أحدهم - وكان من الفوضويين العدميين - دب السقام الى جسمه عضوا فعضوا : ما الذي حدا بك الى اللقاء قبلة على سيارة أحد العظماء ، فقتلت العديد من الأبرياء - من شيوخ وأطفال ونساء - وأنت تزعم أنك من أنصار الحرية والسلام ، والمدافعين عن الكرامة وحقوق الانسان ، كما ورد ذلك على لسان معلميك من فلاسفة الفوضوية ودعاة العدمية ؟!

أطرق وفكر طويلا ثم رفع رأسه وقال بخيلاء : لا يدفع الشر الاّ بالشر ، ولا يدفع الشر بالخير ، فكان لا بد لنا - لكي يعم الخير جميع الناس - أن ندفع الشر بالشر ، وأن نقتل ونقتل .. وهكذا كان سييلنا الى الخلاص .

قلت : يا لها من فلسفة عجيبة ... ولهذا لم تقم لكم قائمة في الفانية ، فكافحكم الناس قاطبة ، حتى دعاة الاشتراكية والشيوعية (١) .

سكت الهامشي الفوضوي ، وأطرق يفكر ، وأظنه لا يزال يفكر !

انها معضلة !

ثم انتقلت الى هامشي آخر ، يدعي النسك والقداسة ، ويزعم ان الله أوحى اليه بتغيير وجه العالم . فسألته : ما الذي دفع بك الى تحريض الفرنجة على شن حرب صليبية ، ذهب ضحيتها الملايين من

(١) انظر . الظواهر الثورية - جان بيشلر - ترجمة: بشير فنصه .

الأنفس البشرية ، فدمرت المدن والقرى ، وأتلفت الزرع والضرع ،
بما لا يرضى عنه السيد المسيح ابن الرب • ؟

قال : تلك هي ارادة ربي ، لقد أمرني أن أحمل الصليب على
ظهري لأطهر بيت المقدس من الرجس وحدي •

— وهل استعدت بيت المقدس بإذن الرب ؟

— لا ••• لقد استعاده من أتى بعدي بمئات السنين •

— ومن استعاده والحمد لله رب العالمين ؟

— الذين صلبوا المسيح •

تركته وشأنه غارقا في لجة من تفكيره !

x x x

لفت نظري في زاوية السرداب ، فقير من الهندوس يجلس القرفصاء
على خشبة مغروسة بالمسامير • فقلت له : لمَ تفرض على نفسك هذا
العذاب ؟ هل ثمة ما ترجوه من أجر وثواب ؟

أجاب بصوت خافت وهو يلتقط الأنفاس :

— اني أقتص من نفسي بنفسي ، وتلك هي شريعتي ومذهبي ،
ليرضى عني براهمة ، ربي ورب الأرباب •

— وهل رضي عنك رب الأرباب ؟

— لا لن يرضى عني حتى أفارق الحياة !

تركته سادراً في وهمه ، والذباب ينهش من لحمه ، ويمتنص من
دمه ، ويشرب من عينه !

x x x

لقيني بعد لحظة شاب شاحب هزيل ، ذو شعر مسدل طويل ،
ولحيته كثة وسخة ، يمسك بقبضته ، وخلفه صبية حليقة الرأس قدرة ،
تقطر من عينيها دمعة إثر دمعة ، وترضع طفلاً أعرج من تدي قد
تهدل ، فلا يجد الطفل المسكين ما يمتص منه ويرضع ، فيجأ بالبكاء
ويصرخ •

سألتهما : ما شأنكما هنا وأنتما في ريعان الصبا والشباب ؟

قال الفتى : أنا وحببتي الهية ، غدونا من الهامشية ، لا نؤمن
بخير أو شر ، ولا نفع أو ضر ، ولا بالهة ولا فلاسفة ... فكل ما في
الكون سائر الى العدم ، ونحن معه معدمون ، فعلام الكد والعمل ،
فليس عندنا أحلى من الكسل ، وولوج متاهات العدم ، بلا أسف
ولا ندم •

قلت : ولو أكلتم من فتات الموائد وفضلات المزابل ؟

قالا بصوت واحد : نعم !

قلت : ويلكم تقولون أنكم لا تؤمنون بفلسفة وتنفلسفون ...
لماذا لا تقولون صراحة انكم شحاذون !

عجبت وأيم الحق من بشر هذا شأنهم ، لا هم بالمرضى ولا

العجزة ولا المشوهين ، يموت فيهم كل حس وضمير ، ويختارون
لأنفسهم هذا المصير ، ويقتاتون بالأقذار والمزابل كالصراصير !

x x x

غادرتها الى جحر آخر ، رأيت فيه شيخاً مديد القامة ، ذا لحية
بيضاء ، شاردا البصر ، كأنه يتطلع الى شيء ما ولا يدري ما الخبر •
يلبس المرقعات من الصوف بلا أكمام ، ويسبح باسم الواحد المنان •

سألته : وأنت من تكون ؟

قال : أنا فلان بن فلان ، امام الصوفية في فارس وخراسان ، همي
الوحيد ، التوحيد والتسييح والتصعيد !

قلت : أعلم أن أهل الصوفية من عشاق رب النعيم ، وهم من
يصنفون أنفسهم بأنهم من أتباع الشرع •

قال : تلك طائفة منا ، أما نحن فمن عشاق رب الجحيم والنعيم ،
وقلوبنا لا تفرغ من ذكر الله ، ولنا في ذلك مراتب يعلو بعضها على بعض •

قلت : وما تلك المراتب ؟

قال : انها ترقى الى درجة يعجز عنها النطق ، فمن الوجد الى
الحلول ، فالتجلي والظهور ، فالإتحاد والخلود !

قلت : الاتحاد مع مَنْ والخلود أين ؟

قال : الاتحاد بالذات الإلهية • والخلود ••• الخلود لست
أدري أين ؟

قلت : وهل الاتحاد بالذات الإلهية من المستطاع ؟

قال : نعم انه لأمر ميسور على من تفتحت عيناه على النور • ألم
تقرأ الآية الكريمة « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » • وكذلك
قول القديس بولص الرسول في الحلول : « في الله نحيا • فيه تتحرك •
فيه نكون ! »

قلت : ولكن المفسرين اختلفوا في تفسير الآية الكريمة التي ذكرت ،
فعلها رمز لعبادة ، لا احتكاك بمادة ، وكذلك اختلف أهل اللاهوت
في قول بولص الرسول ، فيما يرمي اليه من وجهة النظر الروحية •
ومهما يكن من أمركم ، فلم اخترتم هذا الجحر المظلم وأنتم
تشدون أعلى عليين ؟

قال متذمراً : لقد حال الشفيح الأكرم ، بيننا وبين التجلي الأعظم ،
فأحالنا الى هذا السرداب المظلم ، وقال لنا : « عمل يوم خير من عبادة
ألف شهر » • وما شابه ذلك من حديث كقوله أيضا : « عدل ساعة
خير من عبادة ستين سنة » •

قلت : والله لقد قال فيكم كلمة حق • فما أذت الا معتوه !
نظر اليّ والشرر يتطاير من عينيه وقال : اما انك لمفتون •••
أتقول أنني معتوه ••• أنا معتوه ••• أنا الذي كانت الناس تقبل يديه ،
وتشرب من ماء يفيض من غسيل رجله ؟ !
وفقد رشده وصوابه ، وحاول أن يضربني بعكازه •

ناديت رضوان : أرأيت وسمعت ؟

أجابني ساخراً من قصر نظري : والله لا يتحدث الى معنوه الا
معنوه !

x x x

هممت بمغادرة ذلك السرداب القاتم ، لأعود فأبصر الأنوار ،
وأستمع الى تغريد الأطيوار ، ، وأتنسم عبير الأزهار ، الا أني رأيت
رجلين يتوكان على بعضهما بعضاً ، ويترنحان ويتمايلان ، فقلت لهما :

— من أنتما وماذا تفعلان ؟

قال أحدهما وكان أكبرهما سنّاً من الأول : أنا الشاعر « فرلين » ،
وهذا « رَمبو » صاحبي الشاعر الرقيق الحنون ، الفاتن المفتون •

نظرت الى صاحبه « رَمبو » فلاح لي مما حفظته الذاكرة من
رسمه انه هو بعينه شاعر السحر والشباب ، فلا تزال على وجهه
الشاحب مسحة من جمال ، وتذكرت ما كان بين هذين الشعارين من
محبة ووفاق ، وكيف أدى الأمر بهما في النهاية الى أن أطلق أحدهما
— وهو فرلين — على الآخر الرصاص !

قلت : ألا تباً لكما • أتدفنان نفسيكما في هذه البئر المظلمة ، وقد
كنتما من أرق شعراء باريس ، ومنية كل أنيس وجليس ، ألم تشبعا من
علب الليل ، ومواخيرها ودخانها وغفنها ؟ أتذكر يا فرلين قولك بعد أن
أطلقت النار على صاحبك ، مستغفراً ربك :

« إلهي لقد جرحتنني بالحب •

ولا التثام لجراح الرب •

ألا دعني يا ربي

• أغرق في خمرك الإلهية •

• • •

• على مائدتك السماوية •

• لقد أحل سفك دمي •

• وآن لي أن أعترف بإثمي •

فاسفك يا ربي دمي

الذي لن يهدره أحد سواك !

صدرت عن فرلين زفرات وحسرات ، ولكنه قال : هراء •• في

هراء ••• أنا لم أقل مثل هذا الشعر في الأولى •

قلت : ولكنه مكتوب في ديوانك الكامل •

أجاب متأففاً متذمراً : لقد نسيت كل شيء ••• ان عزائي هو

النسيان • وتلفت الى رمبو فاذا به ينظر اليه كالمخبول •

سألت « رمبو » : أحقاً انك نسيت شعرك كذلك بعد أن عدت

من الحبشة ، وأصبحت تاجراً لا يفقه شيئاً سوى البيع والشراء ، وقد

نبذت الشعر والشعراء ، وان قريحتك قد صدت ، وعبقريتك قد

انطفأت ؟

قال ذاهلاً : لا أعلم !

قلت : ألسنت أنت القائل في الخلود :

« لا تسلني ما الخلود •

لا تسلني عن سر الوجود •

ماذا لو انحسرت البحار

ونضبت الينابيع ، وجفت الأنهار

وانطفأت الشمس وساد الظلام ؟

• • •

أيتها النفس المعذبة •

ما لك وللوعود الكاذبة ؟

ليس ثمة من ليل بهيم •

ولا نهار متقد كالجحيم •

• • •

ستنتطق يا أخي حراً الى الأبد •

متسامياً فوق مجتمع مضطهد •

محلقةً ولا تدري أين المصير ؟

لا أمل لك ولا نصير • «

قال رمبو : لست أدري •

وعدت الى فرلين أسأله أن يوضح لي زعمه - في شعره - أنه
أمسى ذات ليلة كليم الرب كموسى • اذ قال يناجي الذات الإلهية :

« قال لي الرب :

عليك بالحب ثم الحب (١)

• فخفق القلب اليك وهفا •

• وارتعشت الأوصال •

• وسالت الدموع •

• ونزفت من جراحي الدماء •

• فقلت : يا مولاي •

• لقد علمت ما بان من جهري ومن علي •

• وما خفي من سري ووجدني وأمي •

• بحثاً عنك وأنا لا أعرث عليك •

• ألا فارحم زلتي •

• فأنت المحب وأنت الحبيب •

• إن شوقي يتصاعد اليك كاللهيب • «

(١) لقد ورد فيما بعد على لسان آرغون شاعر فرنسا المجيد هذا

المقطع عدة مرات ، وكان يردده أمام تلاميذه ناصحاً لهم الاخذ به .

قال فرلين : لا أذكر شيئاً مما ذكرت !

وعيس واكفهر •

وهنا سمعت رضوان يهمس في أذنه : ألا يغنيك الولدان
المخلدون ، عن صاحبك « رمبو » هذا الشاعر المفتون ، اذا خرجت من
هذه الجحور ، وأبصرت النور ؟

قال فرلين : لا •• لا غنى لي عن رفيق الصبا والشباب • هات
يا رمبو الكاس والطاس ، ولننس كل الناس ••• كل الناس !

x x x

بينما كنت منهمكاً على هذه الحال مع هذين الشاعرين غربيي
الأطوار ، انضم الينا على حين غرة ، رجل شاحب الوجه ، سقيم عليل ،
فعرفته على التو ، فاذا أنا أمام الشاعر « الدندوني » ، بودلير صريع
العواني ، أو كما سماه أهل عصره ، بأنه شاعر القدود والنهود
والبطون ، أو كما نعتة آخرون ^(١) ، بأنه الشاعر المجنون الملعون ،
مؤلف ديوان (أزهار الشر) الذي ضرب به المثل وقتئذ على أنه من
أدب المجون ، أو شعر العشق والفسق والفجور ، ، بينما قال نقاد
آخرون ، انه أدب واقعي حديث ، لم يكتب مثله شاعر أو أديب •

(١) سمي بالدندوني : DINDON - اي الديك الرومي ، وأطلقت
هذه التسمية في القرن التاسع عشر على مدرسة الشعراء الترجسيين
المتأثرين جداً في هندامهم ، المزهوين بأنفسهم •

تأملت هذا الشاعر قليلاً ، فاذا به جاحظ العينين ، مرتعش
اليدين ، دقيق العنق ، محدودب الظهر •

سألته : أحقاً انك كنت تعاني من عقدة أوديب ، كما حلل فيما
بعد شخصيتك أحد السيكلوجيين ؟ ولهذا جاء شعرك كالخلاص
والتفريغ ، مما كان يعاينه وجدانك المكتوم ، من تقريع وتأنيب • أو أنك
كنت تعاني من أمراض نفسية أخرى كالسادية والمازوكية ، وقد اتخذ
بعض النقاد المتأخرين من قولك :

« أنا الجرح والسكين •

أنا الضحية والجلاد !

أنا الصفحة والخذ • »

أقول اتخذوا من قولك هذا دليلاً على ما كنت تعانيه أيضاً من
السادية والمازوكية ؟

قال بودلير : لم أسمع في عهدي بمثل هذه العقدة وهذه التعابير
والمصطلحات • قلت إني أنطق الشعر فيما يشبه الغيوبة ، فليحلل
شعري من يشاء وكيف شاء •

قلت : ذكروا كذلك انك كنت تعاني من مأساة موت والدك
وأنت طفل صغير ، فغدوت كاليتيم لا أمل له ولا نصير ، الا في أم رؤوم
حنون ، فلما تزوجت أمك من ضابط كبير أحبته من دونك وتركتك
لقدرك ، فنشأت تلك النشأة الشاذة ، وشعرت باللوعة والاثم ، ثم ألسنت
أنت القائل في أمك :

« لما يبصر شاعر النور في هذه الدنيا •

بقدره خالق الأكوان •

الذي هو على كل شيء قدير •

وتكون أمه غارقة في المعصية والكفران •

يهدد الشاعر بقبضته السماء •

يومئذ لا يجد عند ربه إلا الغفران ! »

قال : نعم قلت مثل هذا الهذيان ، فهل هذا يعني عند النقاد عقدة « أوديب » أو سادية أو مازوكية وسوى ذلك من لغو الحديث • ألا فاستمع الى قصتي بايجاز ، تدرك سبب معاناتي ولوعتي بلا عقد ولا مجاز • لقد آن الأوان لأبوح بمكنونات قلبي وسري الى إنسان :

— لقد حاول الجنرال — زوج أمي المقدام — على الرغم من طيب أرومته ، وحسن نيته ، أن يجعل مني ضابطاً مثله في سلاح الفرسان ، يجيد القتل والقتال ، ويتقن الفتك والنزال ، خلافاً لما جبلت عليه أنا من ميل الى الدعة وطيب العيش والسلام ، وحب للفن والشعر والجمال ، ففشل في تطبيعي وتنشئتي ، ثم حاول ادخالي في إصلاحية للأحداث ، فتمردت وثررت وانضمت الى أصحاب المتاريس ، من ثوار باريس ، من الجمهوريين والاشتراكيين ، المناهضين لحكم الملكية والملكيين (١) •

(١) يقصد بثورة المتاريس — تلك الثورات المتقطعة التي نشبت في فرنسا في القرن التاسع عشر ، ولا سيما في منتصفه ، ضد الحكم الملكي ، وقام بها عمال وطلبة ومثقفون ولقيف من عامة الشعب ، وعادوا ورفعوا شعار الجمهورية والحرية والمساواة والاخاء .

وكان لي بينهم الكثير من الأصدقاء الأوفياء ، من كتاب وأدباء وشعراء ، فتعلمت منهم الشيء الكثير ، وتفتحت قريحتي على قريض غريب ، ذي جرس لم يسبق له مثيل ، حتى بلغ بي الاعجاب بنفسي ، حداً أنساني ما حولي ، ففرقت في دوامة من النشوة والصبابة واللذة ، وهبطت عليّ آيات من الشعر ، سرت بين أبناء الجيل الجديد مسرى النور في الظلم !

ولما حصلت على إرثي الضخم بعد أن بلغت سن الرشد ، انتقلت الى الحي اللاتيني ، وعشت فيه عيشة البوهيمي ، مع لفيف من الأصدقاء ، من رواد المدرسة الواقعية . ومن ثم بدأت في نظم (أزهار الشر) وقد استغرق مني هذا الأمر ، زهاء عشر سنوات وأكثر ، وهناك تعرفت على راقصة خلاسية حسناء ، ذات نضارة وقتنة ورواء ، فأثيت على وصفها في ديواني أحسن وصف ، وتلك هي التي سميتها « فينوس السوداء » . كانت ذات لون يختلط سواده باصفراره ، شعرها أسود طويل ضارب الى الزرقة . أما عيناها فكان ينبعث منهما لمعان وبريق وألق ، فسحرت بلحظها الفتان ، وافتنتت بجسمها البض الريان . كانت تشبه أشد الشبه تلك الزنجية البارعة الجمال التي عثرت عليها يوماً أثناء رحلتي الخائبة الى الهند في جزيرة موريس ، احدى جزر المحيط ، ، حيث عرفت كيف يعيش الانسان على الطبيعة ، كأنه لا يزال في بدء الخليقة على السليقة . فظلت ذكرها عالقة في مخيلتي ، الى أن التقيت بخلاسي في مسرح « البانتيون » فقلت فيها ما قلت في (أزهار الشر) وغيره من الشعر .

قلت : ألا تسمعنا سراً ما قلت في فينوس السمراء ؟

قال : لم أعد أذكر شيئاً مما قلت في الساخرة ، وأنا في هذا الجحر
من الآخرة ، لا أرى فيه الاً وجوهاً سقيمة مشوهة نافرة •

قلت : ألا تذكر قولك في فينوس السمراء :

- « بين أحضانك يا فينوس السمراء
- التي لم ينحت مثلها الإغريق
- بين نهديك المكتنزتين الشامختين
- كنت أتشبث كما يتشبث الغريق
- أملاً بالنجاة والسلام

• • •

• « من شفتيك المتلتئتين كالعقيق

- كنت أرتوي كالظمان
- الذي حرم من كل عطف وحنان
- وشعرك الأسود المشوب بالزرقة
- المتماوج في الهواء
- تمر أنا ملبي عليه كما يمر زورق على الأمواج

• • •

• « كنت أنسج أحلامي فوق الغمام

- وعلى بطنك الضامر أرقد وأنام •
- ومن عبيرك العابق بالمسك والطيب •
- ومن أخذودك ويا ويله من أخذود •
- أنتسم بخور الهند وصندل السند •
- وأتشفقه كما أتشفق الأفيون •
- أو أدخن الحشيش •
- يا فينوس •• يا بنت الأقيانوس البعيد •
- يا ربة الجزر والمحيط • «

ما أن انتهيت من تلاوة هذه المقاطع على مسامعه ، حتى اكفهر
وجهه الشيطاني ، واتهرني قائلاً :

— ما هذا بشعري ••• انه شعر منتحل ••• فأنا لم أتخل في
حياتي عن القوافي والأوزان ، فمن أين جئت به أيها الشيطان • انه
شعر من جاء بعدي من الشعراء المسوخ • فحاولوا تقليدي بلا خجل
ولا شعور !

قلت : ربما أسأت ترجمة ما نظمت •

قال بخيلاء وغرور : ويحك هل يستطيع أحد أن يترجم شعراً من
لغة الى أخرى سوى من هو مثلي ، ألم تقرأ ترجمتي عن الانكليزية
لشعر أعظم شعراء الإنكلوسكسون ، ادغار آلن بو • من يستطيع

ترجمة شعر من لغة الى أخرى ما لم يكن هو بالذات شاعراً فحلاً
أصيلاً ؟

وعندئذ دفعنتي النخوة والشكيمة ، أن أتصدى هذا الشاعر
الشرس القوي العزيمة ، فسألته :

هل حقاً يا بودلير المسكين ، انك افتتحت نادياً للأدباء والفنانين ،
سميته (نادي الحشاشين) في قصر « ميمودين » ؟

قال عابساً مقطباً : أنا لم أخجل يوماً مما كنت أفعل * أجل لقد
افتتحت نادياً للفن ، ولكنني لم أطلق عليه هذه التسمية في الأصل ، انما
الذي أطلق على ندوتنا هذه التسمية الزائفة ، الكاشحون المتزمتون
الناقمون على الفن والأدب ، في ذلك العصر المضطرب .

واستطرد قائلاً غير مكترث بأسئلتي وتحدياتي ، كأنه يحدث
نفسه ، فقال :

— لقد عانيت الأمرين في حياتي الدنيا ، فأدمنت على الخمرة
والمخدرات ، وغرقت في أحضان الغواني والمومسات ، وأتفتت كل
ما أملك لأعيش يومي ، غير آبه بعدي ، ولكنني مع ذلك كنت أشعر
بحنين فائق ، الى صديق الروح البعيد عني ذلك البعد الشاسع ، ألا
وهو « ادغار آلن بو » الشاعر الأمريكي المفتون مثلي — كما كان يحلو
لبعضهم أن يسموه — ولكنني لم أبلغ صميم وجده والهامة ، ولكي
أدرك مكنون أدبه ودخائله ، تعلمت الانكليزية في أشهر معدودات ،
وترجمت أشعاره الى الفرنسية ترجمة نقية ، تحمل في ثناياها الأصل

نصاً وروحاً ، لا كما نقلت أنت شعري فمسخته مسخاً ، أضع معناه
ومراه ووقعه •

وتنحج بودلير واشمخر ، وقال : هل تود أن ترى صديقي « بو »
الشاعر الأغر ؟

وناداه دون أن ينتظر مني جواباً • ويرز لنا من جحر في السرداب ،
رجل نحيل القوام ، رث الثياب والهندام ، يترنح في مشيته من السكر ،
وتسيل من عينيه الذابلتين قطرات من الدمع ، وكل ما فيه كان ينبىء
بالقنوط واليأس ، وتبدو على سحنه أمارات الخمول والبؤس ، فوقف
بيننا يتلوى من الجزع ، كأنه يخشى شيئاً لا يراه مهما تطلع وحسّدق ، ،
فحسبت أسفاً كأن عينه تبخق • ولم أشعر انه رأني أو أحس بوجودي
وأدرك مرامي •

قال بودلير السليط اللسان ، مخاطباً صديق روحه السكران :

— هل سمعت ما قال هذا الواعظ المهزار ، الذي جاء من الساخرة
ليحاورنا في شعر مقطع الأوصال ، لا قوافي له ولا أوزان ؟

فتمتم ادغار آلن بو بصوت خافت يبضع كلمات ، فهمت منها انه
لا يجب الاستماع الى الوعاظ ، وانه ما كان يوماً من المتعظين •

قلت ردأ على كلام بودلير : لكنهم يقولون انه شعر العصر •

قال بودلير بتهكم : بل قل شعر من أصاب قرائحهم جذب •

ثم مضى يقص سيرته المشؤومة فقال :

اني أعترف لك بلا لوم ولا تقريع ، - وفي الاعتراف تقريع عن
المهمّ وتقريع - انه لما صدر ديواني (أزهار الشر) هبّ الى محاربتني
كل من يدعي الخير ، وأشرفت على الافلاس ، فصناعة الأدب لا تسمن
ولا تعني من جوع ، فذب في نفسي القنوط ، وأغرقت همي في المخدرات
والكؤوس ، فازددت سقماً على سقم ، وبلاء على بلاء ، ثم بدأت فكرة
الموت تراودني في يقظتي ومنامي ، فأردت التسامي بحبي ، فتولمت
بأرملة حسناء شقراء ، تزعم الفهم بالفن والأدب ، وكان قصرها منتدى
لرواد الأدب والفن في ذلك العصر ، يتردد عليها فيه كبار الكتّاب
والفنانين من عشاق الحسن والجمال ، والمناقشات وكل جدل سجال ،
كأمثال « فلوير » و « موسيه » و « سانت بولي » وغيرهم ، الاّ أنني
لم أكن أتردد عليها مثلهم ، اذ كنت أشعر بالخجل من نفسي ، لشدة
سكري وهذيانني ، فشرعت أرسلها ، وأودع في رسائلي كل ما يجيش
به صدري من حب عذري . وفي رأيي أن هذا اللون من الغرام ، أقوى
من كل وجد يكابده انسان ، « لأن المرأة التي لا تتمتع بمحاسنها ، تظل
هائماً بها ، لا تفارق صورتها مخيلتك . وتظل هكذا أبدأ في خيالك
صورة خالدة للصبيا والجمال » .

سألته : ولكن ما فعل الله بخيلتك الخلاسية ؟

قال متأسباً : هذا ما رميت اليه من قولي ان الحب العذري أقوى
من الحب الحسي . . . ان تلك الخلاسية التي خلدتها في شعري ، كرمز
للصبابة والشبق والهيام ، غدت بعد عشر من السنين مترهلة بدينة ،
مدمنة على الخمرة مؤذية ثقيلة ، تتلذذ في تعذيب القطط والكلاب ،
وتنهال عليّ بالشتائم والسباب .

أرأيت ما كان في الحياة الدنيا من مهازل وتناقضات وأوهام ،
وما كنا نصنع نحن الشعراء من مثلٍ ، ونحطم من أصنام ؟
وندت عن بودلير تنهدات وتنهدات ، تلتها آهات وآهات ،
واستطرد وهو يلهث :

— لقد أضناني التعب في آخر المطاف ، فشعرت بالكلل والملل ،
وعلى حين غرة أصبت بالشلل ، فأدخلت احدي المصححات ، وأنا فاقد
الحركة والنطق ، ولم يبق لي شيء في الدنيا الاّ السمع والبصر ، فكنت
أطيل النظر من نافذة الغرفة في المصححة الى الأشجار العارية ، والسماء
المتلبدة الداكنة ، ولن أنسى وأنا على فراش الموت ، أن الخير في
النفوس لم يمت ولن يموت ، فظل أصدقائي على ما عهدت فيهم من
وفاء . وكانت قرينة صديقي الرسام « بانيه » تزورني كل مساء ،
وتعزف لي أرق ألحان موزار ، وأروع أنغام فاغنر ، فأشعر بالطمأنينة
والسلام ، وأنا أرقب ساعة الوداع ، وأخيراً غرقت في غيبوبة ولنفي
الظلام .

وسكت الشاعر عن الكلام ، ونظر الى ما حوله في حيرة كمن
صحا من منام . وقال :

— لست أدري ما حل بي بعد الفراق ؟

قلت: أستطيع أن أنبئك بما جرى لك بعد الرحيل ، فقد تذكرت
مارواه لنا أحد أصدقائك الخالص من أنهم دهشوا جميعاً ساعة الوداع ،
لما شاهدوا بأم أعينهم وجه الشاعر الشيطان الرجيم ، قد انقلب الى وجه

• ملائكة كريم ، يشع بالبراءة والعفة والطهر ، كما يشع محيا طفل وسيم •

قال متعجباً : ومن يكون وجه الشيطان هذا ؟

قلت باستحياء : هل غير وجهك ••• لا در درك • ؟

ودنوت من « ادغار آلن بو » وربت على كتفه مواسياً ، وقلت

له مذكراً : إن لك يا « بو » في قلبي ذكرى لا تمحى مما قرأته لك
في الثانية •

قال مكشراً : وماذا قرأت لي ؟

قلت : ألا تذكر شيئاً من شعرك جاء فيه ما مؤداه :

• « أرى القط الأسود المشؤوم •

• على الحافة يتبختر ويحوم •

• وأسمع نباح الكلب يتصور كالمسحور •

وعواء الذئب الجائع في الناب

• أرى الجرذان تقضم آذان الأطفال الجياع •

• في زوايا الأكواخ. ومعسكرات الاعتقال •

• وأسمع أجراساً تدق وتدق •

أجراس •• أجراس •• أجراس

بلا صدى ولا رنين ! «

قال بتشاور ملحوظ : لا أذكر شيئاً مما قلت ... لعلك أحد أولئك المقلدين الذين عناهم صاحبي « بودلير » المسكين ، وسماهم بالقردة المسوخ الشياطين .. ويحكم أيها الغربان ألا تزالون ترددون ما قلته في عالم البؤس والشقاء الذي دفنت فيه حياً . هل أصبحنا بعد أن غادرنا الفانية من الخالدين ؟ يردد المسوخ أشعارنا الى أبد الآبدين !

أجبتة بالتأكيد : نعم هكذا طار صيتكم وذاع ، بعد أن دفتهم أحياء ، فلم ينسكم المسوخ ولا الناس !

وأرهفت السمع الى حفيف خلفي ، فالتفت يمنة ويسرة من حولي ، فاذا بشيخ ذي لحية بيضاء ، يخرج من أحد الجحور المظلمة ، يتوكأ على بندقية صدئة ، فعرفته على التو ، انه « ارنست همنغواي » ذلك الكاتب العالمي الذي اقتحر ، منذ بضع سنوات أو أكثر ، فنظر الينا بعينين حمراوين جريئتين ، وتساءل بصوت أجش :

— ألم تسمعوا الى تلك الأجراس تدق من بعيد « فلمن تدق الأجراس ؟ » (١)

قلنا بصوت واحد : لا انا لا نسمع الأجراس تدق .

(١) « لمن تدق الاجراس » عنوان قصة همنغواي الخالدة التي تدور فصولها حول الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٦ ، وقد خاض الكاتب المذكور غمارها بالذات الى جانب الجمهوريين والاشتراكيين ضد الفاشيين .

ولكنني استدركت قائلاً :

— لعل ما سمعت أنت أجراس الفاتيكان تدق حزناً على انتحارك ا

قال متحيراً : وهل تدق أجراس الفاتيكان حزناً على من ينتحر ؟

قلت : ألم تعلم أيها الأديب الكبير ، والكاتب الجريء النحرير ، المناضل المصارع ، الصياد الماهر ، أن العالم بأسره حزن لانتحارك وضياعك ، فحزن عليك الفاتيكان كما حزن عليك الكرملين •• لا لشيء الاً لأنك وضعت قلمك وعقلك وقلبك في خدمة قضية بني الانسان ، قضية الحرية الخالدة في كل زمان ومكان ، فلم اخترت لنفسك مصير انسان لا يمكن الاً أن يوصف بأنه جبان ؟ !

قال همنغواي بغموض كمن يتجاهل لبّ السؤال :

— لا تسأل نفس لماذا وكيف تموت •• تعددت الأسباب والموت

واحد !

قلت : أراك هنا مع زمرة الهامشيين ، وكنت في الأولى مع جماعة الثائرين الطلائعيين التقدميين ، ولهذا كانت لك مواقف مشرفة في الدفاع عن حقوق الشعوب المظلومة ، ولذلك حاربت الى جانب الجمهوريين ضد أعداء الانسانية من الفاشيلين • فما الذي دعاك لتحشر نفسك بين هؤلاء الظفيليين ؟

قال : هكذا اخترت أن أكون بينهم في الدنيا عندما كتبت قصتي المعروفة (الشيخ والبحر) • لقد أضناني طول السفر ، وفقدت الرؤية والأمل ، بين الوجود والعدم ، وغرقت في ظلمات اليأس والضجر ،

كان يخيل اليّ أن لا شيء يولد الحب غير الموت ، وأن الحرية هي
الرب ، رعب الأسد ، وأن لا حرية الاّ من خلال الموت !

وهنا هتف بي رضوان - ولا ريب أنه قد أدركه الملأل - من
هذا القيل والقال • وناداني أن هلمّ نرحل من هذا السرداب ، فقد
ضقت ذرعاً بلغو أهل الفنون والآداب • أما أن لهم أن يخرجوا من
كهوفهم العفنة ، ويثوبوا الى رشدهم ويصروا النور في هذه الجنات
النضرة ؟

× × ×

عند منعطف آخر من هذا السرداب ، وفي حجر ينبعث منه دخان
الحشيش وبخور الأفيون ، شاهدت شيخاً صينياً يجلس القرفصاء ،
كما كان يجلس « بوذا » الإله الانسان ، ويدخن من غليون ، وينظر
الى ما حوله بشرود وبرود • وكان يرتدي الثياب الصينية الحريرية
التقليدية • جلباب ممزق ، وسروال عريض • ويقف الى جانبه شاب
صيني يرتدي الزي العربي ، ويمسك بيده الطنبور ، ويضع على عينيه
ظارتين سميكتين •

سمعت الفتى ينادي الشيخ : هات واسمنا شيئاً من شعرك القديم
الذي كنت تنشده وأنت تطوف في شوارع « بكين » •

وعندما شرع الشيخ يعني بالصينية ، بصوت فيه ترخيم وحنين
وأنين ، فسألت ملاكي الصغير أن ينقل اليّ ما ينطق به هذا الشاعر
الصيني القديم ، فبدأ رضوان في ترجمة دقيقة ، تفوق بدقتها العقل
الإلكتروني • انه يعني « أنشودة الزهر والمزهر » :

« يا هو - هاي - هاي - هون • (١) »
آه من الأفيون يا ملكة الزهور !
• هكذا استهل الطبّال فنغ - يوتغ •
• نشيد الزهر والمزهر • نشيده الحزين
• يعني يطوف شوارع وأزقة بكين •
• لقد حلت اللعنة ببلدي هذا المسكين •
• ساعة ميلاد شو - يان شوتغ اللعين •
• امبرطور الصين • ابن الإله الشرير • »

• • •

« لقد أصبح الأغنياء هم السادة على الاطلاق •
• وغدا الفقراء يعانون المسغبة والاملاق •
• لقد باع رفاقي فلذات أكبادهم وكل ما يملكون •
• أما أنا فلا شيء عندي يبتاعه المترفون • »

(١) واضح ان هذه الكلمات تعتبر كمطلع لأغنيات صينية فولكلورية، يقابلها في العربية على سبيل المثال - ياليل - أمان - يللي الخ ... أما الشعر نفسه فقد ترجمه الكاتب عن نسخة انكليزية لديوان شعر صيني قديم عنوانه (أناشيد الزهر والمزهر) - ترجم هذا الديوان الى الانكليزية عام ١٩٤٧ ، وورد بعضه في قصة الكاتب ث - ي - لي (c. y - Lee)
(The flower drum song)

لا مال ولا نشب • ولا بنات ولا بنون •
بل أنشودة سيظل صداها يتردد الى أبد الأبدين •
أنشودة الزهر والمزهر ••• هوو — هاي — هين •
ولتحل من بعدي اللعنة على امبراطور الصين •
آه •• ثم آه من الأفيون •
يا زهرتي ••• يا غرامي •• يا ملكة الزهور •»

ما ان انتهى من نشيده حتى عاد الى تدخين الأفيون ، فعن لي
أن أطرح عليه سؤالاً :

— لماذا لم تشوروا في وجه الطغاة والأباطرة الظالمين كما فعلت
من قبلكم أمم وجميع الكادحين ؟

قال بأسف شديد : كانت لثوراتنا المتتابعة آداب وتقاليد ، وطقوس
وفنون ، اذا كانت البلد المظلومة المحكومة من الولاة العتاة ، اذا اشتد
بأهلها الجوع ، أو اجتاحتها الطوفان والفيضان ، تؤلف وفداً من الوجهاء
يحمل عريضة طولها ألف ذراع ، لرفعها الى أعلى سلطة في البلاد ،
وعندما لا يستجاب الى المطالب — وهذا ما كان يحدث في الغالب —
فينتحر رئيس الوفد على عتبة الحاكم الظالم ، تعبيراً عن احتجاج القوم ،
وقرباناً على مذبح الفساد والظلم ، فاذا عاد من تبقى من أعضاء الوفد
سالمين ، ثارت الفتنة في جماهير الفلاحين الجائعين ، فينتحر منهم أعدادا
كبيرة من الناقمين ، ويلجأ بعضهم الآخر الى تشكيل عصابات السلب
والنهب والحرق والقتل والتدمير ، بلا وعي ولا هدف ولا تدمير •

هكذا كان حالنا في ماضيات الأيام في الصين • وهكذا كان حال
شعب الأفيون ، المخدر بالأفيون وغير الأفيون !

قال الجملة الأخيرة « وغير الأفيون » بكل استحياء ووجل •

قلت : وماذا تعني « بغير الأفيون أيضا » •

قال : الخوف من امبراطور الصين • ابن الإله العظيم !

وهنا انبرى لي الشاب الصيني المستغرب فقال :

— لقد تغير الحال في أوائل القرن العشرين ، ألا فاسمع ما قلته أنا

وقتئذ من شعر ثوري متين :

وأنشد ما سماه بنشيد الحقول :

« هوو — هااي — هون •

بمحرثنا سوف نشق الأرض •

يا زهرة الحقول •

ولسوف نمشط أرضنا الطيبة •

أرض الصين •

من الأعشاب الضارة • • والسفاحين •

ألا فانهضي يا أمتي العريقة ذات المجد التليد •

من سباتك العميق •

بشبابنا ، وسواعدنا ، وقبضاتنا •

سوف نعدو أحراراً •

يا هوو - هاي - هون • يا زهرة الحقول •

لقد أرسلت لنا السماء صن - يات - سن • (١)

يدعوننا أن نهبّ وتنفجر من الأعماق •

ونمسك بالمنجل والمطرقة والمحراث •

وتثور على الظلم والعهر والاستبداد •

ثورة بعد ثورة •• ثورة الأحرار لا العبيد •

الى أن نحقق النصر مرة تلو المرة •

يا هوو - هاي - هاي - هون •

يا زهرة الحقول • «

سألت الشاب المستغرب - المثقف ثقافة غربية على ما يبدو - :

(١) صن - يات - صن من زعماء الصين الأحرار الذين قادوا شعبهم في مطلع القرن العشرين ، في ثورته على الحكم الإمبراطوري المطلق ، وأصبح رئيساً للجمهورية عام ١٩٢٥ . ثم اندلعت بعده ثورة « ماو - تسي - تونغ » الشيوعية الى أن انتصرت في أواخر الأربعينات .

إذا كنت حقاً من أولئك المناضلين في سبيل الحق ، فما دخلك هنا
في هذه السرايب والججور مع أهل الهامشية ؟

قال وعلائم الأسي العميق قد بدت على محياه الوسيم :

— لقد نبذني رفاقي في السلاح والثورة ، وقامت — كما هي
العادة — بعد نصرنا ثورات القصور بين النخبة الحاكمة ، فاتهمت مع
آخرين بالانحرافية والرجعية ، والعمالة والبرجوازية ، والى ما في آخر
هذا القاموس من سباب وصفات ومصطلحات ونعوت ، فدب الى نفسي
القنوط ، وأصبحت من أهل الهامشية ، لا أو من بشيء ، فسادني
التشاؤم ، وتملكني الوجوم •

قلت : هكذا اذن •• ولم لم تواصل الطريق ؟

قال : لقد سدت في وجهي جميع الطرق !

x x x

بعد ذلك هتفت برضوان : أن هلم بنا الى متاهات أخرى • لقد
سئمت وسئم الملائك معي أحاديث هؤلاء وآرائهم وأشعارهم في الدنيا
والآخرة • ألا بس مصير هؤلاء الصراير !

وهنا ، وعلى حين غرة ، برز لي من زاوية أخرى ، شاب يبدو
من سحنته انه هندي — صيني ، فسألته وما شأنك أنت أيضا بين
هؤلاء ، فأجابني بصوت فيه خنة وبجة ، أنا شاعر الثورة ، ابن فيتنام
الجزرة ، اسمي « تو — هو » لقد سئمت محشر أولئك الشعراء من

الصين ، القديم منهم والجديد ، وأود أن أخرج من هذه البحور ،
لأرى بعدئذ النور • كفانا ثرثرة وهديانا •

قلت متحمساً لما أسعفتني به الذاكرة : آه لقد قرأت لك شيئاً
من شعرك • ألسنت أنت صاحب ديوان (العناب يتساقط) ؟ (١)

قال : نعم أنا هو بالذات •

قلت : ألسنت أنت القائل :

« منذ أن تسلط عليّ صيف خالد •

• هفا قلبي مستنيراً الى شمس الحريرة •

• قلبي حديقة أفكار وأزهار وأوراق عطر •

• فرخ عطرا وطيورا •

• أوثقت روحي الى جميع الأرواح القلقة •

• كما الحياة تكون أكثر قوة • • أكثر قوة •

• منذ أن كنت طفلاً •

• رأيت آلاف المواقد •

• أذل القدر الفتية بالآلاف •

(١) انظر ديوان الشاعر المذكور (العناب يتساقط) - ترجمة :
رجاء الأرنؤوط •

وتعري الأطفال بالآلاف •

• متسكعين بلا نار

• ولا مكان

• ولا حب

• ولا شفقة • «

قال : نعم أنا قائل هذا الشعر وغيره من شعر الثورة ، ولذلك فاني
مغادر هذا المكان الى غير رجعة ، لأستنير بشمس الحرية !

x x x

أصحاب الأخدود

« قتل اصحاب الأخدود . النار ذات
الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على
ما يفعلون بالمؤمنين شهود . »
قرآن كريم

خرجنا من السرايب والأجار ، لتنشق الهواء الطلق وغير
الأزهار . وقد لفحتنا ريح الشمال الباردة ، فشعرنا بنشوة زائدة .

سألت رضوان : الى أين المزار ؟

قال هلم بنا الى الأخدود ، فلعلك تعثر فيه على المقصود ، ففي
ذلك الخندق السحيق ، حيث يتوافد اليه من كل فج عميق ، أصحاب
« الميغالومانية » أعداء الله والانسانية ، الذين حلت عليهم اللعنة
الأبدية ، لعنة الخالق والخلق ، أبد الدهر . . . هنالك في ذلك الأخدود
الملعون ، قد تجد وردتك الحمراء قابضة في أحد السجون (١) .

(١) الأخدود : حفرة عميقة مستطيلة في الجنة ، تشبه الخندق
أو الوادي المعتم . وقد جاء في تفسير محمد فريد وجدي « أن الأخدود

قلت : بربك يا رضوان - عليك السلام - من هم أصحاب
« الميغالومائية » هؤلاء ؟

قال : ألا تعلم أيها الانسان ، الذي يدعي العلم والعرفان ، أن
أصحاب الأخدود الملعون ، والنار ذات الوقود ، جلّهم من أولي العظمة
والجنون ، وقد سبق وصنّفهم علماء الاجتماع عندكم في الدار الاولى ،
على أنهم من نوعية خاصة فريدة ، يداخلها هوس ومرض قد يبلغ أحياناً
حد الجريمة ، اذ انهم - أو قل أكثرهم على هذه الشاكلة - يعتقدون
في قرارة أنفسهم انهم مخلصو البشرية ، ومنقذو البرية ، فمنهم من يزعم
انه المسيح المنتظر ، وآخر يدعي انه المهدي المرجو المرتقب ، ولكنهم
جميعاً يعيشون بعقلية واحدة ، يطغى عليها نوع من الجنون غريب ،
يسمونه بجنون العظمة ، وهو وهم " يصبح لدى أكثرهم كالإيمان ،
بأنهم أبطال أفذاذ ، توحى اليهم العناية الإلهية ، بأن يصنعوا ما يجب
أن يصنعوا بالبشرية ، وبعضهم يعتقد أنه ملك الملوك ، وسيد الأنام ،
لولاه لما سبحت الأكوان ، وان كل من يدب على الأرض ، ينبغي أن
يركع أمامه ويخر ، وانه وحده الزعيم الأوحد ، والقائد الملهم الأمجد ،
فلا فكر يضارع فكره ، ولا عقل يفوق عقله ، ، ولا مشيئة الا مشيئته ،
ولا ارادة الا ارادته ، فباسمه ينبت الزرع ، ويحيي الضرع ، فاذا تبسم
تفتحت البراعم والأزهار ، ، وشدت البلابل والأطيّار ، واذا عبس أو

الشتى في الأرض وقتل أصحابه بمعنى لعنوا . أما تفسير البيضاوي
فيقول : « انه تفسير القسم على تقدير لقد قتل والظاهر انه جواب
محدوف كان قيل أنهم ملعونون » .

اطاعتهم ،

الحضارة

ي ورفيق

والتقنية ،

في حطمت

أن أرى

بالسنابل ،

يعملون في

بالأزهار ،

لأطيار ،

ودون أن

تقوم على

ولا يسوده

؟

شاسع في

وي الاديب

غضب ، أو أصابته سويداء ، أظلمت الأرض واكفهرت السماء ، فويل
يومئذ لمن يقف في طريقه أو يتحداه !

فهل علمت الآن ما معنى « الميغالومانية » وأنت من يدعي المعرفة
بالترنسية واليونانية ؟

قلت مستدركاً أمري : أجل لقد نبشت بمحاضرتك هذه ما في
الذاكرة من مصطلحات غامضة ، ولكن قل لي بربك ما أدراك أنت بهذه
الأفانين من الكلمات ، وما يعرف عن الملائكة أو يقال انهم لا يشتغلون
الآن بالتسايح والبركات ؟

أجاب ساخراً من جهلي : نحن الملائك النورانيون - الذين بحمده
يسبحون - نقرأ الأفكار من العيون من مسافات وأبعاد ، تفوق سرعتها
سرعة الأضواء والأنوار بملايين بل بلايين المرات فأين أنتم منا أيها
الضعفاء ، فمهما تقدم العلم عندكم وابتكر العلماء أشياء وأشياء ، فلن
تبلغوا مثقال ذرة مما بلغناه في السماء ، في عالم الكشف والابتكار ،
واماطة اللثام عن الأسرار ، كل ذلك بقدرة من أبدع الأكوان ، وخلق
فينا العقل والوجدان .

قلت : بورك فيك من عالم بلا قيود ولا حدود . هلم بنا الى
أصحاب الأخدود ، لنرى ما حل بهم في عالم الخلود .

وعندئذ لمعت في خاطري الآية الكريمة لمعان البرق : « قتل أصحاب
الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون
بالمؤمنين شهود » .

الرأي والاجتهاد ، ولكنني في جميع الأحوال ، كنت أترك له حرية التصرف والاختيار ، وحق التفكير والتعبير ، ومن يدري ؟ ، فربما كان هو المصيب ، وأنا المخطيء في دعوتي والمسيء . واني لا أجد أية غضاضة في الاعتراف بالخطأ ، ففي الرجوع عن الخطأ فضيلة كما قالت العرب . ولهذا تجدني في مذكراتي ، أقر وأعترف اني قد ارتكبت في شبابي سلسلة من الحماقات والأغلاط ، فعاقرت الخمرة وأكلت لحم الخنزير ، وعاشرت النساء في المواخير ، لما كنت طالباً أدرس في لندن . فلم ينكر الانسان أخطاه ويخفي عيوبه . ألا فانتظر الى هذه النظارات التي أضعها على عيني " لأبصر وأقرأ وأتعلم ، فهي كما أخرجني وذكرني صحفي بريطاني جاءني ذات يوم ، من انتاج معامل بريطانية أو أوروبية كنت أدعو الى مقاطعتها ، وليست من صنع عنزة أو بهائم . . . الحق انه يصعب على الانسان جمع الحقيقة كاملة في نظرية فضالية أو ايديولوجية معينة واضحة ذات فعالية .

أكبرت في غاندي الشهيد الحي ، الانسان الصادق : الصدق وصفاء السريرة ، ونقاء الضمير ، الصدق مع نفسه أولاً ثم مع الآخرين ثانياً .

انتهرني رضوان بنزق ، وهمس في أذني بحقن : ألا تكف عن الثرثرة مع هذا وذاك ، وأنت تبحث عن معبودتك وفاتنة لبك ؟ هلم بنا نلج الأخدود ، فلدي مشاغل جمّة على الحدود !

وقبل أن أهم بمغادرة غاندي ، سألته مستوضحاً عما أثير في الفانية من شائعات وأقاويل حول صاحبتة الانكليزية الوفية ، من أنها عميلة

بود الى

سميكة

ل من

ذات

المهاتما

هندي

الضعينة

ن (١)

خلف

بديّة

مه كما

أنا

طائية

لدائرة المخابرات البريطانية « الأتلجنس سرفيس » ، فتضاحك
مكشراً عن ناب أو نابين ، وأشار الى عنزته ذات القرنين ، وقال ساخراً
من بلاهتي في الدارين :

— اذا صح ما يدعون فلتكتب جاسوستي الحساء ، ما تشاء من
التقارير حول تحركات عنزتي البلهاء ، فلا سر عندي أخفيه عن عدوي ،
لأنه في الأصل لا أعداء لي ، ولا أكن عداء لأحد ، انما أشفق على
الباغين أن تدور بهم الدوائر ، وأن يقعوا هم أنفسهم في شر أعمالهم
كما جرى لهتلر ، ولكل متفطرس متكبر .

ومرّ بنا في هذه الأثناء شاعر الهند الكبير ، طاغور الوقور
الطروب ، وهو ينشد بصوت رخيم ، ملحمة الحب العظيم (١) .

وكم كنت أود أن أمكث قليلاً مع هذا الشاعر الطيب القلب ،
المرهف الشعور ، ولكنني خشيت أن يستنكف رضوان عن صحبتي ،
ويدعني لوحدي ، فتبعته متجاوزاً الأسلاك والحواجز والسدود ، الى
فرجة يتصاعد منها بخار يشتم منه رائحة الجيف والديناميت ، والذرة
اللاهبه لهيب الجحيم ، فهبطت سلالم الخندق الحزونية ، الى أن بلغت
ساحة كأنها ساحة حرية ، أو استاد رياضي ، فيها من كل جانب منابر ،
ومكبرات صوت ومدارج ، وثمرّة ضجيج وعجيج ، وأصوات حادة
منكرة من كل فج عميق ، تكاد تفجر الأدمغة والآذان ، ويردد صداها

(١) عرف عن طاغور على الرغم من هيئته ولحيته البيضاء المرسلة
انه كان يرتل شعره وينشده غناء . وقد منح عام ١٩١٣ جائزة نوبل
للسلام ، وهو أول شرقي يحصل عليها .

الأخدود السحيق ، كهزيم الرعد وقصف الصواعق ، فترتعش لهولها
الخلائق ، وكان يقف خلف كل مكرفون خطيب يهتز ويترنح ، ويكشر
من الاشارات ويتبجح ، ويردد كالوعواع (١) شعارات طالما سمعتها في
الفانية ، فكانت تغشائي الغاشية ، وقد تمزق صماخ أذني من كثرة
ترديدها وسماعها صباح مساء ، من المذيع والتلفاز ، وكاد يعاودني
الانهيار ، اذ شعرت على الفور بالغشيان والدوار ، ولكني تماكنت
نفسي بمقدار ، بوحي من القوي الجبار ، فتابعت المسيرة ولو انهيار
فوقي السقف وتداعى الجدار !

كان أول ما أثار انتباهي ولفت نظري في هذا الأخدود ، ما شهدت
من أعلام وبنود ، ولافتات وشعارات ، من مختلف المذاهب
والايدولوجيات ، وما خط على الجدران من عبارات التآليه والتفخيم
والتعظيم ، أو كلمات مقذعة وشتم قبيح ، كأن (يسقط فلان بن فلان
الخائن العميل الجبان) أو (يعيش علان بن علان البطل المغوار أشجع
الشجعان) أو (ليمث هيان بن بيان) (٢) وسوى ذلك من دفاتر
الجدران ، وكذلك ما شهدت من حشد غفير من المغاوير ، أصحاب

(١) الوعواع - في الأصل من وعوعَ كما جاء في شرح للاستاذ
محمد العدناني كقولهم : وعوع الكلب ووعوع الذئب أو ابن آوى ،
وسواهما من أصوات الحيوانات ...

(١) هي في الأصل « هي بن بي » : كناية عن لا يعرف من هو ولا
يعرف أبوه . وكذلك « هيان بن بيان » . ويقال للرجل اذا كان خسيساً ،
كقول الشاعر « ابن بري » :

فأقصعتهم وحطت بركها بهمو وأعطت النهب هيان بن بيان !
« من شرح لكامل الكيلاني »

الخوذ ذات القرون وبلا قرون ، ومن ذوي اللحى والذقون ، والشوارب المعقوفة ، والقبعات التي رسمت عليها أشكال مختلفة من كواكب الطيور ، كالصقور والنسور ، ومن بين هؤلاء وأولئك رأيت زمراً متعددة من مختلف البلدان ، من اليمن السعيدة ومسقط وعمان ، والشارقة وعمان ، وازوبكستان وأفغانستان وخرسان ، أطلقوا على أنفسهم ألقاباً ونعوتاً ما أنزل الله بها من سلطان ، كأئمة الاسلام وسيوفه ، وآياته ، وشرائعه ، وحججته . وكذلك شاهدت على طرف آخر من الأخدود رجالاً من ذوي العمائم البيضاء والخضراء والسوداء والصفراء ، منها ما هو مرصع بالمالس والجمان ، ومنها ما يعلوه ريش نعام ، والى جانبهم يقف بايات من آل بورجيا الذين حكموا روميه ، في غفلة من الزمان ، وأصحاب قلانس وتيجان ، من شاهنشاهات ايران ، وقياصرة الروس وأباطرة الرومان ، وغيرهم وغيرهم من ذوي السلطان والصولجان ، يتيهون عجباً بما يحلون به الصدور حتى البطون ، من أوسمة ونياشين ، وما يرتدون من حرير الصين ، ومطرزات دمشق والموصل وقنسرين ، ويتمنطق كثير منهم بخناجر يمانية ، وسيوف رومانية ، أو مسدسات « كولد » اميركية .

كما لفت انتباهي في هذه النوعية من الجماعة ، أنهم جميعاً من ذوي النظرات الحادة الجاحظة الزائغة ، يجمع بينهم قاسم واحد مشترك ، بل قل هوس واحد ولا تخف ، ألا وهو ولعهم الزائد بالمنابر والأبواق ، ومكبرات الصوت والزينات ، وتنافسهم على اذاعة البلاغات والقاء الخطب وطرح الشعارات ، فأكثرهم - على ما لاحظت - خطباء مفوهون ، ومحدثون بارعون ، ومتبرعون بالفتاوى وداعون ، يجيدون

التلاعب بعواطف الجماهير ، لا سيما عواطفها الدينية والطائفية والعرقية
الهوجاء ، اجادة الحوارة في بلع السيوف والمسامير !

كان أول من صادفت على الحدود في مطلع الأخدود ، محارباً من
الإغريق ، مدججاً بالسلاح مزهواً كالغرنيق (١) يضع على رأسه خوذة
ذات قرنين ، فعرفته من رسمه وقرنيه ، انه الاسكندر المقدوني الكبير ،
ذو الفتوحات الشهير ، وهو من قالت العرب انه « ذو القرنين » بعد
أن دوّخ مصر والشام وما بين النهرين ، وبلغ فارس وجبال الهند ،
بعد أن استولى على بلاد السند . كان يقف منتصب القامة أمام
المكرفون ، ومن خلفه تمثال مارس بن جوبيتر وجونون (١) ، يعاقر
الخمرة من دن* أمامه بكثرة ، ويسكر ويعربد ويضرب بقبضته المنصبة ،
فدنوت منه بخوف ووجل ، وسألته عما حل به من خطب جلال ، فجعله
على مثل هذه الحال من الجفل ، فقال باستعلاء ومن غير خجل :

— أنسألني ما بي ؟ أنا الذي وزعت أملاكي قبل مماتي ، ولم
أكن أملك غير الأمل وكان بودي أن أستكمل فتوحاتي ، وأجعل
العالم بأسره طوع ارادتي ، ورهن اشارتي وبناني .

وانقطع قليلا عن الكلام ، ومال على دن* قرقمة ليتجرع منها

(١) الغرنيق : طائر مائي كالكركي ، وتطلق عليه العرب تشبيهاً كل
شاب أبيض جميل الوجه . وكان الاسكندر المقدوني جميل الوجه
مزهواً بجماله ، مغترا بقوته وشبابه .

(١) مارس : إله الحرب عند اليونان الأقدمين وهو ابن جوبيتر
وجونون .

الجرعة تلو الجرعة ، فعرفتها من لونها انها خمرة حبق (٢) ، تشبه ما يطلق عليه أهل الشام « بالعرق » • وهي من شدة فسادها يداخل شاربها العرور والحمق ، بدل المسرة والفرح ، واذا عاقرها مخلوق بكثرة ، خيل اليه انه امير أو مشير ، كأن لسان حاله يردد مع الأخطل الكبير :

خرجت أجر الذيل حتى كأني عليك أمير المؤمنين أمير !
ثم مسح فمه بيده كالرعاع ، وواصل حديثه بلا انقطاع :

— أتسألني ما خطبي ؟ ماذا لو وجد هذا المكرفون في عهدي •
وحق الآلهة لكنت قد كسبت به من المعارك ودولت من الرؤوس ،
أكثر مما كسبته بالرمح ، والسنهام والفؤوس ، وذلك بما يوحى هذا
الجهاز الجهنمي الى النفوس ، من أفكار ومعتقدات وتوجيهات
وانبطاحات ، تجعل أكثر الناس يجرون خلفي كالنعاج ، وقد اكتشفت
الآن ما له من أثر بالغ في عقول العامة والهجاج • فيا لسوء طالعي
ونكد عيشي !

وعاد الاسكندر — كعادته — الى السكر والعريضة ، الى أن سقط
على الأرض فاقد الحركة •

عندئذ ثبت لدي بما لا يقبل الجدل ، ان هذا القائد — كما وصفه
برتراند رسل — من أوائل مجانين العظمة ، أو عظماء المجانين ، كما

(٢) الحبق — ضرب من التمر والدقل وديء • وفي الحديث انه
عليه الصلاة والسلام نهى عن لونين من التمر : الجعور ولون الحبيق •

أُكِّد على ذلك من قبل بعض التلاميذ عن أرسطو الحكيم ، معلم هذا الرجل العظيم •

غادرته وهو على هذه الحال ، الى مكرفون آخر يجار بلا انقطاع ، فاذا بي أمام مغولي عملاق ، عرفته على التواته جنكيز خان - امبراطور المغل والنتر - الذي طغى في الأرض وبغى وتكبر ، والذي سحق شعوباً ومحقق ، ونهب وسبى وحرق ••• كان مسدل الشاربين ، مستطيل العينين ، يتطاير منهما شرر كما يتطاير من عيون التنين ، فينادي بصوت كالهدير ، كأنه يسوق الأباعر والحمير : أن هلموا اسحقوا وامحقوا ••• واخنقوا ومزقوا وقطعوا ودمروا واحرقوا ••• النصر لسيد المغل وحده • والمجد والخلود له ولذريته من بعده ولأهله !

لم أشأ أن أطرح هذا المنكود أيّ حديث ، لعلمي الأكيد أنه مخلوق أمي عنيد ، لا يجدي معه جدل ولا يفيد •

اقتربت من سدة واسعة أخرى ، ذات فسحة كبرى ، فرأيت في وسطها نابليون بونابرت - وهل يخفى على أحد رسم هذا الكورسيكي الأسبرط (١) ؟ - يمسك بالسوط وينهال به على ظهور الأمراء والنبلاء والمارشالات والجنرالات ، ويأمرهم أمر السيد المطاع ، أن يخروا سجداً أمامه ويمرغوا جباههم على القاع ، وأن يفعلوا كذا وكذا ، والأفلا ولا ••• فقد تأكدت الآن من صحة ما ذكره المؤرخون

(١) الأسبرط : نسبة الى اسبارطة الدولة العسكرية الارستقراطية في اليونان القديمة ، وكانت تشبه بروسيا في الأزمنة الأخيرة . ولم يبق من مدينة اسبارطة اليوم غير أوابد بالية ، ولكن تاريخها العسكري العدواني ظل مضرب الأمثال ومرمى العبر .

الموثوقون ، من أنه كان يضم حقدًا دفيناً على أبناء الطبقة الأرستقراطية، رغم أنه حاول جهده تقليدهم في حركاتهم وسيكاناتهم ، وماكلهم ومشاربهم ، وأزيائهم وشاراتهم ، وزهوهم وترفعهم وغرورهم ، متناسياً في أحوال كثيرة أنه ابن الثورة الفرنسية الكبرى البار ، وأنه رفع شعار الحرية والعدالة ولوَّح به وأشار . وسمعتة يأمر نقرأ من حاشيته أن شقوا هذا الطريق ، وأزيحوا هذا العرش ، وأقيموا هذا النصب وذلك البناء ، ويصيح فيهم : ألا فاسرعوا أسرعوا . . اني لا أحب التفاضل في العمل ، وأكره البطء والجمود والكسل ، ولو كنت من سكان الأخدود ، فلسوف أقيم فيه امبراطورية بلا حدود ، تحمل اسمي ، ومملكة ترفع علمي ! (١)

(١) من المعلوم أنه كتب وصنف حول تاريخ نابليون بونابرت وحروبه وفتوحاته ومغامراته الألوف المؤلفات من المجلدات والكتب والأقاصيص ، ولعل أطرف ما كتب عنه في إحدى المجلدات - وهي مجلة التاريخ الفرنسية بالضبط - أنه لما نفي إلى جزيرة « البا » وترك له الحلفاء لقب « الامبرطور » فقط ، بعد أن جردوه من كل مايملك ، أقام في تلك الجزيرة الصغيرة جدا امبراطورية مصغرة تحمل اسمه وشعاره . وبدل أن يقبع في زاوية من منفاه وهو المشرذ المخلوع المعزول يبكي مجده الضائع ، ويندب حظه العائر ، قام يعمر وينبي في تلك الجزيرة بيتاً ويشق طرقاً ، وقد أنشأ مجلساً بلدياً ، وأمر حاشيته القليلة العدد ومن نفي معه من كبار مساعديه بالعمل الدؤوب ليل نهار ، وافتتح مدرسة ، وعين لها ملاكاً للتعليم وسوى ذلك من صالح الأعمال ، حتى لا يرى أحداً في وجهه يحدثه عن الماضي ويبكي . وفي نفس الوقت كان يخطط سراً للهرب من الجزيرة ، في أول فرصة متاحة . وقد فعل ذلك وعاد إلى الوطن ودخل باريس دخول الفاتحين ولو أنه هزم بعد حين كما يعلم كل من قرأ التاريخ . ويعلل بعض السيكلوجيين تصرفات نابليون على هذه الشاكلة بأنه كان مصاباً بما يسمونه مرض البارنويا - وهو نوع من المرض النفسي العصابي مصدره افراز زائد في الغدد الدرقية تجعل من صاحبه سريع الحركة نرماً مغامراً .

تركنه لشأنه ، لأن الحديث مع نابليون لم يكن من الأمور السهلة
الهيئة ، وهو منهمك في مشاريعه الأمبراطورية الباراثونية ، وخططه
الستراتيجية العسكرية ، فتاريخه معروف من الصغير والكبير ، ولن
أجد عنده زيادة لمستزيد •

وتلفت حولي لأجد شخصية أخرى من أصحاب الأخدود ،
فدخلت إيواناً واسعاً مرصعاً بالنقوش والقصوص ، يتربع على عرشه
رجل بدين منفوش كالطاووس ، يرتدي جبة مزركشة عريضة الأكمام ،
ويتوج رأسه بعمامة ضخمة في أعلاها نبت ريش نعام ، وكان يشع من
وسطها حجر من الماس ، يخطف الأبصار وييهز الأنفاس ، لشدة بريقه
ولعانه ، وعجيب تألقه واشعاعه ، فعرفت فيه أحد سلاطين بني عثمان ،
كابوس آخر الزمان - كما سماهم بذلك أمين الريحاني - وقد وصفه
مؤرخو عصره ، بأنه خليفة المسلمين ، وامام المؤمنين المهتدين ،
- وسلطان البرين ، وخاقان البحرين ، تبت الأرض ببركاته ، وتمطر
السماء من جوده وخيراته - !

كان يجلس على العرش وييده الصولجان ، لا يأتي حراكاً كأنه
تمثال من شمع أو صنم من الأصنام •

ولست أدري أكان هو بعينه السلطان سليم أم السلطان ابراهيم ،
الذي اشتهى يوماً أن يتزوج من امرأة تشبه البقرة ، فطاف زبائنه في
جميع أنحاء الكرة ، بحثاً عن ضالة السلطان المنشودة ، الى أن عثروا في
جبال ارمينية المجهولة ، على امرأة ضخمة الجثة ، تفوق بضخامتها البقرة

الحلوب ، ويضا هي ثدياها عدلين من الحبوب ، ويشبه فخذها أعمدة
أياصوفيه ، ويفوق ردفها قباب قوئيه (١) .

لم أشأ أن أخوض كذلك في حديث مع هذا السلطان ، لعلمي بما
جبل عليه معظم آل عثمان ، من غباء وسوء خلق وعدوان ، فانصرفت
عنه الى ققص آخر من هذا السرك العجيب ، حيث التقيت بطائفة من
انكشارية وعساكر الأعاجم والأعاريب ، وسواهم من المتسلطين
والمترمتين المجاذيب ، الذين خلفهم لنا رواسب جهل وانحطاط في هذه
الديار ، سلاطين بني عثمان الفجار .

ساقنتي الصدفة ، الى الوقوف أمام زفة وأية زفة ، تضم حشداً
من الرعاع والمرزقة المناكيد ، يرقصون على قرع الطبول وتفخ الزامير ،
ويزغردون ويهللون ويكبرون ، أمام خطيب من الانكشارية يقف وراء
المكرفون ، يخطب فيهم بصوت أبح أجش ، وهم عنه في رقصهم
وتصفيقهم وتهليلهم لاهون ولا بأس ، فيعيد على مسامعهم ويردد خطاباً
في القومية ، ويدعوهم الى خوض المعركة المصيرية . فوقت برهة أرهف
السمع وسط هذا الضجيج الى هذا الخطيب المتواتر النبرات ، الكثير

(١) من شاء زيادة في وصف تلك المرأة البقرة التي هام بها السلطان
ابراهيم ، فما عليه الا مراجعة كتاب « تاريخ ما أهمله التاريخ » من سيرة
سلاطين بني عثمان لمؤلفه المؤرخ الكاتب الاستاذ حبيب جاماتي ، وفيه
ياتي كذلك على نهاية المرأة البقرة المذكورة ، وكيف لقيت مصرعها في الحمام
لما أنهالت عليها زوجات وجواري وسراري السلطان ضربا بالقباقيب ،
وكيف مزقتها من الغيرة شر تمزيق ، وكذلك ما آل اليه بعدها حال
السلطان ابراهيم ومصرعه الرهيب .

العنات والأنات والتأنات والتأوهات ، وهو يمضي في الخطاب الركيك ،
بلا حساب ولا تدقيق ولا ترتيب ، كأن ليس للوقت عنده من حساب ،
فلم أفقه شيئاً مما يقول ، قسماً بمن وزع على الناس العقول .

وغادرته الى مكرفون آخر ، فاذا أنا أمام رجل أشهب ، عرفته من
رطاقته على التوانه من أهل حلب ، وقد حلّى صدره بالأوسمة والنياشين ،
وراح يخطب في حشد كذلك من المرتزقة المساكين ، وهم لا ينفكون
عن الهتاف والتصفيق .

كان يهدد الحشد منذراً متوعداً بالويل والشبور وعظائم الأمور ،
إذا خالف أحد منهم قوله المأثور : « أنا القانون وأنا الدستور » .
ثم ظل يردد على مسامعهم انه سيخوض المعركة ، ولو أدى به الأمر الى
التهلكة ، ويكرر ويعيد بيتاً من الشعر من الموثبات والحماسة ، حفظه
عن ظهر قلب منذ سني الدراسة :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول !
ثم اتضح لي بعد قليل أنه يحفظ بيتاً آخر من هذا الطراز من
الموثبات ، فسمعتة يردد قول الشاعر :

تعيّرنا أئناً قليل " عديداً فقلت لها ان الكرام قليل !
وعاد يصيح ان الكرام قليل . . . ان الكرام قليل . . . نعم
ان الكرام قليل !

ولم أستطع فهماً من هم أولئك الكرام الأفاضل ، ومن ذلكم
اللثام الأسافل ؟

الآن أني سمعته يستطرد في القول : رجوتكم بالله اعطوني قليلاً من « البنزين » أو « الغازولين » لأصبه على هؤلاء الناس المرتدين المارقين ، فهم لا يستحقون الآن الحرق ومن ثم سحقهم حتى العظم . وعند هذا الحديث بلغت به الحماسة أن تلبسه الجال ، فانتفض وارتعش ومال ذات اليمين وذات الشمال ، وأخيراً أمسك برأس المكرفون وابتلعه دفعة واحدة ، وراح يمضغه بلذة فائقة ، فلم أعد أسمعه ينطق بشيء من فمه ، بل سمعته يجمع كمن يتكلم من بطنه !

وظل شريط مكبر الصوت عالقاً بالبريز - ولعن الله أول من اخترع هذا البريز - الذي ملأ دنيانا بالضجيج القاتل والأزيز .

كان أكره شيء على قلبي في العاجلة أولئك الذين يمضغون الكلام ، وينطقون من بطونهم لا من أفواههم ، كأنهم يضمرون للناس أمراً إذا ، أو كأنهم قدوا من دبر لا من قبل . فأصابهم الهلع والذعر ، فلا يتفوهون بما يفترض أن يتفوه به أصحاب العقول وأهل الرشد من أولي الأمر !

لذلك آثرت الانسحاب من هذا الحفل الصاخب ، تاركاً ذلك الأشهب الخائب ، يندب حظه العاثر .

× × ×

انتقلت الى مشهد مشير آخر ، بطلاه هتلر النازي وموسوليني الفاشي . فألقيت كلاماً منهما يقف وراء منصة ومكرفون ، يواجه أحدهما الآخر بتحد وقهور ، وقد رفع الأول فوق رأسه صليبه المعقوف ، ونصب

الثاني فأسه المعصوب ، وكان الفوهرر يرغبى ويزبد فى الخطاب ، ويكثر من الشارات والتلويح بقبضتيه ، ويهدد ويتوعد ، ويضرب المنصة ويتسرد ، ويتطير الشرر من عينيه الجاحظتين ، ويقول انه سيحتل العلمين وستالينغراد والعلمين ، ويجعل كل من يدب على الأرض عبداً للرايخ الثالث ، دون مزاحم أو منافس • ثم يتهم صاحبه موسولينى بأنه كان السبب فى خذلانه فى الحرب العالمية الثانية ، ويسأله بنزق : قل لى أيها الدوتشى ، أين العشرة ملايين الفاشى الذين كنت تتبجح بهم وتصفهم بأنهم عشرة ملايين حربة أو قنبلة ، فانقلبوا عند أول ضربة ، الى عشرة ملايين أرنبية ، فاستسلموا بلا قيد ولا شروط ، عند العلمين ومرسى مطروح • ؟ ألا تباً للطلبان ، فهم ليسوا أهلاً لمخالفة الألمان ، ومشاركتهم فى النزال والطعان ••• انهم فى الهزيمة كالغزلان •

فرد عليه الدوتشى موسولينى متوفزاً متطاولاً متقاصراً ، مهدداً بقبضته متوعداً منذراً كعادته :

— ما أدراك أنت أيها الكابراىل الحقىر ، والفوهرر الصغىر ، بالأمر السىاسية ، والخطط السىراتىجية ، ولو أنك استمعت الى نصحى وارشادى ، وظللت تهبد العالم بالحرب ولم تخضها ، لبقيت الأمة الجرمانية فى أوج مجدها ، ولكننا قد حصلنا على أطيب الثمرات ، فالخوف من الحرب أدهى وأنكى من الحرب ذاتها ، ثم كيف تفتح عليك أيها المأفون جبهتين غربىة وشرقىة فى آن واحد ؟ ثم تجرئى معك الى الهاوىة ، فأموت أبشع مائة • ان مبادئ الفاشية التى وضعتها من نسج خيالى ، كانت تنادى بالعودة الى الحىاة الطبعىة البدائىة ، وببسط

السيطرة على الطريقة الرومانية ، وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة
إيطالية ، بالتهويم والتخويف من الحرب ، متبعا بذلك سياسة مكيافيلية،
تقوم على الدجل والتآمر والدسائس في المحافل السياسية والدولية ،
وكنت أخشى ما أخشاه حرباً فعلية •

وطال الجدل والحوار ، بين الفوهرر والدتشي على هذا المنوال ،
دون أن يتوصلا الى نتيجة أو مآل • وحاولت جهدي أن أتفهم خلاصة
تجربة تاريخية من خلال محاورات هذين الزعيمين البيزنطية ، وكيف
تسنى لهما جر العالم الى حرب عالمية طاحنة ، دفعت الشعوب المسالمة
الآمنة أثمانها الغالية ، وحملت أوزارها الباغية ، بيد أنني لم أفقه شيئاً
مما كانا يقولان ، سوى جعجعة فارغة وهذيان •

ورأيت أن أتفهم بعض ما كان يرمي اليه موسوليني من بث تعاليمه
الفاشية ، ودعوته الانسان بالعودة الى الحياة البدائية ، وما تنطوي
عليه هذه التعاليم من عقائدية ، فدنوت منه وهمست بأذنه أنني أود أن
أحصل على تصريح منه بلسانه عن سبب دماره وخراب بلاده ، فنظر
اليّ - جرياً على عادته في الفانية - باستغلاء وازدراء وهو منتفخ
الأوداج ، وأجاب : سل ما تشاء •

قلت : أرى أنك تختلف عن صاحبك هتلر الكابراي الصغير ،
بفارق من التجربة والثقافة كبير ، ولا سيما أنك زاولت مهنة الصحافة
في شبابك ، ووضعت أسس التعاليم الفاشية التي جاءت كمرتكز
للنازية ، فهلا أنبأتني كيف استعظت الامتيلاء على الحكم في ايطاليا ؟
قال : الأمر في غاية البساطة والسهولة ، فلم تكن حملتي الا كما

وصفها بعضهم « نزهة عسكرية » فاستوليت على الحكم بتأييد من
الرأسمالية الكبيرة والبرجوازية الصغيرة الخائفة من انتشار المبادئ
الشيوعية ، وبدعم متردد من الطبقة العاملة الجاهلة الحائرة بين
الديموقراطية والاشتراكية ، فبدلت لهم الوعود ، بإحياء أمجاد الجودود ،
وبعث امبراطورية الرومان ، في قديم الزمان ، ، وناديت ان البحر
المتوسط هو « بحرنا » وان شمالي افريقيا وآسيا الصغرى مستعمرات
لنا ، وان المشرق والمغرب سيخضع لإرادتنا ، فأسكرتهم هذه الوعود
والأماني العذاب ، وتجمعوا من حولي كما تتجمع على الحلوى الذباب ،
فألفت من جماعة الشيبية الأغرار ، فرق القمصان السوداء ، ودربتهم
على أداء التحية الفاشية ، والسير في الاستعراضات العسكرية ، والهتاف
باسمي دون غيري من الزعماء ، وجمعت في قبضتي كل السلطات وأكثر
الوزارات ، وبذلك تحقق لي ما أبغي وأريد ، وأصبحت السيد والزعيم
والقائد « الدوتشي » الوحيد ، وهكذا التفت حولي خلق كثير ،
أستعرضهم كل يوم بمناسبة وغير مناسبة ، وهم يحملون الرايات
والشعارات ، وألقي فيهم الخطب والموئبات ، حتى خيل لبعضهم أنني
المسيح المنتظر ، الذي سيأتينهم بالفرج !

سألته متعجباً : وهل أتيتهم بالفرج ؟

قال ساخراً مني : أيها الساذج المسكين ... هل تصدق ما يقال
عن المسيح المنتظر ؟ ألا تعلم كيف كانت نهاية المسرحية ؟ وكيف جاء
شعب ايطاليا بالفرج ؟

قلت : لا وكيف كان ذلك ؟

قال : كان ذلك أن اعتقلني أبناء الشعب في نهاية الحرب، فحصلت ما غرست وزرعت ، فصلبوني بالملقوب ، وهكذا لقيت مصيري المحتوم، فجاء الفرج شعبي المظلوم •

ولما بلغ هذا الحد من الهذيان ، والشرح والبيان ، فهقه ضاحكاً من جهلي كالمجنون ، والله في خلقه شؤون •

x x x

كان أعجب ما رأيت في هذا الأخدود ، رجلا في مقتبل العمر ، متعمماً بعمامة الجامع الأزهر ، يرتدي حلة من طراز القرن التاسع عشر ، ويعتلي منبراً عالياً ، وبيمينه خنجرأ دامياً ، وأمامه حشد كبير من السوقة المساكين ، والبهايل المهايل ، يصفقون له ويهللون ويكبرون ، كلما أرغى وأزبد ، ونادى بأعلى صوته وهدد وتوعد : الثور أيها الناس وما أدراكم ما الثور ، ، انه يحمل الأرض ومن على الأرض ... إياكم أن تغفلوا عن ذكره أبد الدهر ، فهو الذي يحمل هذه الأرض من قرن الى قرن ، وما يدب على البسيطة من بشر ، وحمير وبنغال وبقر • أوصيكم به خيراً ، والاّ حلت بكم اللعنة جهراً •

سألت رضو : من يكون هذا الثور؟

قال رضوان ولم يتمالك من الضحك : انه الشيخ الأشموني « الثوري » • أقول لك « الثوري » نسبة الى الثور لا الى الثورة ، لأنه هو بعينه الذي طعن بخنجره الطبيب الفرنسي « كلوت بك » الذي جاء به محمد علي الكبير والي مصر ، المملوك الأمي الفطن المجدد

الأريب ، وكلفه بتأسيس أول مدرسة نظامية للطب البشري في القاهرة •
ألم تقرأ مذكراته عما عاناه في سبيل تأسيس مثل هذه المدرسة ؟ ألم
يبلغك انه جاء بمئة وخمسين طالبا أزهرياً ليعلمهم الطب ، وكان هذا
الأشموني « الثوري » في عداد أولئك الطلبة • ولما قال الاستاذ الفرنسي
في احدي محاضراته أمامهم : ان على طالب الطب أن يتجرد من الأوهام
والأساطير والخرافات السائدة في ذلك العصر ، ليستطيع أن يمارس
مهنته عن علم ومعرفة وخبرة ، جابه الكثير من المتاعب والمصاعب لإزالة
ما علق في أذهان أولئك الطلبة الأحداث من أمثال هذه الأوهام • ولما
قال لهم على سبيل المثال ان الزلزال لا يحدث بسبب غضب هذا الثور
على أهل الأرض ، فيهتز وينقل الأرض من قرن الى قرن ، هب ذلك
« الأشموني » الضعيف العقل ، واستل خنجره وطعن به أستاذه لظنه
أن قد كفر بالثور وجدف • فهل علمت من هو هذا « الأشموني »
الثوري ؟ انه يؤمن بالثور كقوة خارقة يحمل الكرة الأرضية على قرنه ،
وهو يخطب الآن في مريديه من قصار العقول ، وأنصاره الأغبياء ،
مؤكداً لهم صدق قوله وزعمه ، وبما كان يؤمن به في السانقة - أم
المضحكات المبكيات - من أفكار وترهات • • (١)

غادرت هذا الشيخ الثوري ، وأنا أردد قول المعري ، متمنياً من

(١) أتى الدكتور سلمان قطاية ، أحد أساتذة الطب الجامعيين في
مقال نشره في إحدى المجلات على ذكر هذه الحادثة الطريفة التاريخية
نقلاً عن مذكرات الطبيب « كلود بك » التي عثر عليها في قصر عابدين بمصر
اثر سقوط حكم الملك فاروق •

العلي القدير ، أن يمسح هذا الثور البشري الى ثور حقيقي ، فذلك
أجدي وأتفع للناس والمجتمع :

قد نسخ الشرع في عصورهم فليتهم مثل شرعهم نسخوا !

x x x

ثم رأيت في زاوية من الأخدود فيما يشبه المحراب ، شيخاً متداعياً
ينتهل الى العلي المتعال ، بأحر ضراعة وأشد دعاء ، ويتمتم ويحوقل
وييسمل ، ويتأوه ويئن ويسجل ، فدنوت منه قليلا ، فاذا أنا أمام
الشيخ « علي الخزعلابي » صاحب المناقب والمقالب المتماري ، الذي
إفترى على الله كذباً ، وزعم أن باستطاعته أن يجعل السماء تمطر ذهباً ،
والسحب تهطل سمناً وعسلاً ، وأن بإمكانه أن يفجر الماء تفجيراً ،
ويأتي بالزن فتسيل سيلا قمطيراً ، ذلك أني أذكر أنه أذاع بين الناس ،
في وقت حبست السماء خيرها عن العباد ، فكانت سنوات شؤم عجاف ،
فعمّ البلاء ، وازداد الغلاء ، ودب القحط واتسع الجذب ، واشتد
بالناس الجوع والكره ، فاستغل الشيخ هذه الضائقة الخائفة ،
والعوادي الطبيعية الماحقة ، ليحقق ما كان يبيت في نفسه من شر ، وما
يخفيه عن القوم من مكر ، ومن أعراض بعيدة خفية ، يدفعه الى كل
ذلك شهوة عارمة قوية ، الى تولي زعامة كارزمية (١) ، فناشد الناس
في خطاب له من الإذاعة ، أن يقتدوا به اماماً في يوم (كذا) ذي شفاعة

(١) الكارزمية : في العلوم الاجتماعية الحديثة مصطلح مؤداه الزعامة
الروحية أو العسكرية الفوقية .

وضراعة ، ويتبعوه الى جبل قاسيون ، حيث يرقد الأربعون ، لبث دعاء الاستسقاء ، وأنه واثق بلا مرء ، ان المقيت المجيب ، الغني المغني ، المقسط الجامع ، المانع المعطي ، سيلبي الدعاء ، ولسوف تمطر السماء ، فتنبت الأرض ، ويحيا الزرع والضرع ، ويسود البلاد الرخاء • ثم حذرهم في اذاعته هذه مما يدعيه بعض أهل الغي ، من انهم اذا أقاموا السدود ومشاريع الري ، واستغلوا مياه الأنهار والأجواف ، استطاعوا القضاء على الجفاف ! وقال : ان مثل هذه المشاريع ما هي الا من صنع الشيطان ، وان على الأنام في كل مكان ، الاتكال على غوث السماء ، والالحاف في الدعاء ، والا حلت بهم اللعنات ، وباؤوا بغضب شديد من مجيب الدعوات • وتبعه في الموعد المضروب خلق كثير الى قمة الجبل ، وتوجهوا الى العلي القدير ، بقلوب عامرة بالايان ، والثقة بدعاء الامام ، وأنشدوا طويلا :

يا ذا المن والعطاء اسق العطاش تكرما ••• الخ

و شاء ربك العليم بذات الصدور ، المنتقم القهار ، الحسيب الرقيب الجبار ، أن يكشف الغطاء ، عن هذا الدعي المتنبئ المكار ، فظلت السماء باهتة عابسة ، فلاغيث همى ، ولا قطر سال وروى ، فالله - جلت عظمتة - لا يستجيب لدعاء من ضل وغوى ، وكذب وطغى وبغى •

وظل الحال على هذا المنوال ، أياماً وأسابيع ، فطال المطال ، وراح بعض من كان يصدق بنبوءة الشيخ ، وبما زعم وقال : فسأله أحدهم : لقد أكدت لنا يا شيخنا - يا كاشف الغطاء - ان السماء

ستمطر مدراراً ، اذا نحن تلونا معك الدعاء مرارا وتكرارا ، فلمٍ لم
يستجيب لك الدعاء ، وأنت من الأولياء ؟

لم يتراجع الشيخ أو ينكسف ، بل مضى في غيه ولم ينحرف .
(ولقد علمتنا التجربة التاريخية ان أمثال هؤلاء المتنبئين الكارزميين ،
أو من يدعون أنهم من الهادين المهديين ، لا يتراجعون ولا يتقهقرون
أمام الصدمات والأزمات) ، بل يمضون في دعوات تلو دعوات ،
ويستغلون ما طبع عليه العامة من إيمان بالخوارق والمخاريق . ولو أثبتت
الوقائع والشواهد للناس كذب ما يروجون وما يأفكون ، فيسوقونهم
الى نهاية الطريق ، مهما اشتد بهم الحرج والضيق ، ويحولون أظفارهم
من وهم الى وهم ، ومن إفك الى إفك ، أو الى ما هو أدهى وأكفى
وأمرّ ، يفعلون ذلك بخفة الحواة المهرة ، بتحويل انتباه النظارة الى
نواحي وهموم ومشاكل أخرى ، لطمس معالم الحقائق ، وإلهاء العامة
بالتوافه ، ولهذا صرح الشيخ في خطاب ناري آخر ، أمام جمهور كبير
من المريدين ، ان العلي القدير ، المجيب الدعوات ، أبى أن يلبي دعوة
قوم فاسقين ، ظهرت المرأة بينهم - وهي حريم - بلا حجاب ، في آخر
الزمان ، وراحت تتلقى العلوم الدنيوية ، وتتلقن العادات القوربية (١)
في المدارس والجامعات ، حيث يختلط - والعياذ بالله - الذكور
بالإناث ، في شتى الأمور والمشروعات . وهذا هو أس البلاء ، ومرد
كل داء ، وسبب ما يحل بالبلاد والعباد ، من محل وجوع وغلاء ، فالى
الجامعات الجامعات لذبح البنين والبنات ، والمعلمين والمعلمات !

(١) القوربية : يعني بها ولا ريب « الأوربية » .

وعادت بي الذاكرة الى الوراء ، واستعدت صورة أولئك العامة من الفقراء والأشقياء ، وكيف هاجوا وماجوا إثر سماعهم هذا الخطاب ، وكاد يقع ما ليس في الحسابان ، بعد أن صاحوا صيحة واحدة : يا للعار ويا للشنار • وكيف انهم في جميع الأحوال قد صبوا جام غضبهم ونفمتهم ومصيبتهم على نسوتهم وبناتهم وأخواتهم ، فأسدلوا عليهن الحجاب ، ولفوهن لفاً بالجلباب ، ، وأوصدوا من دونهن الأبواب ، وأنزلوا بهن أشد العقاب ، وجعلوا منهن القربان والضحية - وباللسخرية - على مذبح أضاليل الشيخ الخفية ، وأساطيره الخزعبلاوية • (ولهذا سمي بالشيخ الخزعبلاوي) •

وهكذا كان ••• وظل هذا الشيخ المرقعان ، يتمتع حيناً من الدهر بأرفع مكان ، يجمع الأموال ، ويقتني المطاحن والأطيان ، والشعب يعاني من آلام الفاقة والحرمان •

عرفني هذا « الخزعبلان » دون أن يمسه من لظى الأخدود خرف أو نسيان ، فبادرني بالشتائم والسباب ، وقال :

- ألحقت بي يا ابن الفانية الى هذه الدار الباقية ؟ لتجعل مني سخرية الأولين والآخرين في الأبدية ••• أما كفاك ما شهرت بي على صفحات الجرائد ، وكذبتني فيما ادعيت وجئت من بدائع ، ألا فاغرب عني ودعني الى دعاء ربي ألبي ، فليس غير الدعاء عندي بنافع ، ولا غير الرجاء بشافع •

قلت : أما كان الأجدد بك وأنت تمكر بالناس ، وتنطق باسم

السماء ، أن تستقصي قبل أيام مرصد الأحوال الجوية ، فينبئك أحدهم بما قد يطرأ على الطقس من تغيرات فجائية ، وما اذا كانت السماء ستمن على العباد برذاذ أم زخات ، أم ستمسك عنهم الغوث والنجاة ؟

نظر اليّ بشزر وقال : اني لا أومن بعلم الأرصاد ، ولا بالعلم في حال من الأحوال ، اني من الرجال الأتقياء • أومن بالدعاء ••• ألا فادعني أستجب لك •

قلت : أنسيت ما أنزل في الآية الكريمة (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) • ثم ما ضرك وأنت من سميت نفسك بداعي الدعاء ، لو أشفعت أحر الدعاء بخير الأفعال وصالح الأعمال ، وقديماً قيل « خير الأقوال ما كانت شواهد الأفعال » ؟

قال : عملي هو الدعاء •

قلت : ولكن جاء من هو مثلك من قبل ومن بعد ، من المتنبئين والدعاة والأدعياء ، فاعتمدوا قليلاً أو كثيراً على العلم والعلماء ، واستقرأوا من المقدمات نتائج ذات بينات ، فاحتلوا في قلوب الواعين الأذكياء ، والمغفلين البسطاء ، على حد سواء ، أرفع مكانة وأعظم شأن ، وجاؤوا الناس بعقائديات ونظريات ، وحكموا ولا يزالون يحكمون العديد من القوميات •

قال بعناد واصرار : أنا لا أومن إلا بالدعاء والسماء المدرار •

سألته : وهل بالدعاء وحده تنهض الأمم ، وتستفز الهمم ، وتنبث الأرض ، وتزدهر المدن ؟

رد متأقفاً متذمراً : لا تشغلني عن ذكر الله أيها الضال المضل •
ورأيت أنه قد آن الأوان لأقذفه بحجر ، يجعله يتطاير شذر
مذر ، فقلت له :

— بلغني أيها الشيخ الدعي الغني انك قبضت من احدى الشركات
المتنافسة ذات الاحتكار ، مبلغاً كبيراً من المال ، لتعرض الناس على
الدولة المستقلة الناشئة ، ولتفسد مشروعها الرائد في بناء السد العظيم ،
ولذلك انتحلت صفة الناطق باسم الرب الكريم ، فزعمت أن بناء السدود
واقامة مشاريع الري ، يتعارض وارادة السماء ، فهي وحدها التي
تروي الأرض وتسقي العطاش •

قال مصراً على فتواه : هذه تخرصات الكفار ، • كل شيء
يحيا بالدعاء •

وهنا تململ رضوان واكفهر ، وقال لي بعد أن نقد منه الصبر :
— ألا تعلم مع من تتكلم أيها الغر؟ ان هذا « الخزعلان » هو
من أطلقوا عليه في الأخدود لقب الثعلب الشيخ الخنفشار ، امام الفشار •
ثم ألم بيلغك ما قاله شاعركم : مخطيء من ظن يوماً أن للثعلب ديناً •
فسيبيله الوحيد الى الارتزاق ، الادعاء ثم الدعاء •

• • •

تحيرت — والرحمن — في أمر هذا الثعلب الانسان، ولو أن ابن المقفع
سمع بقصته ، لضمه حتماً الى من ضم من أنواع الحيوان ، وأنطقه

بلسان ثعلبة أو ابن آوى ، أو أحد الجرذان ، ولسمى كتابه كتاب
— كليلة ودمنة وابن الخزعلان — .

لقد علمت بعد حيرة طويلة ، ما انطوت عليه الآية الكريمة من
حكمة بالغة غابت عن أهل الشك في أسماء الله الحسنى : ومكروا
ومكر الله • والله خير الماكرين •

قبل أن أهم بمغادرة هذا الأخدود ، واكل من فيه ملعون ، إذ بي
أرى شيخاً وقوراً ذا لحية كثة بيضاء ، وشعر أجعد طويل ، يتبعه شيخ
آخر يشبهه في المظهر والجوهر ، فعرفتهما على الفور : انهما كارل
ماركس وفريدريك انجلز •

كان ماركس يشبه في شكله النبي موسى كما تخيله أحد النحاتين ،
أو كما رسمه الرسامون • وانجلز يشبه أخاه هارون ، يمشي وراءه
ليشد أزره ، ويحل عقدة من لسانه ، ليفقهوا قوله •

لمحت ماركس ينظر الى ما حوله بدهشة وعجب ، ثم تحولت
دهشته الى تفور واشمئزاز وغضب ، ولما دنوت منه سألتني بحيرة :
من قادني الى هذا الطريق المسدود ، وحشرتني بين أصحاب الأخدود ؟
ألا قل لي من اعتبرني صاحب دين عن غير يقين وأنا الذي ناديت (ان
الدين أفيون الشعوب) • أتراهم ألصقوا بي صفة العرافين والمنتبين
والمشعوذين ؟ في حين أنني ما قدمت الى الناس في عصري الا دراسات
في الاقتصاد والاجتماع ، ودعوت الى نصره المظلومين الضعفاء من أبناء
البرولتاريا والعاملين ، فجاءت دعوتي في (البيان الشيوعي) المشهور ،

دعوة علمانية اشتراكية ، لينالوا حقوقهم الشرعية ، في حياة كريمة
انسانية •

قلت : ولكن تلاميذك ومن أتوا بعدك من مريدي الاشتراكية ،
جعلوا من دعوتك ونظريتك المستقبلية ديناً ومذهباً ، انتشر في معظم
أنحاء المعمورة ••• نعم لقد جعلوا منك بشيراً ونذيراً ، وعليماً خبيراً ،
معبوداً وصنماً ، ثم انقسموا الى شيع وأحزاب ، وراح كل نفر أو طائفة
منهم يتاجر بالماركسية على هواه ، ويفلسفها وفق مصالحه ورضاه ،
كما فعل من قبل أتباع المسيحية ، فانقسموا الى كاثوليكية وأرثوذكسية
وبروتستانتية وألفية ، ومن بعدهم أصحاب ديانات أخرى انشق أتباعها
بعضهم على بعض ، وخرجوا على الناس بمذاهب وتفسير وشيع ،
لا تمت الى جوهر الدين بصلة أو نسب • وهكذا يا ماركس المسكين
كان • لقد أصبحت الماركسية الأممية ذات طابع أو صبغة قومية ، ما بين
روسية سوفياتية ، وصينية ماوية ، ويوغسلافية تيتوية ، ورومانية
تشاوشسكية الى آخر ما نبت في الأمصار من ايديولوجيات محلية ،
تتقاذفها تيارات وأهواء داخلية وتحولات اجتماعية ، ومطامح شخصية •

قال ماركس بغضب : ألا تبا لهؤلاء التلاميذ المناكيد ، قسماً بدماء
العمال والفلاحين ، التي أهدرت باسمي ، وتحت لوائي وباسم تعاليمي ،
كما تهدر دماء الضحايا في العصور الوثنية ، على مذابح الآلهة الوهمية
انتي أنا نفسي لست ماركسياً ، ولا أنتمي الى الماركسية !
لقد قلت هذا القول علانية ، وأنا لا أزال بعد على قيد الحياة ،
ألا فاسأل المفكر الفرنسي « روستون » عني ، اذ هو الذي كتب في
مذكراته ما يعني :

(تعرفون ان ماركس نفسه أيام كان يمر بفرنسا ، قيل له : هنا يوجد حزب اشتراكي انقسم الى قسمين ، فالأول يقول انه حزب ماركسي لديه ايديولوجية وفكرة ما ، والثاني غير اشتراكي ولا ماركسي لديه فكرة أخرى ، فأجاب ماركس : لست أعرف أيهما على صواب ، وعلى كل حال أقول أنا عن نفسي : أنا ماركس لست ماركسياً ، ان الماركسية تؤمن بالعلم ، والعلم لا حدود له ولا قيود وأنا لا أؤمن بأن العلم دين أو يجب أن يكون ديناً في يوم من الأيام) .
ثم نادى ماركس على صاحبه ورفيقه في المحنة :

— ويحك يا انجلز . ألا تدلني على طريق . . . ألا تأخذ بيدي للخروج من هذا المأزق والضيق ؟

x x x

أثارت في أقوال ماركس الكثير من التساؤلات والخواطر والتأملات والذكريات ، فأسفت أشد الأسف على ما فاتنا
لا ريب لو أن ماركس بعث حياً على الأرض مرة أخرى لكان أول أعداء الماركسية !

x x x

خرجت من ذلك الأخدود ، وأنا على أشد ما أكون من الوجوم والخمود . لقد ذكرني مَن فيه بما حلَّ بالإنسانية البلهاء الحمقاء ، من بلاوى وأرزاء ، على أيدي أولئك الأبطال من الزعماء ، ممن أطلقوا

عليهم المؤرخون في الدار الساخرة من ألقاب التآليه المغايرة ، فنعتهم تارة بأصحاب الجلالة والسمو والعظمة ، وأخرى بأهل القداسة والسماحة والفضيلة والغبطة والبركة • وأكثرهم من ساق البشرية الى مجازر وحشية ، وعاث في الأرض فسادا ، وملأ الدنيا دماراً وخرابا ، فذك معالم حضارات ومدنيات ، وقضى على أجناس وسلالات ، وأغرق بلاده وبلاد الآخرين بحمامات من الدماء •

تحيرت والله في أمرهم • ولذا تركتهم وشأنهم في ذلك الأخدود الملعون ، يرددون ويعيدون ويكررون ، ما كانوا في الساخرة يعتقدون ويؤمنون ويعملون ، بعد أن كف البصير القدير أذاهم عن الناس أجمعين ، وحشرهم هنا كجماعات وزمر وصنفهم كلاً على حدة يتآمر ويتآمر •

x x x

تداولني صبح وممسي وحنديس ، كأن لم يكن ثمة من يوم أو غد أو أمس ، فمررت بواد ذي ترج ، أخضر يتماوج ويلمع كالسندس ، فاذا بي أرى خلقاً كثيراً يلبسون البياض ، وبأيديهم سعف النخل يلوحون بها كالإعلام ، يقودهم الى الأمام ، حمل صغير بديع وديع ، وهم يشدون نشيد المحبة والمجد والسلام ، فسألت رضوان - كشأني معه على الدوام : ما شأن هؤلاء الناس ؟

قال : انهم من ذرية سام ومن بعده ناحور وتارح وابنه ابراهيم • وأصلهم في السالفة - كما روت كتب مقدسة - من برج بابل ، من

الذين حل بهم غضب الخالق ، فشئت شملهم الى قبائل وشعوب ،
وألسن من مختلف اللغات والنحل ، الى أن جاءهم المسيح المنتظر ،
فوجد قلوبهم على محبة البشر ، وعلى نثر الوثام بين الذراري والأنام .
وهكذا تراهم الآن ، ينشدون بلغة واحدة ، وقد دخلت الى قلوبهم
السكينة ، وحلت بينهم المسرة والطمأنينة ، في جنة دخلوها بسلام ،
فطاب لهم فيها المقام .

ثم رأيت قوماً آخرين يتقدمون من هذه الجماعة ، ويهتفون
بشعارات المساواة والعدالة والاخاء ، ويحملون ألوية منها البيضاء
والزرقاء والحمراء ، ويلوحون بقبضاتهم تحية الى السماء .

فسألت رضوان كذلك : من يكون هؤلاء القادمون الى المرج
الأخضر ؟

قال : انهم رهط آخر جاء بعد المسيح المرتقب ، دعا أيضا الى
الأممية والسلام والمساواة ، دون تمييز أو تفريق بين الأجناس والناس ،
على أسس حضارية من العدالة الاجتماعية ، والعلمانية الدولية ، والاخاء
بين أفراد الأسرة الانسانية ، ولعلمهم اليوم يلتقون بمن سلفهم من
الأقوام ، من دعاة الخير ، ورسل المحبة والسلام .

ثم رأيت الجمعين يلتقيان ، في هذا الوادي المقدس طوى - الذي
قدس مرتين في الأولى والأخرى - واختلط بعضهم ببعض ينكارشون (١)

(١) التكارش : مصطلح استعمل في العصر المملوكي ، فأتى به
المؤرخون في وصف نوع من التحية والتكريم واللقاء بين الذات من

ويتصافحون ويهللون ويكبرون ، فعجبت لأمرهم أشد العجب ، وسألت كعادتي رضوان عن السبب ، فقال :

— والله في خلقه شؤون ، فلا عجب أن يلتقي الجمعان في وادٍ أو خندق واحد ، ما دام الهدف يجمعهم على صعيد ثابت ، ألا وهو الحب والسلام ، والعدل والوفاء ، فهل في ذلك ما يعيب في هذا المقام ؟

قلت في سري : من يدري ؟ فقد يأتي يوم بعد ألوف من السنين ، تصبح فيه ناطحة السحاب — مقر هيئة الأمم المتحدة — أسطورة تروى على مر الزمان ، كأسطورة برج بابل ، وسفينة نوح والطوفان ، ولكن بعد طوفان جديد ، اثر ذوبان الجليد من القطبين ، بسبب تفجر قنبلة أو قنبلتين ، لست أدري أهما كهدروجيتين أم بلاستوسنيتين (٢) .

ثم مرت في درب من دروب الجنة ، بايوان كبير تعلوه قبة من الذهب الإبريز ، لم أشاهد لها مثيلا في النجف الأشرف ولا طشقند ولا تبريز ، فولجته وقد تملكنتني الرهبة ، فاذا أنا أمام رجال من ذوي

المنايك والسلاطين ، فاذا اجتمع مملوك بأخر من طينته وأصله ، حك بطنه ببطنه دليل المحبة والمودة ، ولذلك سمي هذا الشكل من العملية بالتكارش بلا مرية . وقد زالت هذه العادة في الوقت الحاضر من معظم أقطار العروبة والإسلام ، واستعوض عنها بالقبول والضم والعناق ، ولا سيما قبيل أقلاع الطائرات ، الا أنها لا تزال التحية التقليدية في بعض الأصقاع الهندية .

(١) البلايستوسين : نسبة الى العصر الجليدي الذي ظهر فيه أول مظاهر — على عهدة علماء السلالات البشرية — أنسان «البلاستيون» ، بعد حدوث التقلبات الجوية والجغرافية المعروفة في باب العلوم الجيولوجية .

الوقار والهيبة ، عرفت بعضهم ممن التقيت بهم في الأولى ، وعرفت
الآخر من رسومهم وآثارهم ، وقد تكدست أمامهم أكوام من المجلدات
والأسفار والقواميس والمعاجم ، بما ينوء عن حملها الحمير والجمال ،
ولا عجب في ذلك فنصفها - والله أعلم - من مشتقات ومرادفات
البيعر ، ونصفها الآخر اما مستعرب أو دخيل .

سألت رضوان : ألا قل لي بربك ماذا يفعل هؤلاء ؟
قال ساخراً من جهلي : أنسيت الدؤلي وسيبويه والرازي
والفيروزبادي ، وعبد القادر المغربي ، ومحمد كرد علي ، وأبا حيان
الجندي ، وخير الدين الأسدي وسواهم ؟ وجلهم من كبار اللغويين
والنحاة ، ومنهم أعضاء في المجمع العلمي العربي .

قلت : نعم والله لقد تذكرت . . . ولكن ماذا يصنعون الآن تحت
هذه القبة ؟

قال : انهم يأترون باللغة العربية ، وهي كما تعلم - زادك الله
علماً - اللغة الرسمية في جنة الخلد السماوية .

أرهفت السمع الى ما يدور بينهم من جدل وحوار ، فعادت بي
الذاكرة الى ما وصف به شيخ المعرة النحاة ساخراً من شقشقتهم ،
متخيلاً مجادلاتهم ومناقشاتهم كهدير الجمل ، اذ قال فيهم : « لو عاش
الدؤلي حتى يسمع كلام الفارسي في الحجّة - ما فهمه فيما أحسب -
الاّ فهم الأمة هدير السنداب (١) . ثم لا يسخط الله عليك والملكان ،
اذا لم تدرِ لمَ ضمت تاء المتكلم وفتحت تاء الخطاب » .

(١) السنداب : الجمل الفليظ الشديد .

سمعت أحدهم — ولا أخاله إلا سيويه — ذلك الفارسي الذي
عناه المعري يصيح :

— أصارحكم الحق ، وأنا أول من وضع للغة الضاد قواعدها ،
وحفظ لها أصولها ، ونخشي على لغة القرآن من الإقراض والضياع ،
بعد أن استشرى بين العرب والفرس اللحن والرطن ، واختلطت اللهجات
من كل قطر ووطن ، وكثرت الاشتقاقات ، وتنوعت القراءات ، واختلفت
الترادفات والمستعربات ، بين قرشية ويمنية ونبطية وآرامية وسريانية
وفارسية • أقول أنا الذي قدمت الى العربية تلك الخدمات ، وأنه قد
آن الأوان لإدخال اصلاح على لغة الضاد ، لجعلها أهلاً لأن تكون
لغة أهل الجنان ، تضاهي بسلاستها وسهولة تناولها وتعلمها لغة
الأسبرنتو ، التي يستطيع أن يفهمها سكان الصين كأهل الأسكيمو ،
اذلاً فرق في الفردوس ، بين قريش ومضر والهكسوس ، فان عمدنا الى
التسكين ، وأخذنا بأحرف اللاتين ، واختصرنا الكثير الكثير ، من
المشتقات والترادفات ، والزيادات في القراءات لعَمَت العربية وانتشرت
بين البرية ، وسهلت على افهام الشيب والشبان ، والهور والولدان ،
فهل من اعتراض على هذا البيان ؟

كان أول من أقره على اقتراحه هذا ، ابن الأسدي الحلبي التقدمي ،
ولكن ضجة كبرى ثارت في القاعة ، تلاها خطب طويلة وصراخ ومقاطعة •
ثم تبع ذلك كلبه جادل وحوار ، فأدركني الملل والدوار ، فقد مجت
النفس ورب الكعبة ، تلك الجعجعة والشنونة والشقشقة ، فعاهدت
ملاكي الحارس أن أغادرهم الى غير رجعة •
وهكذا فعلت •

× × ×

الأيدي المقطوعة

« سارق العلانية يقطع سارق السر ا »
المستطرف
« من يطلب العدل يلقى الموت »
الفردوسي

عرجت وأنا على الدرب ، على مطلع قرب النار ، فشهدت قوماً
يخرجون منها صفاً صفاً وهم على أشبع ما يكون من الشئ والتشويه ،
الا أن شيئاً واحداً استلقت اتباهي فيهم : انهم جميعاً من ذوي الأيدي
المقطوعة ، فدهشت لحالهم ، وسألت رضوان وأنا حيران : ما شأن
هؤلاء الناس ؟

قال متبرماً مشمئزاً : أصلهم قوم من اللصوص ، من قرية بجوار
نيسابور ، تقشى في أهلها الفساد ، واستشرت بينهم أعمال القرصنة
واللصوصية والانتزاز والإختلاس ، فجاءها يوماً امام عادل ، نزيه
فاضل صارم ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ففضى بين أهلها بالشرع ،
وأقام فيهم الحد ، فحكهم أول ما حكهم ، بقطع يد لص سارق رغيف ،

ثم جاءه نبأ أن أصحاب المخازن والأفران يحتكرون ويتلاعبون بأرزاق وقوت العباد ، ويخلطون الطحين بدقيق من الجير ، فاستدعاهم الى دار القضاء ، وحكم بقطع أيديهم جميعاً بلا استثناء . ثم بلغه أن تجار القرية يتعاملون بالربا الحرام ، ويتزرون الناس أضعافاً مضاعفة ، خلسة وعلائية ، فاعتبرهم كذلك من اللصوص ، وقضى بقطع أيديهم جميعاً عملاً بالفتاوى والنصوص .

ثم جاءته سعاية فيها وشاية وأية وشاية ، ان عمال الدولة في القرية يرتشون دون وازع من ضمير أو رقابة ، فلما تبين له صدق الخبر ، أقام فيهم الحد ، وقطع أيديهم جميعاً بكل جد .

ثم جاءه نبأ آخر أن عامة القرية وهجاجها ، يتعاطون لعب الميسر والأزلام ، ويسطون على بعضهم بعضاً تحت جنح الظلام ، فحكم عليهم بعدل ومضاء ، دون استئناف أو تمييز أو التماس أو رجاء ، فقطع أيديهم كذلك بلا استثناء .

أما الآن فقد صدر قرار بالعفو عنهم ، بمناسبة عيد الرحمة في الجنة ، عساهم أن يشوبوا الى رشدهم ، ويعودوا عن غيهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

قلت متسائلاً حائراً : من بقي إذن في القرية بيد غير مقطوعة ؟

أجاب رضوان : لم يبق سوى الامام الفاضل ، الحاكم الصارم ، إذ ما ان بلغت مسامح الذات الشاهنشاهانية أخبار هذا الامام العادل ، حتى أمر بترقيته الى مصاف الأمراء ، وأقطعه ولاية من الولايات ، فأصبح بحمده تعالى وعونه من أكبر الأغنياء ، صاحب أملاك وأموال

وأطيان ، وعبيد وخدم وحشم، وظلت يداه وحدهما - ولا شلت يداه -
تلعبان في الجيوب لا لعب اللصوص ، بل لعب الملوك •

وهكذا التفت الناس حوله جميعاً يداً واحدة !

قلت في سري : سبحان مقسم الأرزاق ، بين الملوك والأمراء ،
وفاطر الأرض والسموات !

وتذكرت قول عمر بن عبید عندما مر بجماعة وقوف فقال ما هذا ؟

قيل : السلطان يقطع سارقاً : لا إله إلا الله • سارق العلانية يقطع سارق
السرا (١)

x x x

(١) (المستطرف من كل فن مستظرف) - ١ : ٢١١ •

1/2

3/8

1/4

1/2

3/8

1/4

1/2

شاني فاضغط
ما في الآخرة من
اء ، يفوق آلاف
عبارات للقرارات،
ما عندنا صنع
ولا تخلف وراءها

- ٦ -

وجد وحنين

• سواء السبيل
كطيف حلم لطيف

« لا يعرف الوجد الا من يكابده
ولا الصباية الا من يمانيهها »

ري ، وما عساوي أنا
الجوى ، وطال البعاد
لو هبطت على جبل
بأند ، وما ألاقه هنا
حرقه وشوقاً الى لقاء
حريتي زهرتي « وردتي »

طل على الفيحاء ، وعلى
ل الأربعين ، ويروى أن في

أدركني الكلل والملل ، ولحظ عليّ رضوان ما منيت به من
فشل ، فنظر اليّ نظرة ملؤها الأمل ، وقال :

لا تجزع ولا يخامرتك اليأس ، فما عليك من بأس ، وليس
للإنسان الا ما سعى • وأن سعيه سوف يثري •
تساءلت بحيرة : وماذا ترى ؟

قال : أرى أن تيمم وجهك شطر جزيرة الأحلام ، فتلك هي التي
اختارها الحكيم العليم خير مقام ، لأهل العلم والبصيرة ، وذوي المعرفة
والسريرة ، فقد تجد عندهم ضالتك الأثيرة و « وردتك الحمراء »
المثيرة ، لعلها تشاطرهم هناك العمل في مخابرتهم ، أو انها ترصد النجوم
من منائرهم ، ولا سيما انك أتيت على وصفها بأنها تحب العلم والعلماء ،
والحرية والأحرار ، من أصحاب الرأي الفضلاء ، ذلك ان جزيرة الأحلام
موئل الأعلام ، ومنارة الفكر والالهام ، ففيها حشر فلاسفة وعلماء ،

همت على وجهي في دروب الجنة ، كمن أصابه مس " أو خلة ،
فمشيت تارة خبياً ، وطرت أخرى هيباً ، أردد مع الشاعر المجهول
قوله المأثور :

أتمضي وفي كل درب خطاها ترن بأذني كأني أراها

الى أن بلغت البحر الأزرق ، وأمواجه تتكسر على صخور
كالزبرجد ، والزبد ينحسر كالعسجد ، عن رمال ذهبية ، وشيطان
لازوردية ، تنعكس من فوقه على الغمام أنوار بهية ، تفوق بروعتها
ألوان قوس قزح الشعشعانية •

كان ينتشر هنا وهناك على الرمال وتحت الصخور ، غلمان وحوور ،
يسرحون ويمرحون ، يتضحكون ويتضاجعون ، يحوم حولهم أطفال
من الملائكة صغار الأجسام ، كبار الأحلام ، يتراشقون بالماء ويحيطون
حيث يحلو لهم فوق ظهور وبطون المستلقين النيام ، ويوظفونهم
بدغدغات وهمسات وأنغام ، ويرددون مع عمر الخيام :

ألا أفيقوا غفاة البشر

فما أطال النوم عمراً

ولا قصر في الأعمار طول السهر •

وكم كان أولئك الملائك الصغار ، يشبهون فلذات أكبادنا وهي
تدب على الأرض ، في لعبهم ولهوهم ومرحهم وعبتهم • وتمثلت قول
الشاعر :

إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض •

رها ، فينعش

تلك ولا تراهم ،

بواء اللامعقول ،

ليه وييصرون •

يدعو الى إيمان

، فقد أصبحت

أقصدها لوحدهك

وهذاك الى ضالتك

يب أن فئة كبيرة

في سربالك ، فيكفي

رطة ، حتى أسمع

وظفرت اليهم وتذكرت قول السحاب فيهم :

عصافير أم صبية تمسح

عليها من سنا غير يلمح

هبط أمامي أحد أولئك الملائك الأطهار الصغار ، يرفرف بجناحيه
ويضحك • وسألني عما أود وأبحث ؟

سألته : ترى ماذا وراء هذا الأفق البعيد ، المتلألئ المديد ؟

قال بصوت موسيقي ناعم رقيق :

— وراء الأفق « جزيرة الأحلام » أيها الصديق •

قلت : هل لك أن ترشدني إليها يا ملاكي الصغير ؟

هتف بحمية الأطفال :

— هلم بنا الى هذا القارب ذي الشراع ، فليس أحلى على
قلبي من صحبة ذي يراع •

دهشت لحدة ذكائه ، وشدة دهائه ، فسألته : وما أدراك أني من
الكتاب وحملة الأفلام ، ولم يتركوا لي في الفانية كتاباً أو أثراً ؟

أجاب ببراعة الأطفال : استنتجت ذلك من فجوات بين أصابعك ،
خلفها القلم الذي علم به الانسان ما لا يعلم ، لكثرة ما أمسكت به
وكتبت ••• ألا فاعلم اننا هنا في دار الخلد كذلك نقرأ الفكر ، فلا
تخفى علينا خافية ، فنظرتنا الى ما حولنا ثاقبة •

أنست - وأيم الحق - الى هذا الملاك الطفل، وداخني الزهو بما لم
تحدثني به نفسي ، أو يدور في خلدي • وهكذا شاء ربي - جلّت
حكيمته وبالعمري - أن يمهلني في الأولى ، ولا يمهلني في الآخرة ،
فذاع صيتي بعد مماتي في السموات العلى ، فأحسن الملائك - حتى
صغارهم - وفادتي وتكريمي • وكثير من قبلي ماتوا مدحورين
مغمورين ، فتناساهم الورى ، في الأرض والعلا ، بعد أن طواهم الردى
مع من طوى !

وجرى بنا الشراع رويدا رويدا •

شاهدت على مقربة مني العديد من الزوارق والسفن والمراكب
تمخر العباب الهوينا ، فحسبتها للوهلة الأولى أسطولا من الأساطيل ،
بيد أنه تبين لي بعد لحظات ، أنها ليست أساطيل حرب وقتال ، بل
جاريات في اليمّ تعج بالبحور العين والولدان المخلدين ، تحلق فوق
رؤوسهم طيور البحر ، من كل نوع وشكل ، تسبح بحمد فاطر
الكون ، ومبدع السموات والأرض ، وكانت خفيفة الظل ، مباركة
الحركة ذات شدو ونغم ، يطرب لها حتى من به سقم ، ومن تحتهم
تتراقص في المياه الرقراقة أسماك مرجانية ، زاهية الألوان ، سريعة
اللف والدوران ، وتقف على الجاريات ملائك تلمسك بالمزاهر والعيدان ،
ويرقص بعضها على أنغام الكمان ، وعلى ايقاع الدفوف والصنوج
والبرزان ، فتملأ الجو غبطة بالحن لم يأت بمثها ابن سريج أو الفارابي ،
ولا فاغزر أو شوبان •

سألت ملاكي الحارس الصغير : ما اسمك اليوم في الجنة ؟

قال : سعد •

قلت له مداعباً : يا لك من غلام ذكي لبيب ••• أنت تعلم ولا ريب أنني تركت ورائي في الغيب ، ابنة حلوة صغيرة اسمها سعدى ، تشبهك في طفولتها وبراءتها أشد الشبه ، قتل لي بربك هل أنت ذكر أم أنثى ؟

قال بغطرسة وفخار : لا ذكور ولا اناث بين الملائك الأطهار ، فكلنا سواء •

قلت ساخراً : أتعني انكم جميعاً مخشون ، لا فرق عندكم بين اناث وذكور • فمن أين اذن تتناسلون وتتكاثرون ؟!

قال غير مبالي بتساؤلي : إننا هنا دائماً خالدون ، معاشر نورانية باقون • كل منا تابع لملاك عظيم ، كأمثال ميكائيل واسرافيل وجبرائيل وعزرائيل ، فتلك مشيئة الله فينا وان خالفت نواميس تؤمن عقولكم القاصرة الضيقة ، أنها سنة من سنن الطبيعة •

سألته محاولاً تغيير مجرى الحديث الذي لا يفيد : ألا قل لي بربك ترى ما فعل الله بابنتي « سعدى » في الدار الأولى ، أملي ومناي وفلذة كبدي ، وأثراً من روحي ودمي ؟

قال : قلت لك مرة اننا نقرأ الفكر ، ولكننا لا نرجم بالغيب ، ولا نلعب بالكعوب (١) • ان علم ذلك عند علام الغيوب ، من يدري ،

(١) الكعوب : نوع من ألعاب الاطفال عند العرب يتطيرون منها ويتفألون ويرجمون !

فربما اليوم غدت من النساء اللواتي يشار اليهن بالبنان ، أو لعلها
أدخلت في زنزانة أو ليமான ، تسير مع ذوي الأقدام الحافية ، على الرمال
اللاهبة ، تحت أشعة الشمس كاوية ، لا لشيء إلا لأنها قالت في أحدهم
كلمة نائية ، كما يحدثنا بذلك كل من يأتي إلينا من الفانية !

صرخت في وجهه الجميل قائلاً : كفى يا سعد مزاحاً ♦♦♦ لقد
أثرت كوامن أشجاني ♦

قال : اذن دع « سعدى » لسعدها وطالعتها ، فلا يستطيع عقل
إنساني أو ملائكي أن يحدد أو يرسم لك مستقبل انسان أو أي مخلوق
كان ، فذلك خاضع لقانون الاحتمال ، وما أدراك ما قانون الاحتمال ،
في حساب العوالم والأكوان ♦

سكت على مضض ، وشعرت بالضيق والجرح ، كمن أوصد في
وجهه « باب الفرج » فلا قضي لي وطر ولا خلتصت الى غرض ♦
ذلك اني سبق وسمعت في الدنيا من التوقعات والتنبؤات ما أقض
مضجعي ، وزاد في بلواي وحيرتي وهلعي ♦

شردت بنظري الى ما كان حولي من روائع ما لخلق وأبدع ، فاذا
بزورق يشق عباب البحر من أجمل ما صنع ، يختال بغادة ذات حسن
باهر ، وطرف أحور ساحر ، كأنها بعينها عروس البحر ، أو حورية البر ،
إذ يتوج هامتها اكليل من الغار والزهر ، ويشد خصرها النجيل ، حزام
مرصع ليس له من مثيل ، وقد تمثلت في هذا الخصر الدقيق قول
الشاعر :

قد طوى بطنها على سعة العيش ضمور في حقوها وانطواء

وهب نفح من ريح الشمال ، دفع بالشرع نحو نسمات الجنوب ،
الى جزيرة أحلامي ، ومحط رجائي وآمالي ، فعبّر الى خاطري قول
ابن هانيء :

أحب الشمال اذا أقبلت لأن قيل مرت بدار الجيب (١)
ولا شك ان كذا فعله اذا تلقته ريح الجنوب
غناء قليل ، وحزن طويل تلقي الرياح لما في القلوب

ما ان لفحت الصبية ريح الشمال الباردة ، حتى اتصبت كفنص
بان ، أو كعود خيزران ، فأمسكت بسارية الشرع ، ونظرت اليّ
بعطف واشفاق . وكم تمنيت لو صورتها على مختلف الأوضاع ، فلا
ريب انها ستبدو آية من الفن والإبداع ، فترمز الى انها كآلهة البحر
عند الإغريق بلا نزاع ، اذ تكشفت غلالتها الحريية الشفافة ، عن مفاتن
جمالية أخاذة ، فبرز منها نهذان كأنهما رماستان ، وساقان مسدءتان
رشيقتان ، وفخذان ملفوفان ، أنعم من الرخام ، ما حلم بمثلهما رسام ،
ولا نحت شبيهاً لهما لا انجيلو ولا رودان ، تعلوهما بطن ضامرة ،
تنوسطهما سرّة وأية سرّة ، تتسع لأوقية من المسك والطيب والعنبر ،
كما أجمع على ذلك في وصف من هي أو مثلها شعراء ورواة العرب .
ولما استدارت قليلا الى الورا ، هبت نفحة أخرى من الهواء ، فتبدى

(١) الشمال : ريح الشمال الباردة .

ردف لا هو بالثقل ولا البدين ، لا يضاهي كئبان عالج ولا ييرين (١) ،
فقد كونه - البديع الخبير - أحسن تكوين ، فذكرني هذا الردف
وكله لطف ، بما أتى عليه شيخنا المعري من وصف ، في رسالة الغفران
المشهوره ، مداعباً ساخراً من شعراء عصره ، الذين خيل اليهم أن
البحر العين في جنات النعيم ، يبلغ طول الواحدة منهم أكثر من ميل ،
وأن أردافهن ككئبان الرمال ، تضاوي بحجمها وضخامتها الجبال ،
إذ قال في جارية خاطبته :

— من أنت يا عبد الله ؟

قال : أنا فلان بن فلان .

فتقول : اني أمني بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة

آلاف سنة . . .

ويخطر في نفسه وهو ساجد ، ان تلك الجارية على حسنها ضاوية ،
فيرفع رأسه من السجود ، وقد طار من ورائها ردف يضاهي كئبان
عالج ، أو أنقاء الدهنا ورملة ييرين وبني سعد ، فيهل من قدرة
— اللطيف الخبير — ويقول :

(يا رازق الشرفة وسناها ، ومبلغ السائلة مناها ، والذي فعل
ما أعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجهال ، اسأل أن تقصر بؤص هذه

(١) ييرين وعالج وأنقاء الهنا وبني سعد : تلال من الرمال والكئبان
تشبه الجبال في شبه جزيرة العرب .

الحوارية على ميل في ميل (١) فقد جاز بها قدرك حد التأميل) •

أما الحوارية التي أراها الآن تمسك بالشرع السابح بالنور ، فهي على النقيض من تلك التي رأى أبو العلاء ردفها وهو ساجد ، أو راع ، يضاهاى كئبان ييرين أو عالج ، وتمنى على ربه - اللطيف الخير - أن تكون أقصر عدة أميال أو فراسخ • ان من أراها أمامي ذات تركيب تشكيلي فني ، وابداع فيه منتهى الذوق الجمالي ، فيها من تناسبٍ ونسب في الصورة ، ما خلدن تولوز لوترك النافذ البصيرة ، ذلك القزم النبيل ، في لوحات رائعة ثقلا عن غايات « الطاحونة الحمراء » في باريس ، وفيها كذلك من المفاتن الجذابة ، ما يضاهاى رسم « الدوقة » العارية ، التي خلفها « غويه » في تحفته الغالية ، فحكمت عليه محاكم التفتيش في اسبانيا زورا ، بالإعدام حرقاً أو شنقاً ، بتهمة تعاطي الفحش سراً ، ورسم ما لا يجوز رسمه شرعاً •

وجرى الشرع بالفاتنة الحسناء على مهل ، ولوحت بيدها - سلمت يدها - مودعة بعد أن طبعت على رؤوس أناملها بعض القبل •

x x x

ثم رأيت السابحات الفاتنات يقفزن من أعلى السفن الجاريات ،

(١) الميل في حساب العرب كما جاء في المراجع : الفرسخ يعادل ٣ أميال ، والميل كما جاء عن ابن السكيت مسافة من الأرض على مد البصر •

ويلحق بهن فتية أشداء مفتولو العضلات ، فيترشقون بالمياه البللورية ، ويتقاذفون الكرات المطاطية، الحمراء والصفراء والذهبية والوردية، ويتسابق أحدهم ليمسك بالآخر ، فتلتف ساق على ساق ، ويطول اللف والعناق ، ولا تسلني عما يحدث بعد هذا اللقاء والالتصاق ، من ضم ولثم ، وما يتبع ذلك حلالات طيباً بلا إثم ، فإناث الجنة لا ترتوي بماء الحياة ، وذكرها لا تلين لهم قناة •

مرت عبر خيالي أمام هذه الصور الرائعة ، ما أنى كذلك على ذكره الكاتب الانكليزي « هارولد لاسكي » من وصف لعالم الغد ، في كتابه الشهير (العالم سنة ألفين) بعد الميلاد ، وعما توقعه بما سينعم به العباد ، من أمن وسلام ، ومحبة ووفاء ، وكيف ان الناس هكذا سيفترشون الأرض ويتمددون على الأعشاب والرمال ، وينعمون على هذه الشاكلة تحت الشمس بالدفاء والحب والحنان ، فيتضاجعون كما يحلو لهم ومتى أن لهم الأوان ، وعن ذلك على خاطرهم في أي مكان • فلا يؤخذ انسان بجزيرة انسان ، اذ لا مكبوت يبقى عندهم ولا حاسد بينهم ولا عزول ، لا مريض بهوس جنسي أو مصروع أو مهبول ، فالحب والغزل والعناق كله مباح • سواء أكان ذلك في الحدائق أو على الشيطان • ومن يدري ما سوف يحدث على كوكب الأرض ويجد في آخر الزمان ، من تقاليع وفنون ومبتكرات وصناعات ، بما يحير العقول ويطيش بالألباب ، ويفوق ما كان يراودنا - نحن المتخلفين - في اليقظة والمنام ، من أخيلة وأوهام وأحلام • فمن كان يتصور مثلاً أن يخاطب انسان آخر على مسافة مئات الألوف من الأميال ، ويرى

صورته وهي تنطق وتعبّر أحسن تعبير ، عبر موجات وموجات من الأثير ، على شاشة بللورية صغيرة ، كالمراة السحرية في قصر الأميرة الأسيرة ، تراها تعكس لها رسم حبييها وأمير أحلامها مذ كانت صغيرة ، — كما روت لنا ذلك شهرزاد الساحرة ، وهي تتلاعب بخيال السلطان الطاغية ، في قصتها طوال ألف ليلة وليلة — ثم من كان يتصور أن يفلق الانسان الذرة ، ويحط أقدامه على سطح القمر ويبلغ المريخ والزهرة ؟ حتى ان ذلك الكاتب الانكليزي الخصب الخيال ، لم يكن ليحلم بحال من الأحوال ، لما وضع كتابه المذكور في الثلاثينات من القرن العشرين ، ان النواة ستفجر على هذا الشكل الرهيب ، مع ان أكثر ما بشر به من مبتكرات ، قد تحقق بعد الأربعينات ، وما تلاها من عقود وسنوات .

x x x

مرّ بي شراع أبيض آخر ، يجري بمركب مزخرف يتبختر ، وعلى متنه صبية هيفاء غيداء ، لا هي بالبيضاء ولا السمراء ، بل درية غلساء ، ذات عينين خضراوين واسعتين ، وشفقتين ممثلتتين كبيرعمين حمراوين ، أو وردتين نديتين .

دنا المركب مني رويداً ، فتأقت النفس الى لقائها ولو هنيهة ، وسألت ملاكي الصغير من تكون هذه الغادة ذات الشعر الناعم الطويل والقدم المشوق النحيل ؟ قال :

ألم تسمع في قديم الزمان ، باسم مطربة اشتهرت « باسمهان » ، ذات صوت رخيم ونغم حزين ؟

قلت : بلى • والله لقد سمعت عنها الشيء الكثير ، من قال وقيل ،
وكان لها في عصرنا أرفع منزلة وأعلى مقام • واني أحنّ الى سماعها
لأشرف الآذان بشدوها وغنائها ••• ألا ترى معي انها غصن بان ، وحلم
كل فنان ، فهلمّ بنا اليها الآن ••• الآن •

وقفزت الى مركبها غير عابئ بأني قد أغرق ، فرنت اليّ بنظرة
يشوبها الأسى والقلق ، وقالت بصوت فيه بحة : أما كفاني مطاردة
وقحّة ، فاذهب يا غريب عني ودعني وحدي لهمي ، فلم أعد أنشد
لأحباء بعدما حدث لي ولا أغني !

سألتها بلهفة : فديتك ماذا حدث لك ؟

قالت متأسية باكية : لقد ضقت ذرعاً بمن كان يلاحقني في الفانية
ويطاردني ويعذبني ••• لقد سئمت حتى عشرة الملوك والأمراء
والباشوات والكبراء ، ومن هم على شاكلتهم من الثقلاء ••• أما كفاني
ما عانيت •• أما كفى لهذا الجسد الناحل أن يهتصر ويعتصر ، وأن
يقضي كل فاجر أفاق منه الوطر ، ومن الجمال - أحياناً - ما ينقلب على
صاحبه نعمة بدل أن يصبح نعمة •• هيا فانصرف عني بلا منة ولا ذلة •

وهنا تدخل ملاكي الصغير في الأمر ، فحام حولها وطاف - ويا له
من ملاك جواد معطف سريع الحركة المباركة كالقراش - ومال عليها
وهمس بأذنها بكلمة سر وأيّ سر ، فاذا بشغرها يفتنر ، عن ابتسامه
مشرقة كشفت عن أسنان كالدرّ ، فمدت اليّ يداً فاعمة على الفور ،
وصافحتني بحرارة ، وقد فارقتها على حين غرة الكتابة والمرارة • ثم
طبعت على جبينني قبلة ود وصدافه •

تساءلت اسمهان : أحقاً أنت فلان بن فلان ، الذي أنقذ حياتي مرة
في فندق أمية بالشام ، يوم همّ باغتيال جماعة من الغوغاء ، بحجة اني
كنت عميلة لبعض أولي الشأن ؟

قلت : لم أقم وقتئذ الاّ بما تفرضه الشهامة والمروءة ، ازاء امرأة
مستضعفة بريئة ، تلوك ألسنة السوء سمعتها ، ويشوه الكاشحون
سيرتها .

قالت ضاحكة : صدقت والله *** يبدو لي تماماً ان عين الرضا عن
كل عيب كليلة . آه لو تعلم كم عانيت في الأولى من مرض وخوف
وفقر ، وما لقيت من الذئاب البشرية من أذى وضر وشر *** لهذا
تراني الآن أمخر وحدي في هذا البحر ، وكم في البحر من سحر .
وهكذا أنست بوحدتي وبحراي ، ولزمت شراعي ، وكتمت همي !

قلت : هوني عليك أميرتي - أنت همي - أرجو أن تكوني قد
شفيت *** إذ أراك الساعة قد غدوت غضة بضة ، تفيض عيناك بالحنان
والمحبة . الا اني قبل أن أعادرك لشأني أود أن أطرح عليك سؤالاً
طالما راودني . هل صحيح ما نشره وأذاعه عنك التابعي ، ذلك الصحفي
الألمعي ، صاحب المدرسة الحديثة ، في الصحافة العربية المصرية ، التي
تجمع بين الوقائع والخيال ، والحقيقة والأوهام ، والنقد والتقريض ،
والمديح والهجاء ؟

أجابت بعد تردد قصير : كان التابعي لي نعم الصديق ، أحسن الله
اليه ونجاه من كل ضيق ، الاّ أن شأنه كشأن سائر الصحفيين ، لا تخلو

روايته من المبالغة والتحويل ، فأنا لا أستحق ما أعده عليّ من أوصاف ،
وليس كل ما قاله عني هو عين الصواب ، وفيه منتهى الانصاف •

وعنّ لي قبل الوداع أن تنشدي قصيدة من تلك التي طار
صيتها واذاع فقلت :

— بأبي أنت وأمي هلاًّ أسمعني قصيدتك المشهورة « عليك
صلاة الله وسلامه » ؟

قالت بدلال : لا والله لن أنشدك هذه القصيدة العصماء ، لأن
اذاعات العروبة والاسلام ، كانت ترددها صباح مساء • بل سأغنيك
شعراً لابن هانيء ، لم تنشده مثله غانية قبلي من الغواني (١) • وانطلقت
تفرد بأعذب الألحان :

لم أبك في مجلس منصور	شوقاً الى الجنة والحدور
لكن بكائي لبكا شادنٍ	تقيه نفسي كل محذور
فات لسان الوصف لكن ذا	تغذيه نفسي جهد مغدور
تتيج أنوار سماوية	قرين تقديس وتطهير
جوهره روح واعراضه	قد ألفت من مارج النور

(١) الغانية : كما هو معلوم من أهل الأدب ، من استغنت بجمالها
وحسن خلقها عن التجميل والبهرج والتبرج •

ما ان انتهت من شدوها الحنون ، حتى رأيتني أذرف الدمع
الहतون ، كما فعل من قبلي ابن هانيء في مجلس المنصور بن عمار ،
لما غنت « جلتار » هذه الأبيات للندامي والسمار . وكان النواسي قد
نظم مثل هذا الشعر ، ليكون نشيداً لجنة الخلد ، أو كأنه قال ما قال
ليس في صاحبه « جنان » بل في اسمهان ، أو وردتي الحمراء .

تساءلت اسمهان قائلة : علام البكاء ؟ (١)

قلت ملوحاً بيدي : الوداع !

x x x

(١) « علام البكاء ؟ » : هكذا كان عنوان المقطوعة الشعرية المذكورة
للحسن بن هانيء .

2
3

4

5

6
7

8

9

10

جزيرة الاحلام

« يستطيع الانسان أن يصنع من افكاره
عالمًا جديدًا باهرًا . عالمًا يختلف عن
عالم الآخرين ، أن يخلق فردوسًا
جديدًا ! »

جان بول سارتر

ألقيت بالمرساة على شاطئ الأمان ، وهبطت جزيرة الأحلام ،
وأنا على أحسن ما يرام ، بعد نزهة بحرية ممتعة ، شعرت من خلالها
بالطمأنينة والثقة . ونظرت الى تلك الجزيرة الساحرة ، فإذا بها تفوق
جزر كابري وهاواي وسومطرة جمالا وفتنة ورونقا ، بروايها الخضراء ،
وتلالها الحمراء والصفراء ، وذراها المكسوة بالثلوج الناصعة ، وسفوحها
وسهولها الزاهرة ، وينابيعها المتفجرة ، وشلالاتها الهادرة ، وأنهارها
العذبة الجارية ، وجداولها الرقراقة الهامسة . أما بيوتها فذات أشكال
وألوان منسجمة غير متنافرة ، تعلو بعضها قباب مختلفة التصاميم
مبتكرة ، وتقوم القصور على عمد من رخام ، وقناطر مزخرفة بدقة
وانسجام ، تفوق بهندستها المعمارية ، القصور اليونانية والعمارات

الرومانية ، والدور الأندلسية ، والحصون القوطية والبيوت الفكتورية .
وفيها منارات عالية ذات أبراج ، ينعكس عليها من النور أمواج ،
فسألت ملاكي الصغير عما تعنيه هذه المنارات الباسقات ، فقال : انها
منارات العلوم والمكتشفات ، ومراصد الأفلاك والمجرات ، وما وراءها
من عوالم أخرى لا تزال لخافية ، وقوى عظمى لا تدركها العقول مهما
بلغت من العلم مرتبة عالية . ومهما اشتط بها الخيال الى متاهات بعيدة
المنال سامية . حقا لقد صدق في جزيرة الأحلام الحديث الشريف : ان
الجنة مائة درجة . تسع وتسعون منها لأهل العقل وواحدة لسائر الناس !

قلت في نفسي : ويح الانسان ما أشد فضوله ، فلا شيء يروي
غليله ، أو يثنيه عن مواصلة الصراع ، لاكتشاف المجهول بما يستطيع
ولا يستطيع ، حتى ولو انه بلغ المنشود المأمول ، في الفردوس المفقود .

استقبلني على الشط أطفال بيض وسود ، وصفر وحمر ، يحملون
في أيديهم باقات من الزهور ، وتطفح وجوههم البريئة بآيات البشر
والحبور ، وطافوا من حولي كالملائك يهللون ويرقصون ويزغردون .
وتبعهم على هذا المنوال في حفل الاستقبال ، غيد حسان ، من أجمل
شكل وأحدث طراز ، وطفق الجميع يسعون الى التعرف على الضيف
الجديد ، ليقدم كل منهم اليه ما يشتهي ويريد ، فبادرت احدي المضيفات ،
وكانت ذات وجه مشرق صبوح بالسؤال : عما اذا قد رأت « وردتي
الحمراء » بين حسان هذه الجزيرة الخضراء ، فأجابت باسمه : هنالك
ورود وأزهار ، مختلفة الأشكال والألوان ، من حمراوات وبيضاوات ،
ولا أدري ما تعني من هذا السؤال ؟

ثم أردفت ضاحكة : اذا كنت ترمي الى ما يتوق اليه العشاق ، فما عليك الا القيام برحلة كل مشتاق ، ففتش عنها بين الخمائل والرياض ، وعلى شطآن البحار والأنهار ، أو لعلها قابعة عند سفح في أعالي تلك الجبال ، في كوخ شتوي جميل ، تحلم بعودة الحبيب !

بعد أن قضيت وقتاً ممتعاً بين هاته البراعم المتفتحات ، والأزهار اليانعات ، على ساحل رملي كالذهب ، ألهو وألعب وأسرح وأمرح ، رأيت أن أفعل بما أشارت اليّ به المضيفة الحسنة ، فعزمت على تسلق تلك الجبال الشم ، علني أعثر على « وردتي الحمراء » متحدياً بذلك المحال ، ولو لفها الضباب ، أو حجبتها غني الغمام .

الجبال الخضراء شاهقة تكسو ذراها الثلوج ، وتلف هاماتها الغمام كالغهن المنفوش ، أو كالقطن المندوف ، لا تضاهيها في سموخها وروعها وبهائها ، جبال الألب وكشمير ، ولا لبنان ولا الأندلس ، وقد اقتصبت على مدارجها البيوت المحاطة بالحدايق المعلقة ، وأشجار الصنوبر العتيق ، والسرو ذو العتيق .

لفحتني وأنا على الدرب المعراج ، نسيمات الشمال ، فبعثت في نفسي السكينة والاطمئنان ، وتنسمت أريج الأزهار ، فسكرت بلا مدام من عطرها الفواح ، وشعرت كأني أشتم رائحة التراب والوطن ، وما كان يفوح منه من شذى وعبق ، وكم من روائح ذكية ورياح ، أثارته في الخواطر ذكريات دفينه وأسراراً لا تباح ، والهوى - كما قال السهرودي شاعر الراح والأرواح - فضّاح !

بينما كنت أسير الهويناء ، في حديقة معلقة غناء ، شاهدت رجلاً

مديد القامة ، ذا لحية بيضاء كثة لا يخلو من الهيبة ، وأنتف أفتس
وجبين عريض وضاح ، يشع من عينيه الطيب والذكاء ، فاذا أنا أمام
العلامة « داروين » صاحب نظرية النشوء والارتقاء والتطور ، ومؤلف
« أصل الأنواع » الذي اشتهر صيته في العاجلة وذاع ، فقلب بما أتى
به من آراء ومفاهيم الناس والعلماء ، فجعلهم يعيدون النظر في معارفهم
البالية ، ويتراجعون عن الكثير من « الدوغماتيات » الرثة السالفة •

شاهدته ويده شبكة ، وهو يقفز من خميلة الى خميلة ، ويجري
وراء فراشات رشيقة خفيفة ، فاستوقفته برهة عما هو منهمك فيه من
عمل ، دون أن يدركه كلل أو ملل ، وقلت له : لقد جاءك اليوم عاشق
فاقد الأمل ، يبحث عن وردته الحمراء الضائعة ، كما تبحث أنت عن
« حلقتك المفقودة » لتكون كالدرع الواقية السابغة ، لصد كل نقد
وتعريض بنظرياتك السابقة •

نظر اليّ بعجب وقال : آية « وردة » تعني يا هذا ؟ لقد سلخت
العمر في البحث عن أصول الأنواع ، من نبات وحيوان وانسان ، فابحث
عن ضالتك أنت لدى الشعراء ، لا عند علماء الأحياء ، فأنا لا أفقه
شيئاً بمثل هذه الثرثرات ، فلا تصرفني عن بعيتي ، فيما لا ينفع ولا
يجدي •

وهمّ بمغادرتي لشأنه •

الآن اني استوقفته مرة أخرى وقلت له مداعباً : ما أنا بشاعر غاوٍ
ضال حالم ، ولا بمتصوف شارد ساهم ، انما أنا رجل باحث عن
المتاعب ، أجدّ في السعي وراء الحقائق ، وما تخفيه الأنفس من كوامن

ودوافع ، ألا خبرني - فديتك بأبي وأمي - هل صحيح ما قاله باسكال من أن وجه العالم قد تغير من جراء شكل أنف كليوباترة ، وبعد ألفي سنة تقريباً تغير وجه التاريخ مرة أخرى من جراء أنف آخر هو أنف « داروين » - أي أنفك - وهل صحيح انه في عام ١٨٣١ - كما تعلم - أوشكت أن تصدم في أعز أمانيك ، وأنت طالب في معهد اللاهوت ، وقد رشحك صديقك « هافلو » بالنظر لكفاءتك من جهة ، ولأن هذا الصديق هو أستاذ علم النبات في جامعة كمبردج من جهة أخرى ، لتكون في عداد أفراد البعثة البريطانية العلمية الموفدة على ظهر السفينة « بيغل » - وعزيز على المرء أن يصدم في أعز أمانيه وهو في ريعان الشباب - إذ أن شكل أنفك لم يعجب قبطان هذه السفينة ، فتردد في اصطحابك بمعينه بحجة ان صاحب مثل هذا الأنف - وأشرت الى أنفه - لا يتمتع بالعقلية العلمية البجائة ، ولا القدرة التي تؤهله ليتدو عالماً في الطبيعة (١) .

أجاب داروين متبرماً من هذا الحديث العقيم :

- ويحكم أشغلون أنفسكم بأنفي ولا تهتمون بفعلي وعلمي •
اني وان كنت غير واثق من اعتقادي بالله ، الا أنني واثق تمام الثقة من اعتقادي بالانسان • وأنا أو من أن الانسان في المستقبل سيكون أكمل منه اليوم ، فهل لا ترون الى أبعد من « أنوفكم » أتم وأنفي (٢) •

(١) انظر كتاب « عباقره العلم » - جورج سلستي .

(٢) مقتطف من حديث نشرته الصحف في حينه أدلى به اليها داروين نفسه .

وهمّ بمغادرتي ساخطاً عليّ وعلى جهلي ، غير أنني استوقفته
قليلاً مرة أخرى وسألته بالحاح :

— هل حقاً ان صديقك العالم الألماني « ارنست كاهل » الذي
عاصرك قد صرح باسمك أن ليس ثمّة من إله ، وان الانسان أصله
قرد؟ (١) .

أجاب داروين : لا أنا لم أقل ان أصل الانسان قرد أو سعدان ،
بل تلك أراجيف روجها بعض الأعياء ، أو من في قلوبهم وعقولهم مرض ،
أو انهم من التوافه السخفاء . ان ما أتيت به من نظريات ، وما توصلت
اليه من مقولات وبعض الحقائق البيّنات ، أساسه التجربة والمشاهدة
العلمية ، والمكتشفات المترابط بعضها ببعض في سيرورة متواصلة
لا حدّ لها ولا بتعد .

قلت : إذن فعمّ تبحث عنه الآن ، وأنت في دار البقاء ، حيث
لا تطور ولا ارتقاء ، ولا نشوء واستعلاء ، فقد بلغ كل شيء فيها
حد الكمال ؟

(٣) « ارنست كاهل » : عالم الماني ١٨٣٤ - ١٩١٩ دافع عن نظرية
التطور ومواقف داروين ، وعندما دعا الى مؤتمر في روما حضره العلماء
واحرار الفكر ، أمر البابا باقامة الصلوات لطرد روحه الشريرة من
العاصمة الإيطالية ، كما أمر بتبخير المدينة تبخيراً مقدساً من رجسه
الووبيء . كما صدر المرسوم البابوي بتحريم تداول ومطالعة كتبه « تاريخ
الخليقة » و « عجائب الحياة » و « الحلقة الأخيرة » . وسوى ذلك من
الكتب العلمية التي تتناول بالبحث أصول الأنواع والنشوء والارتقاء .

قال بروية وتواضع العلماء : لا كمال الا الله . . . لذلك فاني
لا أومن بالخلود والأزلية ، حتى في جنة الخلد الباقية ، فكل شيء في
الكون متحرك متبدل متحول متطور . . اني أبحث اليوم عن السر
الدفين الكامن في قصر أعمار أهل الفانية ، وطول أعمار الكائنات الحية
في كوكب الجنة !

وأطرق وقد استغرق في تفكير عميق ، ثم قال : لا شك أن في
المسألة سرّاً من الأسرار ، لم يكتشف كنهه بعد أحد من العلماء . من
يدري فقد يكون في عسل الجنة أنواع من الفيتامينات تمد الخلايا
بمادة لم يتوفر وجودها - أو لم تكتشف بعد في الدار الأولى - فتجدد
نشاطها كل حين ، وإلى أجل غير معلوم ، أو قد يكون في خمرها
ما يشفي الأبدان ، ويسمو بالفكر والخيال . وفي ذلك حكمة من ربّ
الأرباب !

قلت في سري : من يدري ، قد يصبح مثل هذا الأجل معلوماً ،
إذا دب الفساد في أهل النعيم واستمرأوا العيش الهني والرغد المقيم ،
فطغوا وبعوا ، واستكبروا ، وتجبروا ، وانقسموا إلى طوائف وشيع ،
يحتربون ويتنازعون ويتخاصمون على الغنائم والمكاسب ، وعلى ما أنعم
الله عليهم به من خيرات وبركات !

ومرّ بقربنا في هذه الأثناء ، رجل أعجف يرتدي السواد ، فنظر
إلى داروين نظرة ملؤها الحقد والضعينة والاشمئزاز ، ومال عليّ قليلاً
وهمس في أذني همساً يشبه فحيح الأفعى :

— دعك من هذا الرجل . . . انه ضل بن ضل . . لا يتزعزع عن

تفكيره العقيم حتى في جنات النعيم ، فلا تأبه لما يبثه في الأذهان من
سُموم ، فكل ما أتى به من آراء ، كفر وبهتان والحاد .

ثم مضى في سبيله وهو يتلفت يمناً ويسرة ، كمن فعل فعلة منكراً ،
أو تلبس إبليس ، فوسوس للناس بأمر خبيث .

عدت الى مواصلة الحديث مع داروين العلامة الكبير ، غير آبه
بموعظة من يحمل مثل هذه الأفكار ولو كان قائلها منكر أو نكير !

سألته : ألا فاصدقني القول أيها العالم الجليل ، بم غفر لك
الغفور الرحيم ؟

قال : لعله غفر لي أنني كنت صادقاً مع نفسي ومع الآخرين ، فلم
أمار في الكشف عن الحقائق أحداً من الأولين ، فجابته الناس بالحقيقة
والحق عن تجربة ويقين . وهل الحق غير رب العالمين ؟ !

وأردف قائلاً وهو على ثقة من نفسه : ان شئت زيادة في الدلائل
والبيانات ، فاذهب وانظر الى « حديقة الحيوانات » في الجانب الآخر
من هذه المنعطفات ، وسوف ترى فيها ما يحير العقول ، ويشب لك
صحة ما قلت وأقول .

ثم لوح بشبكته مودعاً ، وابتعد عني مهولاً ، ولست أدري الى
أين ؟ أتراه كان يجري وراء فراشة أو نحلة ، أو حشرة أو زهرة ، لم
يكن لها من وجود في الحياة الدنيا المنقرضة .

x x x

اتجهت أبحث عن حديقة الحيوانات ، وبعد مسيرة استغرقت مني زهاء الساعتين - حسب توقيت الجنة - وقد تكون عامين - حسب توقيت الأرض ، بلغت رابية نصب عليها سرادق كبير ، علقت على مدخله لافتة كتبت بخط عريض : (حديقة الحيوانات البشرية) • فولجت هذه الحديقة الغريبة ، دون حاجة الى شراء تذكرة دخول ، فاذا أنا فعلاً أمام مشاهد تحير العقول •

كانت ثمة سلسلة من أقفاص واسعة • في كل قفص نموذج يمثل إحدى السلالات البشرية ، منذ بدء خليقتها وتطورها قبل ملايين السنين ، ومعها جميع الكائنات الحية التي مرت بعمليات كبيرة من هذا النوع منذ ما يقرب من خمسمائة مليون سنة وأكثر ، أي منذ زمن (الكامينوزوك) الذي ظهرت فيه الثدييات ، وما يحيط بكل سلالة من تقلبات مناخية وأجواء جغرافية •

كان أول ما استلفت انتباهي تسلسل التطور البشري حسب تداول الدهور والأزمان ، وقد علقت على قفص لوحة ترمز الى اسم ذلك الزمان ، فبدأت أول ما بدأت بمشاهدة انسان الزمن (الكاينوزوكي) حيث ظهر انسان يمتاز بالذكاء والى جانبه نوع من القرود العليا • كان ذلك بعد مضي الزمن (الميزوزي) الذي حصلت فيه على الكوكب الأرضي تقلبات جووية وجيولوجية ضخمة ، واختلفت العلاقة بين اليابسة والماء •

ثم انتقلت الى قفص إنسان (النياندرتال) الذي عثر أول ما عثر على آثاره وبقاياها في أوروبا • ثم إنسان (بكين) وإنسان

(الأسترلوبيتكس) - الذي اكتشفه الأستاذ رايموند في جنوبي
افريقيا - وهو الانسان الذي يمثل الصلة بين طلائع البشرى والقردة •

ثم وقفت برهة أمام قصص إنسان (لايتال) الذي عثر على بقاياها
العلماء الصينيون عام ١٩٦٣ • وتعتبر مجتمه من أقدم الجماجم في
العالم حتى الآن • وقدروا تاريخه الى ما قبل ٦٠٠ ألف عام •

كانت هذه النماذج تمثل بوجه عام الانسان المنتصب القامة •
وقد دهشت اني لم أشاهد انسان (الحلقة المفقودة) فسألت أحد
القيمين على الحديقة من خزنة الجنة - وكان عالماً متضلعا بمثل هذه
الأمر على ما يبدو - •

- أين أستطيع العثور على قصص انسان (الحلقة المفقودة) ؟

أجابني بعد تردد قصير :

- ان هذا الانسان موجود في قفص منعزل ، ولا يزال خاضعاً
لدراسات مطولة ، فهو همزة الوصل بين العائلة الانسانية ، والعائلة
القرمية ، فإن شئت القاء نظرة عليه ، فاذهب بهذا الاتجاه المعاكس الى
القفص رقم واحد • ان كل ما تشاهده في هذه الحديقة يشبه الى حد
بعيد ما تخيله وتوقعه صاحبك الدوس هكسلي في كتابه « العالم في
الألفين » حول اقامة حديقة في كوكبكم الأرضي تضم زمراً من بقايا
الأقوام المتوحشة الآخذة بالانقراض ، ليشاهدها الجمهور الحديث
المتنمدين ، ولتكون عبرة لمن يعتبر ، ولتأتي برهاناً ساطعاً على صحة
نظرية التطور والارتقاء ، والسعي من أجل البقاء ، والعمل في سبيل
حياة أفضل •

قصدت حيث أشار القِيم العالم ، فألفيتني وجهاً لوجه أمام الجد الأول ، فاذا به تنطبق عليه مواصفات ومقولات القاص العلمي الخيالي « فركورس » في قصته المشهورة (مصرع إنسان الحلقة المفقودة) .

ها قد تحققت أمنيته في دار الخلد ، فشاهدت ما كانوا يطلقون عليه « الانسان القرد » ، في قفص كبير مع عائلته ، يتراشقون بالحجارة ويلهون ويعبثون ويتصارعون ، انهم أشبه ما يكون بالقردة ولكنهم ليسوا بقردة على كل حال ، أطرافهم طويلة ، وأصابعهم دقيقة ، وأظافرهم حادة . وشعورهم كثة ، أما جماجمهم فهي تشكل زاوية حادة . أما إناثهم فأوراكن عريضة ، وصدورهن ممتلئة ، ولا شعر ينبت على وجوههن ، وشفاهن غليظة كشفاه الزنوج ، وأنيابهن قاطعة ، لا ينقطن عن المضغ والثرثرة . أما طريقة الكلام عند هذه العائلة البشرية الأولى ، فتشبه الى حد ما صراخ القردة ، ولكنها ذات ذبذبات متفاوتة ، قد تدل على معانٍ لا تزال عنا خافية ، فلو أحصينا مائة ذبذبة منها وصرخة ، لخلصنا الى انها تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً ينياً .

وساقني المطاف الى أقاص أخرى ضمت نماذج بشرية قديمة ، وجدت في أجيال مختلفة خالية ، فعثرت بينها على الانسان الذي كان يعبد الدّب . وعندها تذكرت قول « ه . ج . فلور » أستاذ تقويم البلدان في جامعة ويلز ، اذ سبق وأشار في سفره القِيم (تاريخ العلم) الى : « أن همّ الصيادين الأوائل كان منصرفاً كله الى مشكلة الحصول على القنينة ، وقد وجدت في الأراضي السويسرية وفي جنوبي ألمانيا

شواهد ممتعة على انشغال أذهانهم بهذا الأمر في أوائل الحضارة (الموسيترية) أو في الفترة السابقة لها • وقد عثر بعض الباحثين على جماجم منضدة لدبية الكهوف ، وعثروا الى جانبها على شلو من الأشلاء الكبرى • وتدل الدلائل على أن الصيادين في ذلك العهد كانوا يجتزون رؤوس الدبية وينضدونها ، ويجعلون الى جاذ برأس الدب مفصلا من مفصله الكبرى بمكان خاص في الكهف ، ويحيطونها بجدار يشبه المحراب من حجارة منسقة الشكل بحيث تكون شبه خزانة أو تابوت له غطاء • ولا مندوحة من القول أن هذه الأشياء انما هي قرايين أشبه ما يسمى في العصور التالية بالقرايين • وهذا شاهد على أن الإنسان في هذا الطور الأقدم لمجتمع الصيادين القناصين قد أصبح على أبواب الدين • ثم عثر عدد آخر من الباحثين على أقوام همجية يقيمون عيداً لكل دب يقتلون « • »

وانتقلت الى ققص آخر ، فيه نماذج من بشر بشعة جداً ، تقف خاشعة أمام مجموعة تتلوى من الديدان وهي تخرج من جيفة أحد موتاهم •

سألت القيم : ما لي أرى هؤلاء الناس البشعين ، هكذا صامتين خاشعين •

أجابني ساخراً : انهم يؤدون عبادتهم الخاصة بهم — ونحن هنا نحترم معتقدات كل الأجناس ان لم تلحق الأذى بالناس — ألا تعلم انهم يعبدون الديدان التي تخرج من جثث الموتى • كان عندكم على الكوكب البائد بقايا من هؤلاء البشر المتوحشين في اوستراليا حتى

أواخر القرن العشرين • ونحن نعتبر هذا النوع من العبادة ، كأول فلسفة للإنسان ، إذ عندها بدأ يفكر في الخلق ويتكون لديه شيء ما من الدين ، ويعجب ويتساءل كيف يخرج من الميت حي ؟! انهم يرون في الدودة ما يمثل روح فقيدهم العزيز الراحل ! •

وهنا تذكرت ما أورده العميد طه الهاشمي في كتابه (أصول الديانات) حول هذه العشيرة الأسترالية القديمة ، وكيف ان عبادة الديدان اعتبرت في نظر الباحثين في هذا المجال ، كدليل على نهضة بني آدم الفكرية والفلسفية والروحية !

x x x

قال القيم : سأقودك بعد ذلك الى قفص عجيب ، ترى فيه ما لا يخطر لك على بال ، من نماذج بشرية ، أصبحت بعون القادر المتعال ، ذات خصال وفعال ، بعد أن كانت في الأولى همها الأول الخصام برعونة والإقتتال •

وأخذ بيدي الى قفص ذهبي ، واسع الأرجاء ، فيه موائد مستديرة ، وثريرات متدللية كبيرة ، تلتف حولها شخصيات ناتئة بارزة خطيرة ، عرفتها لأول وهلة من رسومها التي ملأت الدنيا في عهدنا ، وشغلت الناس ، من مختلف القوميات والأجناس •

إن بين هذه الشخصيات حكاماً وملوكاً ورؤساء كثيرين ، كانوا في الفانية على خلاف مقيم ، فاذا بهم الآن - بنعمة الله - أصدقاء أحياء متفاهمين !

قلت : يا للعجب * اذن فقد أصبحوا هم كلهم في قفص من ذهب ،
كنماثيل من شمع أو دمي أو لعب ، أو « روبوطات » من معدن وخشب ،
لا أصحاب زعامات وقيادات ، وتكتلات ومعسكرات ، وجيوش جبارة
ومدمرات *

قال القيم : رويدك ولا تستعجل الأمور ، واستمع الآن الى
ما يقولون ، ولسوف تدهش ولا ريب أن تراهم على جانب كبير من
الروية وحسن النية ، بعد أن تفتحت بصائرهم على حقائق الخلق ،
فأصبحوا على أكرم خلق ، واعتبروا بماجروا على دنياهم وعلى أنفسهم
من كوارث وويلات ، بعد أن تبدلت مفاهيمهم لسنن الحياة ، بفضل
ما أدخل على أبدانهم وعقولهم من ضوابط واصلاحات ، لا على طريقة
الكمبيوتر الإلكترونية البالية ، بل بطريقة أكثر عملية وعلمية ، ألا
وهي الطريقة « الاستقلالية الطفراوية » التي ظهرت للخزنة الأعلام ،
نتيجة تجاربهم على الأنام ، تلك التجارب التي كانت محظورة في عهدكم
السحيقة ، فلم تجر على بشر منذ بدء الخليقة !

سألت القيم متلهفاً على معرفة ما لم أقرأ في كتاب ، أو أطالعه
في باب ، من أبواب علوم الأحياء ، والأشياء ، أو الفيزياء والكيمياء :
- وكيف كان ذلك ؟

قال بايجاز : ان شرح هذه الطريقة قد يطول ، وقد يصعب عليك
فهمه كما ينبغي ويكون * ولسوف تتدارس الأمر فيما بعد ، في مجمع
العلماء القريب من هذا المكان *
وهكذا كان *

x x x

لم أخرج من هذه الحديقة الحيوانية البشرية بمجرد فكرة عن تطور السلالات الانسانية ، بل خرجت منها بفكرة واضحة - استناداً الى المشاهدة - بما يربط بين انسان القرن العشرين ، الذي صدف وكنت أحد معاصريه ، وبين تلك السلالات المنقرضة ، من صلات عضوية وفكرية وروحية ، بل قل أيضاً نفسية سيكولوجية ، فقد شاهدت في حركاتها وسكناتها - أي السلالات المنقرضة أو تلك الآخذة بالانقراض - وطرق معاشها وتخطبها وتعاملها ، ومعتقداتها ، وأساليب دفن موتائها ، وإيمانها بالتعاون والتمايم ، وسوى ذلك مما لا يزال عالقاً في أذهان الدهماء والعامة والخاصة في الدار الفانية ، ومما لا تزال آثاره باقية بادية في تصرفات الناس المعاصرين وحركاتهم وسكناتهم ، حتى في إيماءاتهم وإشاراتهم ، وبعض ملامح وجوههم وأشكالهم ، الأمر الذي يؤيد وجهة النظر الذي ذهب إليها « دزموند موريس » مؤلف كتاب (حديقة الحيوانات البشرية) وكتاب (الإنسان القرد) فقد حاول في هذين الكتابين أن يبين الصلة الوثقى بين تصرفات انسان القرن العشرين ، وانسان الغابات والبحيرات ، والصيد والقنص والافتراس ، وكيف ان شريعة الغاب لا تزال كامنة في روحه العدوانية ، وفي صميم أغواره النفسية ، وعقله الباطن والواعي ، وفي حياته الجنسية ، وفي الكثير الكثير من معاملاته المادية والتجارية ، وان اختلفت الأشكال ، وتنوعت الأسباب ، وتعددت الظواهر والمظاهر .

x x x

خرجت من « حديقة الحيوانات البشرية » وأنا هائم على وجهي ،

أطيل التفكير فيما نسجه الانسان حوله من أساطير الخلود ، بدافع من
غريزة البقاء والحفاظ على الوجود • وساءلت النفس ترى ماذا لو ظلت
تلك السلالات البشرية - التي شاهدها في أقفاصها الذهبية - خالدة
أبد الدهر ؟ أيّ خير يرجي من خلود قوم يعبدون الدببة ويقدمون
الديدان ! وآخرين يسجدون ويركعون للأوثان والأصنام ، دون
الواحد المنان ؟

ألا تكون تلك هي بعينها المهزلة الانسانية ، أو الملهة الإلهية ، كما
كان يحلو لدنتي أن يسميها ؟

ورنت في أذني وأنا على هذه الحال من انشغال البال ، آيات
قالها المعري في لزوم ما لا يلزم :

ونحن غواة يرجم الظن بعضا

ليعرف ما نور الكواكب والرجم

توهم بعض الناس أمرا فأصلوا

يقين أمور بات يتبعها الوهم

وقوله أيضا :

وهون اعدامي عليّ تحققي

بأنني وان طال التمكث أعدم !

ثم ألا يدل هذا البيت الأخير من شعر صاحبي المعري على عدمية
تفوق حد النهلستية؟

قلت في سري من يدري؟ فقد يحشر في مستقبل قريب، انسان
القرن العشرين، في مثل هذا المتحف العجيب، فينصب له قفص آخر
من فضة أو ذهب، يحوي مشاهد من غابات الاسفلت وناطحات السحب،
والبيئة الملوثة بمدخن معامل الحديد والصلب، يرافق كل ذلك هدير
وضجيج القطر والطائرات، وفرقة الصواريخ المنطلقة الى الفضاء
والعابرة القارات، ودوي المدافع المدمرات، بحيث يمكن مشاهدة
أشلاء الجثث المبعثرة، ورسوم المدن والقرى المدمرة، وقد يرمز هذا
القفص الجديد، الى صراع الانسان ضد أخيه الانسان، على أساس
من شريعة الغاب وبدافع من العدوانية، بشكل يفوق بوحشيته
وهمجيته ومأساويته، ما كان يفعله بلا وعي وادراك، انسان الغاب
بالذات، ومن ثم انسان الكهوف والبحيرات، أضعاف أضعاف المرات،
في سالف العصر والأوان.

x x x

لقد عمدت في هذا الفصل من (رسالة الراح والأرواح)، الى
الإشارة إشارة عابرة الى بعض ما خطر لي من معلومات، أصبحت
معروفة سافرة، وأثبتت على ذكر تتف من مساجلات ومناقشات أثارت
ضجة في الدار الساخرة، في مختلف الأندية والمحافل العلمية والدينية
والصحف والاذاعات المتضاربة المتنافرة. وكان أخشى ما أخشاه، أن

يحسب من قد يطلع على هذه الرسالة في يوم من الأيام ، اني قد رُمْتُ
من ورائها استعراض معارفي ومعلوماتي ، والتباهي بشيء من علمي
وأدبي . وفي الواقع هذا ما لم يكن ليخطر لي على بال ، ولا يلوح لي
بخيال ، لأن قلبي اذ يجري على القرطاس ، فانما يسكب ما يجيش به
صدري من عواصف وعواطف وأنواء ، وما يفتق عنه ذهني من رؤى
ومنظورات ، تقوم على ما اختزنه العقل من تجارب ومشاهدات ، وما
عاناها الوجدان من آلام وأشجان ، وما أوحاه الضمير اليّ بأنه حق
وخير وجمال ، فكان شأنني في ذلك شأن المعري - قدس الله سره -
الذي أملى العديد من الرسائل والأسفار ، تناولت شتى الأمور من أدب
وشعر وفلسفة ونقد ، فقدم للأجيال صوراً حقيقية ناطقة ، تنبئ كلها
بالحالة الفكرية والنفسية والاجتماعية والسياسية التي كانت تسود
عصره ، غير عابئ اذا هو أتى على سرد بعض الحقائق والوقائع ،
وشرح وتفنيد بعض الأوضاع والأحوال ، بما قد يؤاخذ عليه من رأى ،
أو يحاكم ويحكم عليه بالجحود والنكران ، أو ما هو أشد وأنكى من
أحكام ، نظراً لما تعرض اليه من سوءات مجتمع ساده الظلام ، وأعمى
عيون سواد الجماعة فيه التعصب والتزمت والكفران ، وغلبت على
عقولهم الأساطير والأوهام ، وما الى هنالك من أفانين وأباطيل الدعوات .
الإنبياء أصرح بكل اعتزاز وفخار ، أنني لم أضع قلبي في لخدمة أي
كان ، سواء أكان طاغية أم جبار ، أو صاحب غرض خفي ، داعية الى
الشقاق بين أبناء أمة واحدة أو بين الانسانية جمعاء ، فكنت لا أكتب
الإنبياء عن رأي حر ، ولا أزعّم أن رأيي هو الوحيد الرأي السديد ، وان
محاكمتي للأمر والأشياء وحدها هي الحكم الرشيد . واذا انتحل

صاحبي المعري في بعض الظروف والأحيان الأعذار - وهو الزاهد
بالجاه والمال والسلطان - في تبرير ما أملى في رسالته التي سماها
« رسالة الهناء » ، وحشاها بالنفاق والرياء ، على غير عادته في نقد كل
ما يخالف حكم العقل والضمير والوجدان ، فقد يكون عذره مقبولاً
في عصر كعصره ، أما أنا فلا أجد عذراً ، ولن أتحل سبباً ، لأضع قلبي
في خدمة المتاجرين بالأوطان والأديان ، أو أن أهبط إلى مستوى أدب
النخاسة على صفحات جرائد ومجلات ، تباع الذمم فيها وتشري لأي
كان . وهكذا عشت وكتبت وودونت وأرخت ، عشرات الكتب والأسفار ،
غير آبه أن تدر عليّ بدرهم أو دينار ، فقد سلخت العمر في جد وكد ،
وعراك مع الدهر ، ولم يفلت مني القلم الحر ، فعشت بما بذلته من
عرق ودماء ، على أمل عزيز المنال على كل إنسان يشعر بإنسانيته ، ويعتز
بكرامته ، ويجد في حريته رؤية حق ونور ، وشعاع حب يغمر القلوب ،
ويفتح البصائر ويسمو بالعقول ، وما كان الفشل إثر الفشل الذي
مُنيتُ به بين حين وحين ، إلاّ ويزيدني يقيناً على يقين ، بأن الخير
ستكون له الغلبة على الشر ، وإن هذا ما علمتنا إياه التجارب ، وما
حدثنا عنه التاريخ .

وإذا نحوت نحوَ فيلسوف المعرفة ورهين المحسنيين ، وتقمصت
فكره الثاقب في معالجة موضوع من أخطر المواضيع ، ألا وهو السيرورة
الإنسانية عبر تاريخها الطويل نحو الأفضل والأعقل ، بصرف النظر
عما فرض عليه تشاؤمه الكوني من رؤية مظلمة ، وبتقدير الفارق الزمني
بين عصره وعصري ، ونشأته ونشأتي ، ففي ألف من السنين ويزيد ،
طرأت على العالم تطورات وتحولات ، كبيرة ، وظهرت مبتكرات

ومخترعات كثيرة ، أثرت جميعها بطبيعة الحال في مجرى تاريخ الفكر الانساني ، وأحدثت من التغيرات في أساليب العمل ومنحى التفكير ، ما لم يكن ولا ريب ليخطر على بال أبي العلاء ، وسواه من أساطين عصره وأعلامه الأدياء ، ولكن النهج الذي سلكه المعري ظل حتى اليوم نهجاً سليماً يقوم على أساس من حكم العقل والضمير ، وعدم القبول برأي أو نظرية أو فرضية الا بعد التمحيص والتدقيق والاستقراء والتجربة الى أمد طويل ، لذلك نهجت نهجه ونهج من سبقه وجاء بعده من أحرار الفكر من الكتاب ، والعجيب الفذ الغريب ، في أمر أبي العلاء الشيخ الجيس الضرير ، انه استطاع أن يسبق فكر عصره بمراحل وأشواط ، ولعل في ذلك ما جعل أدبه يدخل في أدب الخالدين . وليس هو القائل في عالم الفضاء والنجوم والكواكب :

العالم العالي برأي معاشر كالعالم الهاوي يحس ويعلم
 زعمت رجال أن سياراته فيها العقول وأنها تتكلم
 فهل الكواكب مثلنا في دينها لا يتفقهن فهائد أو مسلم

ثم أليس في إشارته العابرة الى علماء الفلك ، والأطباء وما كانوا يعتقدون في زمانه خير دليل على صحة ما أقول ؟

أوليس هو القائل :

قال المنجم^(١) والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت اليكما

(١) المنجم : ما كان يطلق في زمن المعري على كل من يشتغل بعلوم الفلك ، ولا تعني هنا معنى آخر .

إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولي فالخسار عليكما

وقوله أيضاً :

عجبي لطبيب يلحد في الخا
ولقد علم المنجم ما يو
لق من بعد درسه التشريحا
جب للدين أن يكون صريحا

أوليس في هذه المقاطع من الشعر ، ما يدلنا على أن علماء الفلك
والطب - في عصره - كانوا يميلون الى الهرطقة والشك بيوم الحشر
والنشر ؟

وعلى هذا فقد أجمع من جاء بعد المعري من أدباء وكتاب كبار
وباحثين ومستشرقين ، على أن هذا الفيلسوف الساخر قد جمع من
بدائع الأفكار ، ودقائق التصوير ، وغرائب التشخيص ، وإشارات الى
كثير من العلوم والمعارف والفنون ، والتبحر والاستقصاء ، ما جعله
فريد عصره في التعبير عن أحوال وأفكار أهل زمانه .

x x x

ساقني المطاف على أطراف السفح ، الى منحني قرب النبع ، فاذا
أنا أمام سرادق طويل ، تعلوه لافتة كتبت بخط جميل :

(مركز الأبحاث الفضائية والأجرام السماوية)

فدفعني الفضول الى ولوج هذا المركز ، ولا سيما أنني كنت في

العاجلة أتوق شوقاً الى معرفة أحدث مكتشفات الفضاء ، واما اذا كان ثمة حياة وممات ونشور ، في كواكب أخرى غير كوكبنا الصغير •

شاهدت مجمعا من العلماء ، عرفت كذلك معظمهم من صورهم ورسومهم في السالفة، وكان بينهم أرخميدس وكويرنيكوس ، وغاليليو ، ونيوتن ، ووات جيمس ، وماري وبير كوري ، والبرت اينشتاين ، وتوماس هكسلي • ومن المتأخرين « هانز مارك » رئيس مركز أبحاث الفضاء في الولايات المتحدة الأميركية ، وصاحبه فون براون الألماني الأصل ، وشولكين عالم الفيزياء السوفياتي ، والى جانبهم كان يقف غاغارين الضابط الروسي الصغير أول رائد للفضاء في القرن العشرين •

كانوا يجلسون حول مائدة مستطيلة ، في صالة واسعة كبيرة ، فيها منصات عديدة عليها مجموعات كثيرة من الأنابيب والأنابيب ، وحولها رصفت ألواح وصناديق ، ذات أزرار ومفاتيح ، تنبعث منها ذبذبات وتصور تموجات ، فأصخت السمع الى ما كانوا حوله يتداولون ويتهامون ، فقال الدكتور هانز :

— لقد بدأت أبحاثنا في كوكب الجنة تؤدي ثمراتها المرجوة في كل حين ، فتحقق لنا ما كنا نصبو اليه في الأرض من بلوغ المجرات ، وتجاوزها في الأبعاد ، الى عوالم أخرى لا تزال عنا خافية ، ولنبطلق عليها تجاوزاً تسمية « القوادرات » أو ما شابه ذلك من أسماء ، ولم أكن مخطئاً في توقعاتي وخيالي العلمي اذ اختتمت بحثي في هذا المجال بقولي :

(قد يكون حقاً ان موارد الكوكب الأرضي محدودة ، ولكننا

لا تقول بالمثل ان المخيلة الانسانية محدودة بالتأكيد ... وهذا هو
المهم في الأمر) .

وعلق شولكين على قوله هذا :

— لقد تطورت علوم الفيزياء في أواخر أيامنا على الكوكب
الأرضي ، ووصلت نوعاً ما الى درجة عالية من التعقيد والعمق وتشعب
الجوانب، ولناخذ مثلاً على ذلك ، الفيزياء النووية ، وفيزياء الجسيمات
الأولية ، والبلازما وغيرها . ويتغلغل في كل ذلك جهاز رياضي واسع
يتمتع كل منها بطابع خاص منفرد . ولقد اتضح في العالم الأول أن أكبر
الشحنات الكهربائية في العناصر الموجودة في الطبيعة آنذاك هي شحنة
اليورانيوم ، وهي تساوي $92 / +$ ومعلوم ما كان لهذه الشحنة
النادرة من نسب وموازين . ولم نستطع من قبل ايضاح المعنى الفيزيائي
لبقاء التكافؤ ، وكان من المحتمل ألا توضح هذه التعريفات والتأكيدات
جوهر الأمر ، فعملنا جهدنا لاستبدال « الإحداثيات » الموجبة بأخرى
سالبة يكافئ التحول من نظام المحور الخاضع لقاعدة اللولب ذي
الالتفاف اليساري .

الآن هنا قد وفقنا الى اكتشاف عنصر آخر يفوق بأهميته وشحنته
عنصر اليورانيوم ، ولنسمه إن شئتم عنصر « الترابلاتنيوم » وهو في
تركيبه ومفعوله العجيب ، وقواعده اللولبية ، ما كنا نسخر منه نحن
العلماء في الدار الأولى ، ونطلق عليه اسم « حجر الفلاسفة » الذي كان
يحلم باكتشافه والافادة من شحنته علماء القرون الأولى ، ذلك اننا
بواسطة هذا « الحجر » الجديد نستطيع أن نأتي بمعجزة لم يكن

ليتصورها عقل بشري ، ففسير مركبات فضائية كبيرة وصغيرة ، عبر الفضاء الواسع جداً لنبلغ مجرات تبعد عنا بلايين السنين الضوئية ، وهذا كشف رائع ولا ريب ، سيسجل لنا بكل تقدير وفخر ، ليس في هذا المجمع وحسب ، بل في سجل التاريخ المحفوظ عند الرب .

ثم دار بينهم حوار علمي دقيق ، لم أفقه منه شيئاً بالتحقيق ، فأخذ العلامة اينشتاين دوره في الكلام ، وأسهب في شرح يناسب المقام ، فقال :

— تعلمون أيها السادة الأعلام ، أن ما وضعته من نظريات في الأولى أصبحت في متناول مفاهيم الأطفال ، كنظرية النسبية البسيطة ، والزمن والفضاء والجاذبية وسواها ، وقد أكدت بذلك على أن ليس الخط المستقيم بين نقطتين هو الأقرب مسافة ، بل الخط المنحني ، لأن الكون يتألف من سلسلة من الروابي المتقوسة وكل ما في الكون يسير حول المنحدرات المتقوسة في هاتيك الروابي . وإن الواقع أثبت أن الكون يخلو من السير في نخط مستقيم ، فالنور المسافر نحو الأرض من نجم بعيد ينحرف لدى اجتياز رابية في الفضاء حول الشمس ، وقد عينت لذلك حساباً دقيقاً لهذا الانحراف ، ثم اتضح للعلماء أن حلّي ذلك صحيح كل الصحة . وعلى هذا فاني أضع بين أيديكم حساباً جديداً للمناقشة والبحث يدور حول نظرية الأبعاد الجديدة الوراثة النورانية ، خلف تلك الكواكب والنجوم الدائرة في فلك كوكب الجنة ، فقد تتمكن بواسطته من العثور على تلك الأجسام الشعشعائية التي تعذر على عقولنا القاصرة في الدار الفانية ادراك شيء من أسرارها الكونية ، وعجز فطاحل الفلاسفة والعلماء عن تفسير جزء من مكنوناتها الخفية .

وأردف يقول بتواضع العلماء :

— ان النور هو كما سبق وقلت ، الوسيلة الوحيدة لنقل ظواهر طبيعية من مكان الى آخر ، ولما كانت سرعة النور محدودة (٣٠٠٠٠٠٠٠ كم / ثا) وليست لحظية ، فالزمان كما تعلمون نسبي ، لأن النور الذي ينقل الحوادث من مكان الى آخر يستغرق وقتاً ، ولكل عالم زمانه المحلي الخاص به ، ولهذه الجنة الفاتنة المليئة بالأنوار السماوية زمانها ونورها الخاص بها ، وهنا حق علينا الدأب والجد لنصل الى حل ، لا فلت بالحساب فيه ولا خطأ في المعادلات ...

ثم تكلم شيخ علامة وقور يتصدر المجلس ، ولم أعرف له اسماً في الدار الأولى ، أو لم أذكر اسمه بالضبط ، فقال معلقاً على كلام شولكين واينشتاين :

— بعد أن استعمننا الى ما تقدم به العالمان الفاضلان من شرح وعرض ، لبلوغ أهداف أخرى من المكتشفات والابتكارات ، فلا ينبغي أن يأخذكم العجب ، أيها السادة النجب ، اذا تساءلنا هنا عما كانوا يسمونه في الأولى بالروح والأرواح ، أو الجوهر المحرك للأشياء ، فقد نحقق معجزة بالكشف عما يشبه بعض ما قيل في هذه الأشياء ، وما رمز اليه بالأسرار ، كما اكتشفنا من قبل سر النواة ، وبذلك قد نبلغ بالانسان الى بعض ما كان يحيره من أغاز الطبيعة ، وما كان يصبو اليه من أمان ، ويسمو به من خيال ، ذلك الخيال الذي طالما راوده في اليقظة والمنام مذ أصبح ذا عقل يفكر حتى ولو في سر الديدان ، التي تخرج من جث الموتى والأحياء !

لقد قال بعضهم في الأولى : ان الروح ليست نفساً بل « كياناً ذاتياً » . وأكد العلماء في ماضيات الأيام ، ان كل ما في الطبيعة لا يخرج عن نطاق المادة ، وان ما يسمونه دجلاً أو غباءً ، بعلوم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) حديث خرافة وضرب من الأوهام ، فكل شيء في الوجود مادي ، واذا بحثنا عما يحرك هذه المادة ويعطيها أشكالها المختلفة ، ويدفع بها الى التطور ، في دورات متتابعة ، من حياة وفناء ، وبقاء وزوال ، بشكل متواصل في الكائنات مترابط ، فاننا بالمثل نخوض في بحث عن شيء ما مادي ، فالمغنطيس مثلاً الذي يجذب الحديد كما يقول صاحبنا سيسور : اذا نحن لم نستطع له تفسيراً أو تعليلاً ، فهذا لا يعني بطبيعة الحال انه « شيء » غير موجوده . وكه نشأت في العالم الفاني من ديانات ، وانتشرت معتقدات ، عبر القرون الخوالي ، وكل واحدة تفسر أسرار الطبيعة والكائنات تفسيراً يختلف باختلاف الزمان والمكان ، وثمة تفسير أو دين أفضل من سواه ، الا انها جميعها كانت تصطدم بالعلم على مر العصور ، في بحثها اللامعقول عن الحقيقة النهائية المطلقة ، ولعل خير ما أنزل في هذا الشأن (وما أوتيتهم من العلم الا قليلاً) كلما تساءل الانسان عن معنى الروح وسر الوجود . فما علينا اذن الا مواصلة البحث الدؤوب ، انطلاقاً بما توفر لدينا من العلم القليل ، للوصول الى المزيد من العلم بجوهر الأشياء ، وأسرار الطبيعة والحياة ، فالعلم مثله مثل هذا الكون لا نهاية له ولا حدود .

بعدئذ وقف فون براون الألماني الآري — على ما كان يزعم ويدعي — أول مخترع عملي للصواريخ ، ليحيي العلامة اينشتاين السامي — اذا كان حقاً نقت في عروقه دماء من بني سام — على ما بذله من

جهد مشكور في الدارين وقال : لولاك لما بلغنا القمر ولا المريخ ، ولا حطت أقدام أول انسان على سطح كوكب آخر بعيد ، وبفضلك استطعنا في هذه الجنة اختراع وابتكار تلك الصواريخ الدقيقة التي نستطيع بفعل الجاذبية القوية من غزو المجرات البعيدة عنا بعداً سحيقاً . لقد كانت صواريخنا في الأولى كلعب الأطفال ، بالنسبة لصواريخنا هنا في جزيرة الأحلام . إنها لعمرى احدى المعجزات اذا تضافرت جهود العلماء في كل مكان وزمان ، واذا تعاون البشر فنبذوا الشر ، وتوجهوا بقلوبهم وعقولهم نحو صالح الأعمال .

ثم دار بينهم حوار آخر ، حول مكتشفات جديدة لم أفقه شيئاً من حساباتها ومعادلاتها ولا رموزها ودقائقها ، ولا سيما تلك التي تتعلق « بالكوازار » والثقوب السوداء التي تبتلع المجرات (١) .

ولما انفض الاجتماع ، وتفرق العلماء في بهو الجوسق ، للتريض والنزهة عند العسق ، دفعني الفضول وحب الاستطلاع ، مرة أخرى الى فتح حوار وتحقيق مع أولئك الجهابذة الأعلام ، الذين أناروا الدرب أمام الفكر الانساني المتقدم ، وانتشلوا الناس من ظلمات الجهالة والغيبيات ، وساروا بركب الحضارة الى الأمام ، على الرغم مما عانوه وكابدوه من متاعب وأهوال ، ومظالم واستغلال ، على أيدي أصحاب النفوذ والسلطان ، وتجار الحروب والأديان ، ومن كان يتبعهم من أذعياء ووكلاء وإمّعات وأغبياء .

(١) عوالم غامضة ، واكوان عجيبة بدت لعلماء الفلك في أواخر القرن العشرين على أشكال نقاط واشعاع خارج المجرات .

كان أول من صادفت على الطريق ، كويبرنيكوس العظيم ، عالم الفلك البولوني الشهير ، المنحدر من أصل ألماني رفيع ، وأول من قال بالنظام الشمسي ، وبعده النجوم عن كوكبنا بعداً سحيقاً ، وهو نفسه مؤلف كتاب (طواف الأجرام السماوية) و (أسس النظام الفلكي) . وكان يقف الى جانبه غاليليو غاليلي ، مؤيده في نظريته القائلة بدوران الأرض ، ومعلوم ان من كان يقول بأن الأرض تدور ، يطاح برأسه في ساحة الاعداء ليركل ويدور ، أو انه ينتهم بالهرطقة والكفر والزندقة والإثم .

طرحت على كويبرنيكوس السؤال التالي :

— ماذا كان يقصد ذلك الشخص المجهول الذي وضع مقدمة كتابك الأول في « طواف الأجرام السماوية » بقوله : انك لم تكن ترى أو ترمي من وراء وضع هذا الكتاب الى حقيقة علمية ، وانما زعماً صيبانياً من مزاعم الصبا وأوهامه !

أجاب بأسف شديد :

— لقد وضع مقدمة هذا الكتاب أحد أصدقائي الخالص ، وحسب انه بها يستطيع حمايتي من تعذيب محاكم التفتيش ، وحرمان مجمع الكرادلة ، الذي ما لبث أن أصدر مرسوماً بتحريم مطالعة كتابي وتداوله ، وبأن ما جئت به من اكتشافات علمية يعتبر في نظر الكنيسة كفراً في كفر . ومن هذا يتبين لك أن عصرنا لم يكن يسمح لعالم أن يعبر عن نظرية أو رأي مخالف لمعتقداتهم وتعاليمهم ، أو ما يخالونه انه

الحقيقة الدينية الأزلية التي لا يجب أن تتبدل أو تحور أو تحرف أو تتغير ، حتى أنني لم أستطع أن أرد على صاحب تلك المقدمة بكلمة ، ولزمت الصمت في برجي ، ثم غادرت أولئك الأغبياء الى أن وافاني أجلي .

قلت : لا تأسف على ما فات ، فقد عانينا نحن المتقدمين ، في أواخر القرن العشرين ، من عنق الرقابة الدينية والرجعية والعسكرية في العديد من البلدان العربية ، وبلدان ما يسمونه بالعالم الثالث ، وفي اميركا اللاتينية ، ما لم تعانوه أتمم أنفسكم في ظل الرقابة الكنسية والسلطات المطلقة الملكية ، في القرون الوسطى ، وما تلاها من قرون تحكمت فيها الفاشية العنصرية ، في الشعوب المتمدينة الغربية ، فسامت أحرارها سوء العذاب بما يفوق ما اقترفته محاكم التفتيش ألوف المرات ، ومما هو أدهى وأنكى أن بعض المتسلطين في دول تزعم انها ديموقراطية حرة أبية ، كانوا يفعلون بنا باسم الحرية والديموقراطية ، ما لم يفعله زبانية السلطات المحتلة الأجنبية ، فكم دفن أبرياء باسم الحرية ، واضطهدت طلائع تحمل مشعل الفكر الحر النير باسم الديموقراطية .

خذ مثلاً على ذلك انهم حرموا على أحد الأصدقاء - في يوم من الأيام - نشر سفر تاريخي مضت على أحداثه عقود وعقود ، ولا يمس أحداً من الحكام المعاصرين بسوء ، انما هو مجرد سرد لأحداث واقعية مدعومة بشواهد وأسناد وثائقية ، فيها محاسن ومساوئ من قضاوا ومضوا من الحكام والزعماء والدكتاتوريين والطغاة ، وقد دونت كل ذلك بروح موضوعية ، وبنزاهة المؤرخ المدقق البعيد كل البعد عن النزوات والأهواء ، والأغراض الخاصة أو العصبية ، عليهم يجدون في مثل

هذا التاريخ النزيه ، ما يفتح عيونهم على الأخطاء فيتجنبونها ، وعلى العيوب فلا يعودون الى تكرارها • وهكذا شل تفكيرنا ونحن في أواخر العصر ، لا بضغط من الداخل على الفكر وحسب ، بل بسبب مخططات وضغوط من الخارج أيضاً ، فالامبريالية العالمية والرجعية المحلية ، الممثلة في الزعامات الاقطاعية والبرجوازية الناشئة الغبية ، وفي بعض البلدان الخاضعة لحكم طغمة عسكرية ، شكلت جميعها حلفاً مقدساً على سحق كل فكر حر ، ومحق كل تطلع نحو الديموقراطية الحقيقية ، والعدالة الاجتماعية ، والاشتراكية العملية العلمية ، والسبب في ذلك على غاية البساطة ، ألا وهو ان مصلحة هذا الحلف المقدس ضد ارادة وتطلعات الشعوب ، تقضي أول ما تقضي ببقاء العبيد عبيداً ، لاستنزاف آخر قطرة من دماءهم وعرقهم وخيرات أرضهم •

وأضفت الى ما تقدم قائلًا مستطرداً في السرد والشرح على طريقة صاحبي المعري الذي أخذت عنه جانباً من الفكر - :

- هذا الى جانب ما فعلته الأجهزة الحديثة الشيطانية ، لوسائل الإعلام والدعاوة الوعظية ، في الصحافة والاذاعات والتلفاز ، في الشرق والغرب ، في قتل الفكر الانساني الحر ، وفي القضاء على تطلعات الشعوب نحو السلم ، بدل القتل والدمار والحرب •

ثم هل تعلم أيها العلامة الكبير ، ان صاحبي المؤرخ - البائس المسكين - كان عنيداً يكره اللف والدوران ، في فلك أيّ كان ، فأبى - على التقيض منك - أن يكتب له أحد مقدمة لكتابه التاريخي النزيه ، معتذراً عنه الى أولي الشأن ، ليغضوا الطرف عما أتى به من

هذيان ، كما فعل صاحبك الوفي المخلص ، لما وضع لك مقدمة كتابك
في طواف الأجرام ، فجاءت فيما بعد سخرية للأجيال ؟

عند هذا الحد من الشرح ، أطرق كويبرنيكوس قليلاً يفكر ،
ثم سألني بلهفة المحترار المتسائل :

— وما فعلتم بمخطوط صاحبك هذا المؤرخ الفاضل ، كم أود
الاطلاع عليه لأجد الفارق بين عهدي وعهده •

أجبتنه آسفاً : لم ينشر طبعاً ولم يبصر النور ... ذلك لأن الجردان
قد قضمته • وكم قضمت الجردان منذ قديم الزمان ، من مؤلفات وأسفار ،
وكتب علم وأدب وأشعار •

وهنا تدخل غاليليو في الحوار ساخراً :

— اذن فلولا مقدمة صاحبك ذاك الغبي يا كويبرنيكوس العبقري ،
لكانت مؤلفاتك واكتشافاتك طعماً للجردان ، فحماً لغباء من لا بد من
غبائه • أما أنا فقد كان شأني كشأن ذلك المؤرخ العنيد ، الذي أشار
إليه هذا الرجل الحميد ، فقد واجهتهم بالحقيقة غير هياب ولا وجل ،
وصحت في وجوههم الجاحدة : ان الأرض تدور ، وستظل تدور ، شتم
أم أبيتم أيها الكاشحون !

وضحكنا جميعاً من أعماق القلوب ، على ما كان يعاينه أهل الفانية
من هموم وكروب •

x x x

التقيت كذلك بالعالم الفرنسي « باستور » ، ذلك الجهيد
الجراثيمي المشهور ، الذي اكتشف عالم الميكروب المجهول ، كان
شارد الفكر ، ساهم النظر ، وقد بدت عليه معالم الشلل ، فسألته :

— أحقاً ما كتبه عنك معلمك في صفحتك المسلكية عندما كنت
طالباً في الابتدائية : انك أبعد التلاميذ عما ينهم عن مخايل النجاسة ، وما
يمكن أن يتوسم منه أحد الخير ؟

أجاب ببساطة : سامحه الله . . . ان وصف المعلمين لتلاميذهم
لا يصيب دائماً كبد الحقيقة . . هل تعلم أن علاماتي في الكيمياء في
المدرسة الاعدادية كانت دون الوسط ، ومع ذلك فقد تمكنت من
اكتشاف ذلك العالم المجهول ، عالم الجراثيم ! في الواقع أني كنت
ضعيف الذاكرة ، وقد أوقعتني هذا الضعف في مأزق كثيرة . تصور
أنني لما دعيت الى حفلة تكريم كبيرة ، أقيمت في بلاط سان جيمس على
شرفي ، وسمعت الهمثاف العالي في القاعة يدوي ، سألت أحد أصحابي
الى جانبي : ترى هل قد تأخرت عن الموعد ، وجئت بعد قدوم ولي
العهد البرنس أوف ويلز ؟

ولما قيل لي أن الهمثاف كان لي وليس لولي العهد ، تملكني
خجل شديد .

قلق له : ما أشد تواضع العلماء ، وصلف بعض المعلمين الأغبياء .

× × ×

والتقيت على حين غرة ، بالكاتب الكبير « دانيال روبز » عضو
الأكاديمية العلمية الفرنسية . كان مستنداً بظهره على عمود في الرواق ،
وقد سبق وعرفته في باريس ، وكانت تدور بيني وبينه مساجلات
ومحاورات وأحاديث ، حول التقاء الشرق بالغرب ، واقتراب أو تضيق
الفجوة بينهما ولا ريب ، بعد أن طرأ على العالم تحولات وتغيرات ،
في سرعة المواصلات والاتصالات ، وقيام هبات وانتفاضات وثورات ،
مستمدة جذورها من الثورة الفرنسية الكبرى ، وما بشرت به من
مبادئ وتعاليم ، لترسيخ دعائم حقوق الانسان ، دون تمييز بين جنس
أو لسان . وكانت لهذا الكاتب آراء واضحة في فلسفة وتدقيق ما أهمله
التاريخ ، تدل على بعد نظر عميق ، وتفهم للتجربة التاريخية شبه سليم ،
فعرفني على الفور ، وسألني :

— ماذا تعمل هنا يا ابن الشرق ؟ ..

قلت : أطوف في جنات عدن بحثاً عن حبيتي الشاردة ، وردتي ،
ألمي مبعث إلهامي !

— حتى في الجنات أراكم معاشر الشرقيين تعيشون في غيبات أهل
الأرض .. ألا زلتم لا تهتمون إلا بالفلسفات والصوفيات والروحانيات ،
دون الجد وراء المعرفة والعمل على صعيد الابتكارات ؟

— ماذا لو جمعنا بين الطرفين ؟

— هذا ضرب من اللامعقول ، اذ كيف يتاح للانسان التوفيق بين
الغيبية والمادية في حياته العملية ؟ ان بعض حكام ما يسمونه عندكم

بالعالم الثالث ، وبعض زعمائه الروحانيين ، حاولوا مثل هذه التجربة
الرمزية فجاءت محاولتهم مدعاة للسخرية ، وبأؤوا بفشل ذريع •

— صدقت ، فالشعوب التي تفهم معنى التجربة التاريخية ، وتدرك
طلاعتها المتقدمة ان عجلة الزمان لا يمكن أن تدور الى الوراء ، تستطيع
أن تتقدم الى الأمام ، لا أن تتراجع القهقري وأن تبني لها كيانات وتنشئ
حضارة ، ولا ريب ان محاكم التفتيش يمكن أن تكون موضوعاً يستحق
الدراسة ، وأن يكون مصداقاً لما عاناه الإنسان في مسيرته الطويلة في
سبيل التحرر والاعتناق • واني لما تحدثت عنها في مقالاتي انما أردت
أن أجعل منها نموذجاً للتخلف والاضطهاد ، ولا ريب ان هذا الموضوع
يستحق اعادة البحث والنظر من جديد •

وهنا مال العالم المذكور على أذني وقال بما يشبه الهمس :

— ان أخشى ما أخشاه في هذا المضمار ، أن يَنْصَبَ لنا خزنة
الجنة محاكم تفتيش من طراز جديد ، اذا استمر هؤلاء العلماء والمفكرون
في الالاحاح على طائفة من الآراء والأفكار والنظريات غير المقبولة من
هجاج الجنة وغوغائها ، طاب لهم المقام فيها بلا عمل أو انتاج ، فناموا
على الأمجاد ، وانشغلوا في الجدل الفارغ والإتفعال ، وبث الفرقة
والعصية بين الطوائف والأقوام ، باسم مذاهب ما أنزل الله بها من
سلطان ؟

ثم عاد الى صلب الموضوع الذي بدأ به فقال :

— كلما تبادر الى الأذهان ذكر محاكم التفتيش غشيتنا ذكرى

مؤلمة ، من أعمال تعذيب وحشية ، وجرائم منكرة بحق الانسان ،
وفكر الانسان .

لقد اعترف في أواخر القرن العشرين كبار الأجبارة ، وعلى رأسهم
« هولست » أسقف باريس ، وسواه من الأساقفة الأخيار ، بما ارتكبه
رجال الأكليروس في الماضي من أخطاء ، مثال ذلك ما صرح به المونسنيور
« هولست » نفسه من أعلى منبر في كنيسة « نوتردام » ، أمام جمع
غفير من الأنام : ان على الكنيسة الكاثوليكية أن تقر وتعترف بما
ارتكبهته محاكم التفتيش من أعمال « غير انسانية » لا تمت الى الدين
بصلة ، ذلك لأن الكنيسة الرومانية لم تعد تستطيع في هذا العصر أن
تدافع عن مثل تلك الأعمال البربرية ، والا فانها سوف تندثر مع تقدم
الانسانية في مسيرتها العلوية التصاعديّة (١) .

لقد رأينا بأمر العين ، ومنذ عهد قريب وليس بعيد ، ان مثل تلك
الأعمال الوحشية قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً ، وحدة وشدة وقسوة ،
وبأشكال رهيبية تقنية حديثة ، وتحت شعارات سياسية ومذهبية وقومية
وعنصرية ، كأن استبدلوا أحبولة الدين بأحبولة القومية العنصرية
المتفوقة ، وبعض من نادوا بالأممية الانسانية الشاملة ، ووحدة القوى
العاملة في العالم ، عادوا بكل صفاقة ووقاحة وغباوة ، الى الضرب على
وتر القومية ، والمصالح الاقليمية الضيقة ، كأنهم بذلك يريدون العودة
بالعالم الى عهد الصراع الامبريالي في القرن التاسع عشر الخالي .

(١) نشر هذا الخطاب في مجلة « التاريخ » الفرنسية بعدها
رقم / ٢٢٠ / .

لقد غادرتهم وهم يعدون العدة لتدمير كوكبنا الصغير الحبيب ،
بقنابل ذرية وهيدروجينية وسواها من المبتكرات الجهنمية ، ليدمروه
تدميراً أبدياً ، وليجعلوا منه كتلة غازية ، أو جهنم حمراء وقودها البشر
قبل الحجارة • ألا قل لي بربك ماذا كان باستطاعة الأخيار أن يفعلوا
أمام جنون وجبروت الأشرار ، وقد فرض عليهم كمّ الأفواه ، وشلّ
الفكر ، وتحطيم الأقلام ؟ لا سيما وان أكثر الناس نيام أو جهال أو
مرضى وهجاج !!

x x x

كان آخر لقاء لي مع أحد هؤلاء الأعلام ، العلامة ابن خلدون ،
صاحب المقدمة المعروف ، أول باحث في علوم الاجتماع ، على أسس
عقلانية ، ومناهج استقرائية تجريبية تاريخية ، وقد سبق « ماركس »
بمئات السنين في اكتشاف ما للدوافع المعاشية، من أثر عظيم في التحولات
الاجتماعية والفكرية والحضارية •

شاهدته عن بعد بزيه المغربي الأبيض، يحمل يمينه كتاباً ضخماً أحمر •
وبعد أن تأكدت من حقيقة شخصيته ، كما وصفها لنا مؤرخو عصره ،
دنوت منه وسألته :

— هل قرأت ما كتبه عنك المعلم الحر ، آخر تلاميذ المدرسة
الفرنسية في سورية ، تلك المدرسة التي نادت عقب الثورة الكبرى
بالحرية في النقد والتعبير والجهر بالرأي ، الوزير الأسبق ، صاحب
المناقب والمعالي ، حافظ بن الجمالي ؟

قال الشيخ المغربي : لا . . . لم أقرأ شيئاً مما كتب عني بعد الرحيل ،
فماذا قال صاحبك هذا ؟

قلت : قال لو انك عدت الى الوجود في عصر كعصره المحموم ،
لما رأيت أية حاجة لإدخال أي تعديل في مقدمتك الخالدة ، حين تعرضت
بها الى حرية الفكر في الاسلام . واستشهد على ذلك بقولك ما مؤداه :
« ان الامامة زمن الخلفاء الراشدين كانت تقوم على الشورى . وكان
أساسها الوازع الديني وبساطة المجتمع . وكانت الامامة نوعاً من
(العقد) ، فتولية الخليفة تعبير عن اتفاق مشترك ، ولكن التحولات
الاجتماعية بعد الفتوح أدت الى من لا يقول بخلق القرآن ، ليس له
حظ من الدين بحكم الخليفة المأمور . ثم أفضى الأمر الى ضعف الوازع
الديني وظهور العصبية أساساً للسلطة ، ومع تدهور مفهوم الشورى
اعتمدت السلطة على العصبية ، وكان ذلك يعني التحول التدريجي من
الموافقة الى الاكراه » (١) .

قال الشيخ : نعم قلت هذا . . . وقلت ما هو أخطر منه . فماذا
حدث ؟

قلت : لم يحدث الا ما توقعت وأبصرت ، وظل الأمر كما قلت
قرونًا إثر قرون ، فلا شورى بين معظم العرب ولا رأي . ان ما طرأ
على أقطارنا من تحولات مذ قابلت أنت آخر مرة تيمورلنك في الشام

(١) انظر « التراث العربي » - ع - ٢ - مايو - أيار - ١٩٨٠
« حرية الفكر في الحضارة العربية الاسلامية » - حافظ الجمالي .

ورجوته الرحمة باسم الاسلام ، أن يرفع سيفه عن رقاب العباد ، لم
يمس غير الشكل ، أما الجواهر فظل كما عهدت •

هز ابن خلدون رأسه أسفاً وقال : اذن فمقدمتي كانت صحيحة ،
ورؤيتي كانت واضحة • حقاً لقد صدق من قال : ان الأحداث الجسم
في التاريخ تسبقها ظلالها •• والمقدمات ا

× × ×

بعد أن غادرت هذه السرادق الطويلة ، وأولئك العلماء الفطاحل
المشاهير ، تساءلت وتساءلت عن الطريق ، وأنا أمتع الطرف فيما يحيط
بي من خلق وابداع وجمال ، ما الفارق بين مرايع الأرض ومقاصف
الجنة ؟ • ما الفارق بين سهول الجنة وسنابلها الذهبية ، وجبالها ووديانها
وغيطانها وهضباتها وروايبها الحسان ، وقصورها وعمدها من الرخام
والمرجان ، وحوورها كخصون البان ، وفتيتها الأقوياء الأشداء ، الأصحاء
العقول والأبدان ، وتلك العيون والأنهار الجاريات ، والبحار والبحيرات
المتموجات ، وكل ما فيها من فائن وفتان ، وبين ما في أرضنا من أمثال
تلك الروائع والمحاسن والمرايع والصور الأخرى الحية ذات الألق
والابداع ؟ ثم ماذ لو أن كل انسان صنع فردوسه على ترابه الطيب ،
وألقى بسلاحه الى قاع المحيطات ، وعمل بمنجله ومجرائه ومطرقتة
وسندانه ؟ أما كانت الأرض تصبح جنة أخرى من جنات النعيم ؟

ثم أوليس هذا ما جاء في التوراة والانجيل والآي الحكيم ؟ •
ثم أوليس هذا ما نادى به كل من أوتي ذرة من عقل ووجدان ؟

فبأي آلاء ربكما تكذبان!

عندها شعرت بالحنين الى الأرض ، الى ربها ووهابها ، وغاباتها
وحداثتها * * * وكم وددت أن أتشوق نسيما ، وأشم رائحة ترابها *
وعادت بي الذاكرة كرة أخرى الى ياسمينها وزنابقها وورودها ورياحينها
والى وردتي الحمراء وسحرها وفتنتها ، وطيب شذاها وعبيرها ، ورحت
أردد من حيث لا أدري مع الشاعر قوله :

بروحي تلك الأرض وما أعذب الربى

وما أطيب المصطاف والمتربعا

كأننا خلقنا للنوى وكأنما

حرام على الأيام أن تتجمعا

x x x

ساد ظلام دامس ، فخامرني في هذا الدجى شتى الهواجس ،
فسألت ملاكي الحارس :

— ما هذا الظلام الذي خيم على جزيرة الأحلام ؟

فرد عليّ بنزق الأبطال :

— هون عليك يا هذا ولا تستعجل الأمور ، فكل حال يزول ،
وعما قريب سترى ما يبهر الأبصار ويجير العقول ، ألا قاتل الله الانسان
ما أكفره ، فياله من لجوج ملول *
—

انتظرت برهة ، وأنا أحس برجفة ووجفة ، فاذا بقمر صغير الحجم
يطل علينا من علياء الجنة ، ثم يتلوه بعد فترة ، قمر آخر أكبر حجماً
وأبهى ضياء من الأول ، ويتبعه قمر آخر ثم أقمار أكبر فأكبر الى أن
بلغ عددها السبعة ، فشعرت عندئذ بالبهجة والنشوة ، اذ غمرت الجزيرة
أضواء أقمار عجيبة ، ينعكس ضوء منها على ضوء ، بما يثير في النفس
الرغبة والدهشة ، ويبعث على التأمل بما في هذا الخلق البديع من
روعة وفتنة •

كان أكبر الأقمار حجماً بدر "منير" ، لا نمش على وجهه ولا كلف ،
ولا تضاريس ولا فتوات ولا صلف بل صور خلافة الألوان والظلال ،
حصيلة التقاء الأضواء من مختلف الأقمار الأخوان ، وتحيط بهذا
البدر هالة من أنوار سماوية ، لا هي بالباهتة أو الوهمية ، كتلك التي
كان يخيّل الى رسامي عصر النهضة في الساخرة انها هالات ربانية تحيط
بالوجوه النيرة ، من ذوي الأنفس التقية الورعة ، أو ذوي القداسة
الطاهرة المطهرة •

قبعت برهة من الزمن أرصد ما في سماء هذه الجزيرة من أقمار
وأضواء وأنوار ، وأرقب حركتها بتبصر وإمعان • واستعادت الذاكرة
ما وصف به صاحبي المعري مثل هذا المشهد المغربي ، في « أصوله
وغاياته » اذ قال : مسيحاً مبهور الأفتاس ، لما أبصر ما في الكون من
جنات ذات أقباس :

(يا من سبح له زرقة الأفق ، وزرقة الماء ، وحمرة الفجر :
وخمرة شفق الغروب) •

هل زينت هذه السماء بالكواكب والنجوم والأقمار ، متعة
للأقمار ، أم انها هكذا أنشئت إنشاءً في تصميم الأكوان ، فمن كوكب
يدور حوله قمر واحد ، الى آخر يدور حوله قمران أو ثلاثة الى أن
يبلغ بعضها حول بعض العشرات ؟

لا ريب ان أهل الجنة قد مسحوا أسطح تلك الأقمار ، قبل أن
نمسح نحن أهل الأرض قمرنا المنير في أواخر القرن العشرين ، ذلك
القمر الذي تغنى به كل شاعر وحبيب ، منذ ألوف السنين • فلا سر
عاد يخفى عليهم مما يحيط بهم من نجوم وكواكب وسيارات ، ولا شيء
أصبحوا يجهلونه حول مسيرة واندثار مجرات اثر مجرات ، فتلك آيات
الله في خلقه ، فأعظم بها وأكرم من آيات • وعندها لمعت ذكرى « وردة »
في خاطري ، فرحت أردد قول من قال ، في يوم من الأيام :

« آه يا وردتي لو كنتِ معي •

لست أدري متى ألقاك •

أغداً أم بعد غدٍ ؟

سوف أعيش على أمل اللقاء •

حتى ولو كنت في دار البقاء !

• = •

البحور العين ، والولدان المخلدون •

يسرحون من حولي ويمرحون •

- الأنهار الجارية ، والجداول الهامسات •
- الورود والرياحين ، والأزهار النديات •
- يفوح عطرها صباح مساء •
- والملائك تسبح في السماء •
- « ان الله جميل ، يحب الجمال •
- « طلع البدر علينا من ثنيات الوداع • »

• • •

- فأين أنت يا أم النجوم ؟
- ويا أخت البدر ، ويا عبق الزهور •
- لقد طال الغياب •
- وطال النوى ، وطال الفراق •
- في حجب الظلام •
- بعد أن احترقت ، فأصبحت كالحمم •
- أناديك • • أنادي الأحياء والأمم
- ألا تستيقظين من رقدة العدم ؟

• • •

- ♦ يا وردتي ♦♦ يا زهرتي ♦
- ♦♦♦ يا مَنْ برقت من عينيها أفكار وأفكار ♦♦♦
- ♦♦♦ فباحت بأسرار وأسرار ♦♦♦
- ♦ لا تنزوي يا زهرتي فالهوى قدر ♦
- ♦ وفناء في الحبيب ثم حياة وضرام ♦
- ♦ قسماً بمن فجر في قلوب الناس ♦
- ♦ ينابيع الحب والود والحنان ♦
- ♦ ستظلين في ضميري ♦
- ♦ يا وردتي يا جنة خلدي ♦
- ♦ اشراقه أمل ♦

♦ = ♦

- ♦ لولاك لما دفنت الرعب في عذمي ♦
- ♦ ولما فضحت حريري من دمي ♦
- ♦ لولاك لمت في عبثي ♦
- ♦ كالحيوانات ، كالوحوش ، كالبعاة ، لا كالبشر ♦

كنت أناجي النفس بهذه الهمسات - بل إن شئت فقل بهذا
الهديان - كأنني أسمع من بعيد أنين النيات ، فعجبت روعي من روعي ،

أن تكون على هذا القدر من الشك والريب ، تائهة في ضباب الغيب والنوب ، عندئذ علمت علم اليقين ، ان الانسان فطر على القلق ، ولا حدود لرغباته ولا يعجبته العجب ، لسبب أو لغير سبب ، ولو كان في جنات قطوفها دائية ، وأنهارها جارية ، فيها ما تشتهي الأفسس ، وترنو اليه الأعين ، وتستطيب لسماعه الأذن •

لعل هذا هو السر الذي يدفعني ويشدني الى « وردتي » ، زهرة خيالي ، في يقظتي ومنامي ، وغيوبتي وعمدي •

عندما بلغت في قولي : أود أن أموت كالبشر لا كالحيوان ، انقطعت عن الكتابة ألتقط أنفاسي ، وأستعيد كذلك في خاطري ، ذكرياتي • أتراني قد استوحيت مثل هذه الأقوال من الكاتب الأ. همنغواي العدمي الاتحاري ، أم من شاعرنا الحموي المصري الصو داعية الاستشهاد والموت عشقاً وهياماً •

أليس ابن الفارض نفسه هو القائل :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل

فما اختاره مضنى به وله عقل

وعش خالياً فالحب راحته عنا

وأوله سقم وآخره قتل !

ولكن لديّ الموت فيه صباة

حياة لمن أهوى عليّ بها الفضل

نصحتك علماً بالهوى والذي أرى

مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

فان شئت أن تحيا سعيداً فمئت به

شهِيداً ، والآن فالغرام له أهل •

أجل يا صاحبي ، يا « ديوجين » العصر الحديث ، يا من لا تؤمن
بالواقع والمحسوس ، لقد كتب عليّ السعادة والشهادة • كتب
عليّ ان اكون من أهل الهوى ، وأن أحبّ وأن اعشق ، وان أهيم
وجداً وصبابة وجوى بوردتى الحمراء « وهل كانت الوردة الحمراء
الآن بلون الجراح » • جراحي ودمي ، علمي وشهادتي ، فنائي وعمدي ،
ثم راحي وروحي ، وجنة خلدي !

x x x

بعث جديد

« وتلك الأيام نداولها بين الناس . »
قرآن كريم

خطر لي أن أعود بمسيرتي قليلاً الى الوراء ، لأرى ما حل
بصحبي من الكتاب والأدباء والشعراء ، وما انتهى اليه حوارهم الممل
الطويل ، وهم مكوث تحت الشجرة ذات الأنواط ، قرب المطلع المديد ،
بين الحور العين والولدان المخلدين ، وهم في عيشة راضية ، في جنات
عالية ، يأكلون ويشربون هنياً بما أسلفوا في الأيام الخالية ، ويعبون من
خمرة الجنة ، ويرتشفون من عسلها ، من أنهار جارية - كما قيل -
لا تضاهيها بنت أية كرمة في الفانية ، وعسلها لا مثيل لشهده ومذاقه
من أية حلوى شهية ، كانت العرب تحلم بها في صحاريها القاحلة
الرميلة .

ما أن بلغت منازلهم حتى رأيتهم على الأرائك متوسدين صامتين ،
لا كما تركتهم صاحبين معربدين ، كأن السأم قد تملكهم ، أو أنهم

أصبحوا في حالة اغماء ، او ذهول وشرود واغفاء ، لشدة ما أفرطوا في السكر ، واتهلوا من العسل العسير الهضم ، لا سيما واذا خاطبه الخمر . وما أن وقت قليلا أرقبهم حتى أطل علينا من المطلع ابن الراوندي ، ذلك الزنديق العرييد المتعالي ، الذي كان يعبد في سره النار ، من دون الواحد الجبار ، وراح يتأديهم :

— ألم أحذركم في الفأية مما قد يصيبكم من عسر هضم ، اذا أتمت تناولتم العسل مع الخمر ؟ ما لي أراكم قد أصابكم الضجر ، واتبكم الملل ، يا لقلة أذواقكم ، وسوء تصرفاتكم . أحس كأنكم تحنون الى العودة الى « أم دفر » بعد أن مجت نفوسكم هذا المستقر ، وبعد أن خارت قواكم ، وذهبت ريحكم ، لكثرة ما اجتمعتم بالحوار والولدان ، وما أتخمتم به بطونكم من لحم طير وضان ، وفاكهة أزواجاً مما تشتهون ، ولذلك فاني أوصيكم بشر من شجر الزقوم ، ففيه جلاء لما في الحلقوم ، وفيه نار وسموم ، لو أكلتم منه لزال عنكم الغمة والهموم ، وعدتم الى ما كنتم به تلهون ، فتنطقون وتنشدون وتشعرون وتنظمون ، وقديماً قال شاعركم مداح الأنبياء ، « ومن السموم النافعات دواء » فلعلكم تجدون في هذا الثمر الشفاء ، مما تعانون الآن من عقم في التفكير وغباء .

ثم ألا فانظروا الى ما كنتم به توعدون ، ألا ترون في هاته الحوار وهي ترفل بالخز والديياج ، كعرائس النبط والإكراد ؟ . والله ان جوازي الرشيد ، في عهد ابن هانيء العرييد ، كن أجمل زياً وأكثر خفة ورشاقة ، مما أرى في أزياء حوار الجنة العين ، وفي سراويل أولئك

الولدان المخلدن ، فهل هذا ما يستسيغه الذوق الرفيع ؟

وشخصت ببصري الى من يقف خلف هذا الزنديق اللعين ، فاذا
بابليس يتحقق طرباً لما يقوله ابن الرواندي من تدليس وتليس ، في
أهل الخلد الناعمين المترفين ، الذين يرفلون بالديباج والدمسق
والحرير .

سألت عن صاحبي أبي العلاء ، أترأه ما يفعل في هذا الخواء ؟
فقال لي أحد الولدان :

ترأه هنالك قابعاً تحت الشجرة ذات الأنواط . فألفيته كما قال
الغلام ، جالسا يفكر يامعان ، ولما أحس بوجودي ، رفع رأسه
ورآني ، فقال :

— أراك قد عدت بخفي حنين ، فلا وردة معك ولا حبيب .

قلت : واحرقناه . . . لم أعثر عليها حتى الآن .

قال : ولن تعثر عليها في أي مكان .

قلت : وما أدراك أنت بالغيب . هل أنت قارىء فنجان .

قال كمن عاوده تشاؤمه المعهود : ذلك لأنك لم تبلغ بعد عالم
الغيب والشهادة ، ولا تزال تعيش في وهم حشر الأجساد ، ولقاء
الأجباب ، وتعاتق الأرواح . ان ما يخيل اليك الآن من جنات وكائنات ،
ما هو الا من وحي فكر تواق الى عالم بلا حدود ، وهذا هو الفكر
الذي لا يموت . . . فكر متحرك دائماً ، فالحركة كما قالت العرب
ولود والسكون عاقر كالجلمود .

واستطرد أبو العلاء كعادته ساخراً مما يحيط حوله :

— ثم من يدري ؟ « فقد تكون الديار خالية ، والأجساد في الحفر
بالية ، والأرواح عند ربنا متعالية ، لا يعلم أنعيم هي فيه أم عذاب » ؟ (١)

قلت بأسى عميق : إذن فأنت لا تزال تعتقد كما كنت تجدف في
الساخرة من أن الوجود ضائع لا محالة في العدم ؟

قال : نعم .. ولكن الفكر .. العقل .. الضمير .. مكنون
الكائنات هو الباقي على الاطلاق ... الحي المتجدد على الدوام ، أما
سوى ذلك من أوهام وأحلام فهي تشبه من يحلم في حلمه بالذات
أنه يحلم !

قلت : إذن فنحن لا نزال نعيش في حلم ووهم جنات من نسج
خيالنا ، وصنع أحلامنا ؟

قال : هذا هو الواقع بعينه ، ولو أن ما تجيش به ضمائرنا يخالف
هذا الواقع الأليم ولا يرضى به حقيقة ، فالحقيقة مرة قاسية ...
ولكنني مع ذلك كله لم أعد أعرف لليأس مكاناً في قلبي وعقلي ،
فكلما تقدم فكر الانسان ، تكشف له أشياء وأشياء من الحقائق
والأسرار ، بما يساعده على فهم بعض ما يحيط به من مكنونات
ومكونات هذا الكون العجيب .

أدركت عند هذا الحد ، أن الحوار اذا طال بنا أكثر ، فلن نصل

(١) انظر « الفصول والغايات » لأبي العلاء المعري — ص ٨٠ .

الى ما هو أبعد ، فلزمت جانب الصمت ، وعاد الشيخ الى الإطراق
والتفكير ، وقد ارتسمت على محياه أمارات حزن عميق .

وجاء غلام يسعي من أقصى الجنة ، يتهادى في مشيته ويتميل
بخفة ، يحمل على يده طبقاً من فضة عليها آنية من ذهب ، امتلأت بما
هبّ ودبّ ، من لحم ديكة ولحم طير ، تتصاعد منها روائح شهية ،
تفتح القابلية .

كان الغلام يردد وهو يهيمّ بوضع الصينية ، أمام فيلسوف
العربية ، الآية الكريمة في الأبدية :

(كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) .

فنظر الشيخ الى الغلام ، نظرة ملؤها الأنفة والملام ، وهب من
جلسته يستغفر ربه ويتضرع ، وأشاح بوجهه عن المائدة السماوية
وتدعدع (١) ، وقال أفضل ألف مرة أن أعاني من الجوع وأتضور ،
على تناول شيء من هذه المائدة الحمراء ، التي تفوح منها رائحة الدماء .
أعود الى القول استضعفوك فذبحوك . والله اني ان عجبت لشيء في
هذه المنازل والديار ، فوجود مجزرة فيها وجزار !

حملك الغلام في الشيخ الهمّ (٢) ، وهو فاغر القم ، من دهشة
وسوء فهم ، وحسب أن شيخه لم يرق له ما جاءه من طيبات ، يسيل
لها اللعاب ، فأطرق نخجلا ، ثم قال مرتلاً :

(١) تدعدع : مشى مشية الشيخ الكبير .
(٢) الهمّ : الشيخ المتداعي ، ويأتي معناها هنا المنهار الاعصاب .

« لا يصدعون عنها ولا ينزفون • وفاكهة مما يتخيرون • ولحم طير مما يشتهون » • ألا يرضيك هذا يا مولاي الشيخ الكبير ؟
قال الشيخ : اني لا أشتهي لحوم المواشي والأطيّار ، ولا أرضى
بديلا عن الفاكهة والخضار •

وفي أسرع من لمح البصر ، رأيت غلاماً آخر قد حضر ، وعلى يده
آنية من فضة ، فيها فاكهة وخضرة ، غضة بضة ، فوضعها أمامه على
الخوان وانحنى بأدب ، أما الغلام الأول فحمل لحم الطير وانصرف •
سألت الشيخ : ألا تزال وأنت في جنات الخلد نباتياً ، لا تأكل من
اللحوم والشحوم شيئاً ؟

أجاب وهو شارد اللب : تلك هي عادتي وذاك هو مبدئي ، ولكل
من دهره ما تعود !

تلقت حولي حائراً ، وسألت الشيخ : أين أنت من معشرك الآن ،
فإني لا أراهم إلا كأشباح بلا أجساد ، ومنهم من يبدو كالجماد بلا
حراك ، ترى ما حلّ بهم من نكبات ؟

قال الشيخ ساخراً من جهلي : ويحك ألا تعلم أن لا أجساد وظلال
لأهل النعيم المقيم ، فهم ليسوا كما تتصورهم كالحيوانات من لحم
وعظام وشحم ودم • انهم « ريح وريحان » • ألم تقرأ في أم الكتاب
« فإما إن كان من المقربين • فروح وريحان • وجنة نعيم » •

أجل ان ما يخيّل اليك انك هنا تراه ، ما هو في الواقع إلا
انعكاسات وانطباعات من ذكريات رسخت في عقلك الظاهر ، وصور

من الحياة اختزنها وجدانك الباطن ، فيترأى لك ما يترأى من
أرواح وأشباح !

ألم تدرك بعد ما معنى « ربح وريحان » أيها العاشق الولهان ؟
عندها علمت انه لن ينفع مع هذا الشيخ الذي ما عميت عليه
الأنبياء ، الف والدوران ، فلزمت جانب الصمت ، وغصت في بحران
من الأفكار .

x x x

عقدت العزم على أن أبلغ أعلى قمة في طور الجنة ، وهو طور
لا يشبه طور سيناء الأجرد ، بل انه جبل شامخ أشم ، زاهر أخضر ،
ورحت أتسلق الأعالي ، أملا بلقاء من أهوى ، « وردتي الحمراء » حلم
أحلامي ووحى إلهامي ، ومناط آمالي ، رفيقتي في صباي ونضالي .

كان لا يزال يرن في أذني قول ذلك الاعرابي :

أتمضي وفي كل درب خطاها ترن بأذني كأني أراها

بل كنت أراها كانت صورتها المشرقة الباسمة ، لا تفارق
خاطري ، وتغريدها يرن في أذني كحدوٍ ظاعن في اليد ظمان
ولا يرتوي .

مضيت في ارتقاء الطور ، على هدى من تلك الرؤى الغريبة
الأطياف ، السابحة في عالم اللانظور .

كانت رؤى بلا عيون !

لما بلغت ذروة الطور ، شعرت كأن شيئاً في داخلي يمور ، فبدأت
الأرض تهتز من تحتي وتميد ، وتناقلت لخطاي وأنا أشق الطريق ،
وعندها تذكرت قول شاعرنا الخوري الخضري ، الحلبي المنسي :

لقد صدقوا : اذ انني كنت حاسباً

طريقي طويلاً يقتضي خفة الرجل

ولكن مذ بان لي قصر المدى

تباطأت حتى بت أمشي على مهل

تعاملت على نفسي - ويا ويل نفسي من نفسي - الى أن بلغت
الكوخ الخشبي المبني من جذوع الشجر ، فاذا به كوخى بالذات في
أعلى جبل لبنان الأشم ، وفي مكمن قرب أرزة وارفة الظلال ، فولجته
وقد غمرني الحنين ، كأني عائد من سفر بعيد ، فألفيته خاوياً الاً من
فراش ومقعد وثير ، ومنضدة ومصباح ، ودنٍ وكأس من راح ،
فتهاويت على الفراش ، ألتقط الأتفاس ، من هول الصدمة ، فليس ثمة
«وردة» بانتظاري ولا حبيب ، ولا من سائل ولا مجيب .

كل ما في الكوخ فراغ وخواء !

تساءلت عندئذ : هل كتب عليّ أن أعيش هنا في وحدة قاتلة ،
وفي منتجع وسط ظلمة حالكة ؟
لست أدري هل كنت أهيم وراء شواطئ ذاتي كما قالت شاعرتي

— فدوى بنت طوقان — ذات مرة • الا أن هاتفا ناداني ، يردد
— ياوردتي — عبر المسافات :

لقد رنّ هتافك

يطرق باب أحزاني

يفجر نبع الحياة بجنبني

ويلمس عمق سمائي

• فيا للنداوة •

نداوة صوتك في مسمعي

• ويا للطراوة •

طراوة كلماتك الغاليات

ما زلت أصغي ومع كل كلمة

• تفتح « وردة » •

• بقلبي وتبزغ نجمة •

وراء حدود الزمن !

أشعلت المصباح ، ثم أضرمت النار في الموقد • وعلى شعاع الضوء
الخافت ، رأيت ظلي يتراقص على الحائط ، فأدركت أنني لا أزال على
قيد الحياة ، أتحرك في هذا المشوى ، على جبل الأرز الأعلى •

أفقت شيئاً فشيئاً من غشيتي ، وأدركت من أمري ما لم أكن أدري ، وتلمست ما يحيط بي من أشياء ، فشاهدت أوراقى مبعثرة هنا وهناك ، فلم آبه بجمعها أو إعادة تلاوتها على أية حال .

لما فارقتنى العشاوة - وقد صدقت في الآيه - (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) ، علمت ما خفي من سري وعلني ، وأني في أرضي ووطني ، وتحت سمائي ، وفي ظل شجري ، نظرت الى أوراقى غير مصدق عيني ، أني قُتنت مدة لا أعلم مداها ، وأنني كتبت ودونت ما لاح لي أنه رحلة الى جنة الخلد ، وما جال في خاطري انه انتقال الى عالم الراح والأرواح ، والسماء والطارق ، أو « كوكب الصباح » والنور الواضح !

كنت أرتجف كعصفور بلله القطر .

قمت أسعى الى شيء من القوت أسد به الرmq .

وجدت شيئاً من الطعام في خزانة بالحائط ، فاستعنت به على استرداد بعض نشاطي ، وشعرت بالدماء حارة تغلي في عروقي ، بعد صيام قد يكون استغرق مني أكثر من يومين انهمكت خلالهما بالكتابة بسرعة فائقة ، وقد شغلتنى الفكرة الطارئة ، والذكرى العابرة ، ولهفي على من أحب وأهوى ، عن كل شيء في الوجود ، فلم أشعر بمضي الوقت وهروب الزمن .

لم أعد أحسب الزمن بالثواني والدقائق والساعات .

بل أصبحت أحسبه بنبضات قلبي .

لقد تكشفت أمامي الحقيقة الرهيبة الأزلية ، وأنا في غمرة الشوق ،
وعلى شفا الهاوية •

بدأت أحس بنبضات القلب تدق على مهل ، وفي بطاء قاتل •
فلا الراح عادت عليّ بنشوة • ولا الشرود غدا له عندي معنى •
بل كان الحب هو الحق والحقيقة • الحب وحده هو الراح
والروح ، في كل زمان ومكان •
الحب وحده هو الخلاق ، وفيه يكمن سر الموت والفناء •
هكذا خيل اليّ وأنا أظنر الى ظلي يتحرك على الجدار •

ضحكت ضحكة مرة ، ذلك أني كنت أصدق وهمي ، اني كنت
في عالم غير هذا العالم • وكثير هم من قبلي انظلت عليهم لعبة الخيال
بينهم وبين أنفسهم ، فخدعوا بما أوحى اليهم مخيلاتهم القاصرة ، وما
ألهتهم عقولهم المريضة ، من انهم حقاً قد أسروا في الليل ، ودخلوا
غيابة الغيب ، وتماهدوا بأمر العين ، آيات وصور نعيم وجحيم ، وملائك
وشياطين ، وولدان وحوار عين ، وجنات تجري من تحتها الأنهار ،
فلا ليل ولا نهار ، ولا صباح ولا مساء ، حتى بلغت الخلة ببعضهم ،
أن زعموا انهم تجاوزوا السماء السابعة وأبصروا الأنوار الساطعة ،
وتكاشفوا واتحدوا ، وخاطبوا وتخاطبوا • وكان فريق منهم صادقاً
مصدقاً ما روى للناس ، مؤمناً إيماناً أعمى برؤية من رؤياه !

x x x

لقد نزت دمائي وأنا أعاني ما أعاني ، وجفت عروقي في هروبي
وقيامي ، وولى عهد الهوى وطال النوى ، ولم يبق سوى ذكرى
عطرة ، وفكرة نضرة •

لقد سحق الفؤاد ، ولم يبق سوى الجوى !

هكذا نظرت الى ظلي وحيدا ، أني بعثت من جديد ، في عالم
فريد ، لم أفقد فيه ظلي ، اذ لا ظلال للأحياء في العالم الآخر ، فهم
أرواح بلا أجساد ، كما يقال •

نظرت الى أوراقى المبعثرة ، فألقيت على بعضها نظرة عابرة ، وعندها
أدركت ما كان يتعثر به القلم في وصف ورسم بعض الحالات المهينة ،
والأسرار الرهيبة • فلم يداخلني العجب اذ تذكرت ما كان يسيطر عليّ
من خوف وفزع ، وأنا أخط هذه الرسالة اليك ، خوفاً عليك ، أن
يمسك السوء ، اذا عثر عليها أحد - من أولئك - بين يديك !

ومع هذا وذاك ، فقد جرى قلبي على هذه الصفحات مجرى
النور في الظلم ، وما أعجب شأن القلم ، اذا أمسك به معكم - كما
يقولون - فهو يشرب ظلمة ، ويلفظ نوراً •

ألقيت نظرة على ورقة من الأوراق فوق المنصة ، فقرأتها بصعوبة
وغصة ، فالخط خطي ، ولكن الأسلوب غير أسلوبى ، وعندئذ تنازعتني
شتى الفكر ، هل يمكن للقلم أن يخط بما أعلم ولا أعلم ؟ وأن يث
خلجات الضمير والوجدان ، ولوعة الصب الولهان ، بما لا يخطر
لصاحبه على بال ، فيخرج به من حال الى حال ؟

قرأت السطور التالية كأنني لست أنا بكتابتها :

« يا وردتي . . . يا جنتي . . . يا حلم أحلامي »

ذكرتني بقول شاعر هندي ، عربي ، اغريقي ، فارسي »

لست أدري »

ظل طول رحلة العمر لا يهتدي »

باحثاً عن فردوسه بين الضباب وفوق السحاب »

في الأرض والسماء »

بين أنقاض مدينة الشمس، وأوابد بلد السلام . (١)

ويجري وراء سراب . . .

سراب « إرم ذات العماد » »

(١) مدينة الشمس : تلك التي بناها أرسطو نيقوس عام ١٣٣ ق.م وسميت بمدينة المساواة ، وأرسطو نيقوس زعيم يوناني استلهم من القصص السوري « أيام بولص » مبادئ المساواة بين الجميع تحت الشمس المشرقة ، كما أنه تأثر بفلسفة الرواقيين ، بيد أن حركته سحقت اثر حملة رومانية طاغية عام ١٢٩ ق.م . وكانت تسمى هذه المدينة (هليوباليتان) وترجمتها الحرفية (مدينة شمس المساواة) كما يدل على ذلك اسمها اليوناني في الاصل . ولا تزال آثارها باقية في « قاييق » بأسيا الصغرى ، تشهد على مدى تقدمها في مضمار الحضارة والعمران ، فقد كان فيها مكاتب ومسارح ، ومعارض وقصور . وأرسطو نيقوس هو الذي أعتق جنوده العبيد من نير العبودية . (انظر كتاب « الظواهر الثورية » ترجمة : بشير فنصه) .

- ♦ التي لم يخلق مثلها في البلاد
- ♦ وهي تتحرك مع الرمال
- ♦ « من يجري وراء السراب ، يموت وهو ظمآن »

x x x

- ♦ أما أنا فقد عثرت على جنتي يا وردتي
- ♦ عثرت عليها في نفسي ، في روحي ، في قلبي
- ♦ عثرت عليها في حريتي
- ♦ ولم أعر عليها في أحلامي العذاب
- ♦ وراء السراب
- ♦ ولا بين سطور سفر أو كتاب
- ♦ ففي داخلي يا وردتي يا بسمة الحياة
- ♦ تفجرت يناييعها ، وفاضت الأنهار
- ♦ وفي سمعي تردد همس الجداول وصخب الأمواج
- ♦ وشدو البلابل ، وتغريد الأطيار
- ♦ وأعذب الألحان ، وأروع الأنغام
- ♦ وأمام بصري وبصيرتي :

- مرت الأيام الخوالي ، وتفجرت ثورة الأجيال
- وسطع الكوكب الدرّي ، ولاح نجم الصباح
- وتفطقت البراعم ، وتفتحت الأزهار
- وعبق عبيرها على الدرب وفاح
- وتعانقت الأرواح ، وصفا الراح
- في وجداني وعقلي وخيالي :
- ثارت العواصف والأنواء ، وهاجت الأشواق
- لقد علمتني « ياوردتي » يا جنة حبي كيف أحب
- وكيف أحب الحب
- يا حبي • يا ابنة النور ويا ربة الجمال
- لن أنساك أبدا • هذا محال !

× × ×

نقلت هذه الكلمات ، على هذه الصفحات ، دون تحوير أو تزويق ، فلعلّ ما ورد فيها عفو خاطر ، يعبر بصدق أعمق عن تطلعات فكر حر سادر ، ذلك لأنني لست بشاعر غاوي ، ولا بفارس يقتنص القوافي والمعاني ، ولا بغواص في بحور الشعر الغنائي ، طلباً لما في قعورها من در ولاّلي ، بل جلّ ما في الأمر أنني عشنت مع الناس

والحياة ، فتعلمت بعد طول معاناة ، أن أنطلق حراً في التعبير ، عما
يجيش به العقل والضمير ، وما يخالج الصدر من آمال ، وما يكنه القلب
من آلام ، وما تفرضه التجربة من أقوال وأفعال ، فأرسم صور الواقع
كما رأيتهما وخبرتها ، وكما مرت سلسلة التجربة التاريخية على من
مضوا قبلي ، لا كما يفرض عليّ أن أراها ، أو يوحى إليّ بها • فمن
روح هذا الواقع أنشد الحقائق ، وأسمو فوق النوافه !

x x x

أصحاب الكهف والرقيم

« لم يبق غير عداء وبغض
وفتك الأشقاء بعضاً ببعض
إلهي . إلهي . لماذا وماذا
جرى لك يا خير شعب وأرض . »
الشاعر القروي

سمعت طرقاً قوياً على الباب ، فأذنت للطارق بالدخول ، فاذا بنفر
من الشبان والشابات يتوافدون ، يغطي هاماتهم وكسوتهم نديف
من الثلج .

قال أولهم : لقد هبت علينا عاصفة هوجاء ، فجننا اليك ملتجئين
مستجيرين بعد أن ضلنا الطريق .

قلت : على الرحب والسعة . بينت الضيق يتسع لألف صديق .

(١) الرقيم : جاءت في القرآن الكريم « ان أصحاب الكهف
والرقيم » . والرقيم قيل هو لوح فيه أسماءهم وقصصهم . وعن ابن عباس :
ما أدري ما الرقيم أكتاب أم بنيان ، ومهما قيل في التفاسير ، فهو ينطبق
كذلك على رسوم والواح .

نفضوا الثلج عن مناكبهم وأطرافهم ، واقتربوا من الموقد
يصطلون ، يفركون أيديهم ويدبون ويتراقصون ، ويدمدمون
ويتضحكون ، فأنتست بهم ، وسررت لوجودهم في كوشي ، فقد كان
مرآهم وهم على هذه الحال ، من مرح وانشراح ، يبعث الأمل في
نفسى ، ويحيى ميت الذكريات في خاطري • ذكريات الصبا والشباب •

كست الثلوج النافذة الوحيدة في الكوخ ، وازدادت العاصفة
عتوا وهبوا ، واشتدت الريح صريراً وأنيباً •

التقط أحدهم ورقة من أوراقى المبعثرة ، وطفق يقرأ ما خُطَّ
عليها بصوت عال ، ثم قهقه وناولها الى قرين له وقال : خذ وقرأ
ما يقول هذا الشيخ المتفانى •

اجابه الآخر بنزق : لقد أقسمت أنى لن أقرأ شيئاً ، ولن أفتح
كتاباً بعد تخرجى من الجامعة • لقد كفانى ما قرأت وحفظت في الأيام
الغابرة •

وهنا انبرت له فتاة سمراء وقالت ساخرة : حتى ولا مجلة الشبكة
أو الكواكب أو « البلاى بوى » الفاسقة ؟

رداً عليها أحدهم شططاً ، كأنه يبصق الكلام بصفاً : هكذا نحن
طلائع « الأبتلجنسيا » الأذكىاء ، لانؤمن بفلسفة ولا مبادئ ولا كتاب ا

أجابته ضاحكة : بل أتمم طلائع « الجهالة الفاشية » ، و« الرعونة
القاسية » •

التقط فتى آخر ورقة من على الارض ، وراح يقرأ ما جاء فيها
بصمت ، ثم التفت الى صحبه وقال :

— والله اني لم أفته حرفاً مما خطه هذا الشيخ على الورقة •

وتناول الورقة شاب كان يبدو انه أكبرهم سناً ، وأنضجهم عقلاً ،
فقرأها بإمعان ، ثم قال ضاحكاً :

— ان شيخنا الهمّ المضياف ، يعتقد على ما يظهر كما يعتقد أحد
الشعراء الفرنسيين المنسيين ، أنه قد دمج الأبدية في الآنية ، أو الآنية
في الأبدية ، والصوفية في الشهوانية ، والشهوانية في الصوفية !

وامتدت يد فتاة حسناء الى ورقة أخرى من أوراق المتناثرة ،
وراحت تتلوها كما لو كانت تلقي خطاباً من أعلى منبر في حشد كبير
من الناس • وقاطعها بعد قليل أحدهم ساخطاً متبرماً مما سمع :

— هراء ••• في هراء ••• يبدو ان شيخنا الفاضل ، يعتقد في
قرارة نفسه انه المبشر بالحرية والديموقراطية ، والعدالة الاجتماعية ،
والحقوق الانسانية ••• انه يتحدث كما تتحدث الصحف والاذاعات
العربية ••• لقد سئمت أنفسنا ، ومجت أذواقنا ، هذا الترديد الممل
لشعارات أكل الدهر عليها وشرب ••• ألم يعلم سيدنا الشيخ ان الحرية
أصبح معناها عندنا حرية القتل والنهب والسلب • وان الديموقراطية
معناها ديموقراطية الابتزاز والاستغلال ، والاتجار بالضمائر والأوطان
والأديان • وان الحقوق الانسانية معناها أن يسحق المواطن أخاه في
الوطنية والعروبة والانسانية ، ويفاخر بذلك على رؤوس البرية •

صراخت في وجوههم جميعا : لا •

فتضاحك الكل مني ، وقال كبيرهم : لأول مرة نسمع من يقول لنا : لا ••••• أسمعتم الى هذا الشيخ الشائر انه يقول « لا » ، ونحن الشبان أبناء الجيل الصاعد لا نستطيع أن نقول لأحد من الزعماء ، وفي عهد من العهود ، أو في يوم من الأيام « لا » ، فالمجد والخلود لزعمائنا العظام والموت والسحق لأعدائهم اللئام !

وعادوا الى ضحكهم وعبتهم ، يرقصون رقصة الحرب ، وينغنون وينشدون ، ثم يتنازرون في الألقاب والزعامات ويعربدون •

بعد برهة تقدم مني أحدهم وكان منفوش الشعر محمر العينين ، وخاطبني بصوت تتخلله نبرات التهديد والوعيد :

— اسمع نحن لا نأتمر الا بأمر الزعماء ، ولا نستمع الى أقوال الأدباء والشعراء •

سألته : ومن هم زعماءكم هؤلاء ؟

قال : كل عشرة عليهم زعيم ، وكل واحد من العشرة زعيم ! ولكل عشرة دولة واذاعة •

قلت : والله هذا أمر عجيب ، لم أسمع بمثله لا في القديم ولا في الحديث ، اذن هذا معناه أنكم كلكم زعماء ، وليس بينكم دهباء أو غوغاء ؟

أجاب مغترأ : هذا هو الواقع بالتمام والكمال • نعم نحن كلنا زعماء والحمد لله •

سألته متعجباً : وأين الشعب ؟

قال باستهزاء وازدراء : أي شعب تعني ؟ أذلك الذي يطلقون عليه « بالأغلبية الصامتة » ؟ انهم اليوم أصبحوا من أصحاب الكهوف والأقبية والسراديب والدهاليز ، ينتظرون الفرج ، فاذا تحرك أحد اقتنصناه ، واذا احتج زحناه •

قلت متحسراً : اذن هكذا حكموا على شعب آمن بالاعدام •

قال متبرماً من كثرة السؤال والجواب : قل ما تشاء ، فما لأمثالك بيننا مقام •

لزممت الصمت ، وناجيت النفس : اذن لا حياة لمن تنادي •

الآن انه لما اشتد صخبهم وضجيجهم ناديتهم بأعلى صوتي : ألم يبلغكم ما قاله في أمثالكم شاعر « البربراة » الشاعر القروي ؟ (١)
قالوا جميعاً بصوت واحد : لا ، ماذا قال ؟

قلت :

لقد ذبح الأرز ذبح الخروف وفرت حمائمه بالألوف
بكل سماء وأرض تطوف وكم من رفوف أوت للكهوف

(١) هو الشاعر المهجري الملهم رشيد سليم الخوري ، وقد عاد الى مسقط رأسه في قرية البربراة وقال هذه المقاطع من الشعر بعد معاناة مريرة ، ورحلة طويلة .

وقوله :

أكلّ البلاد خراب ونهب أكلّ المطارح ساحات حرب ؟
شياطين قنص على كل سطح ملائك صرعى على كل درب ؟
فلا بسمة من أخ لأخ ولا صلة بين شرق وغرب ؟
فهل ذهب العقل من كل رأس وهل نضب الحب في كل قلب ؟

قال كبيرهم : لم نسمع شيئاً من ذلك •

لهم أكتهم هذه المرة رأيي فيهم فنادينهم : اذن لا حياة لمن تنادي •

ردعليّ من هو أصغرهم سنّاً على ما يبدو وقال ببراءة الأطفال :

أية حياة تعني ؟ ألا تعلم أنك لست من الأحياء ولا الأموات ! •

أجبت مصداقاً قوله : صدقت والله أيها الصغير ، فإني لا أزال

أجهل حتى الآن أمن الأموات أنا أم من الأحياء •

x x x

رأيت صبية بينهم في عمر الزهور ، تنتزع عن رأسها الصغير

طاقية صوف ، فيتهدل شعرها الذهبي الطويل على كتفيها ، وسمعتها

تهتف في الفتية الهائجين المائجين :

— دعوا للهو والعبث قليلاً ••• يا أحبائي ويا أخوتي وأخواتي ،

ولا تتسرعوا في الأحكام على الناس كما تسرع من قبل جمال السفاح ،

ومن جاء بعده من الطغاة ، فلا تحكموا بالاعدام على كل من قال كلمة ،
أو كتب مقالة ، أو عبر عن رأي أو طرح فكرة •

فلم يلتفت إليها أحد من تلك الزمرة ، فتركتهم الحسنة لشأنهم ،
ومضت تجمع الأوراق المبعثرة ، وتضمها حسب تسلسلها الى مصنف
كان ملقياً على المنضدة ، ثم جلست بجوار الموقد تطالعها بدقة •

وخرج كل واحد من الشردمة من جعبة يحملها على كتفه ، طعامة
وشرا به ، وقدم اليّ أحدهم كأساً مترعة من « الجن » فشكرته على
حسن صنيعه ، ووضعت الكأس أمامي دون أن تمسها شفتي ، إذ لم
تعد « جن » المدام لتوقظ فيّ ميت العواطف والأحلام • وشغلت
عنهم بتأمل تلك الحسنة الشقراء التي جمعت تلك الأوراق التي كتبتها
بدمائي ، وأنا في شبه غيبوبة أو استغراق ، وقد أمسيت في أشد اللهفة
لسماع أحد من الناس ليعبر لي عن رأيه فيما كتبت • أكنت على
خطأ أم على صواب ؟

تأملت محيا الفتاة ملياً ، وهي تقرأ بدأب على ضوء المصباح ونار
الموقد ، فأذهلني الشبه الغريب بينها وبين « وردتي » الحمراء ، لولا
هذا الفارق البسيط بين نظرات المرأتين •

كانت تشع من عيني « وردة » في ماضيات الأيام نظرات ملؤها
العزيمة والمضاء ، وينبعث منهما سناء ورواء ، أما هذه الحسنة ، فكانت
نظراتها حاملة ناعسة ، توحى بالخوف من المجهول ، وفيها معانٍ من
مدلة وانكسار وانطواء •

ثم هنالك أمر مروع ، لا مهرب منه ولا مفر ، ألا وهو العمر والدهر ، فمهما جمدت عدسة العين من صور الجمال في الحياة ، في لحظات خاطفة ، ومهما ظلت تلك الصور والآيات الجمالية عالقة في المخيلة ، غارقة في الوجدان ، خالدة على مرّ الأيام ، فإن الواقع المتجدد على الدوام ، يبذل أهل تلك الصور من حال الى حال ، فيعمل الزمان عمله ، ولا يرحم شاباً غض الأهاب ، ولا جمالاً يسحر الأبواب .

لقد تفتحت « وردتي » معي ، في ربيع عمري ، فكانت جنة لخليدي ، ومناي وأملي ، أما تلك الحسناء القابعة قرب النار ، فهي برعم لم يفتح بعد ، وتجسيد للجمال الى الأبد ، ونصر للحياة على الموت ، أبد الدهر ، ورمز للتجدد كالزهر في كل ربيع من العمر .

مرت بخاطري ذكرى ابنتي « سعدى » وتساءلت بيني وبين نفسي ما الفارق بين هذه الفتاة التي تذخر بالصبا والحياة ، وابنتي لو كانت معي آنذاك ؟

عندئذ شعرت نحوها بعاطفة من الأبوة خالصة ، وتمنيت من صميم القلب أن تكون هي الأخرى ابنة لي اذ ليس ثمرة ما يمنع أن تكون هي بالذات ابنتي « سعدى » وأنا من زعم ان الانسانية أسرة واحدة .

تلك هي الملهاة المأساة ، تمثل على مسرح الحياة ، كل اصباح وامساء ، مع تداول الأيام وتوالي الفصول ، وكر الأعوام .

هجس في صدري هاجس غريب ، وأنا قابع على الأريكة أرنو الى تلك الفتاة الفاتنة بنظرة ساهمة ، بين فينة وفينة ، : هل يعقل أن تكون

وردة كما حدثتني أنت ذات مرة ، عن تلك الأسطورة ، فجاءتني هذا
المساء على أحسن صورة ، متجاوزة الزمن ، متحدية الأيام ولكن
أليس في الأسطورة اليونانية القديمة ، في قصة المرأة التي تجدد جلدتها
مع آلهة البحر ، كلما غاصت في الأعماق ثم طفت على السطح ، ما يرمز
الى تجدد الحياة بالذات ، فاخترع الانسان تلك الأسطورة ، ليخفي
عجزه عن ادراك السر في الفناء والزوال ؟

الآن اني رأيت في هذا النوع من التفكير ، اغراقاً لا مثيل له في
الخيال ، من انسان أصبح غريباً عن الوجود ، ضارباً في متاهات
اللامعقول ، هارباً من الواقع المجنون . ؟

راودني خاطر غريب آخر : قلت في سري لعل هذه الصبية الجالسة
أمام النار ، تلفها هالة من نور ، جاءت كبعث جديد وضاء للحياة ،
حتى لا تفقد الحياة معانيها ، ولا تفتى معالمها ، ولا يزول رواؤها .

تفاءلت بوجودها قربي في هذا الكوخ وهي تقرأ وتقرأ ، وانتظرت
بصبر ما سوف يصدر عنها من حكم أو رأي .

لعلني كتبت ما كتبت ، من حق أو غي ، وأنا سادر في عالم
اللاوعي ، فحق عليّ عندئذ تقبل أي نقد أو رأي . ، فان وجدت فيه
ما لا يرضي ويسر ، مزقت أوراقه ، وان طربت لما سوف يردد علي
سمعي من أنه قول حق وتبصر وتجربة وعلم ، حسبت انه قول أحد
غيري !

لما انتهت ابنة النار والنور من تلاوة القصة ، وطوت آخر صفحة
من صفحاتها الممزقة ، أطبقت جفنيها على ما يشبه الحلم ، ثم أفاقت بعد

قليل ، ونظرت اليّ نظرة ملؤها الأمل والثقة ، وقالت ببراءة الأطفال
قولاً لا يزال يرن في أذني :
« إن لم تجد من تحب في الأرض ، فلن تعثر عليه في السماء ! »

x x x

سرت خمرة « الجين » والجنون ، في أوصال الفتية الأشداء ،
فاتشوا نشوة الصناديد الأقوياء .

ودار بينهم جدال وحوار فاشتد بهم الخوار ، في أيهم ينبغي أن
يكون الزعيم المختار . وكان كل واحد منهم يحمل سلاحاً ، وقابل
وذخائر وعتاداً ، يهدد ويتوعد ، ويرغي ويزبد .

ولما احتدم بينهم الجدال ، الى غير وفاق وسلام ، - وهذا أمر
بداهي معروف لدى كل المتخاصمين المسلحين - عمدوا الى استعمال
السلاح ، ذلك ان « الاقتلجنسيا » العربية عندنا على ما بدا لي
واتضح ، متسلحة بالرصاص والقنابل ، بدل الفكر الحر والمنابر ،
والكتب والصحف والمطابع والمحابر ، فافتتحوها في الكوخ جبهة قتال ،
ودار بينهم صراع وقرال ، وقبل أن يفتك بعضهم ببعض فتكاً ذريعاً ،
ويدكوا أركان البيت دكاً شنيعاً ، أفلت أنا والفتاة الشقراء الصغيرة ،
من مخالب تلك الوحوش البشرية المتصارعة ، وغادرنا البركان الى باحة
في الغاب ، ووقفنا بعيداً نرقب سحب الدخان ، وهي تتصاعد من
الكوخ المتداعي المنهار .

x x x

لقد اندلعت النار في الدار ، كما عمّ من قبل الخراب والدمار ،
في سائر المنازل والديار ، وبذلك صدقت رؤية شاعر « البربارة » ، تلك
الرؤية الصادقة المصدقة ، فأمسكت بيد فتاتي الباكية المستجيبة ،
وهبطت بها الى الوادي الظليل السحيق ، بعيداً كل البعد عن
هذا الحريق .

سألتهما ونحن على الطريق : الى أين المسير ؟

قالت وهي تكفكف الدموع : لا أدري لم يعد لي أب أو أم
أو صديق أو نصير . لقد دكوا منازلنا دكاً ، وفتكوا بكل من فيها
فتكاً ، بلا ذنب ارتكبوه ، ولا إثم اقترفوه . كنت خارج الدار آنذاك
فضمني اليهم أولئك الأشرار ، في رحلة الى جبل النار ، لقتل الوقت
والعبث واللهو باشعال الحرائق - وتلك آفة كما هو معلوم تحل بمن
مستهم الخوارق - بلا سبب أو مبرر أو وازع ، الا ارضاء لنزوات
وايحاءات طائفية جمعية ، ونوبات عصبية جنونية معدية ، كما رسمت
وفق مخططات جهنمية ، ومدروسة دراسة محكمة سيكولوجية ، بعد أن
ذهب العقل من الرؤوس ، ونضب الحب في القلوب .

ولما بلغت واياها مفترق الطرق ، قرب المدينة المشتعلة باللهب ،
استردت يدها من يدي ، وقالت مودعة بخفر وخجل :

- لقد تركت أوراقك المبعثرة في نفسي أطيب الأثر ، فلن أنساك
أبد الدهر . . . لقد علمت من أمرك ما لا تعلم ، ولسوف أتابع طريقي
وحددي مهما صادفت من عناء وعنت ، فلا بد من مواصلة المسير ، ولو
أنني لا أدري بعد الى أين المصير !

سألناها هل عندك شيء من الزاد على الدرب ؟

قالت : لا أملك شيئاً سوى الأمل ، فأنا أعيش مثلك على أمل اللقاء بمن أحب ويحب ، فإذا عثرت يوماً على « وردتك الحمراء » الضائعة ، فأقرئها مني تحية حب صادقة . تذكر أيها الصديق قول شاعرنا على الدوام : ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

وغابت بنت الجيل الجديد عن ناظري كطيف حلم من أحلام الربيع .

تلقت قليلاً الى الورا ، فرأيت خيط دخان ، يتصاعد من أعلى جبل النار ، الذي كان يوماً موئلاً وعلماً للأحرار .

x x x

بلغت كهفي القريب من هذه الدار ، بعد أن أضناني السير والترحال ، ، فرقدت فيه رقدة لا أعلم كم استغرقت مني من الوقت، بيد أنني صحت في آخر الأمر وأفقت ، فعكفت على الفور ، على رسم ذلك الرقيم الباهر ، على ضوء الشمعة الباهت ، وسميته - كما تعلم - « لوح السعير » ، وكان من المتعذر عليك ان لم أقل من العسير ، فهم ما انطوى عليه من خيالات ضائعة في ظلمات الغيب ، ومن رؤى حمراء كضوء الشفق ، ذلك انه كان رمزاً لا اغراق فيه و لا ابهام ، في تصوير وقائع لا يدركها الا أهل « التقيّة » من شر شرعة الغاب والهجمة الوحشية . وكان انفعالي في رسمه كاتفعال انسان العصر الحجري ، فيما رسم على جدران كهفه الصخري ، اثر عودته كل مرة من صيده

وقنصه ، وجريه وراء فريسته وصراعه حتى الموت من أجل بقائه
ولقمة عيشه !

فهل أدركت الآن سر كهفي ورقيمي ؟

لقد ذبحوا يا صاح ، كل شعب ، ونهبوا كل أرض ، وقتلوا كل
فكر ، فطغى الجنون على العقل ، ولهذا لم أجد لي مأوى وملاذاً غير
هذا المعقل ، وهكذا أصبحت الى حين من أصحاب الكهف !

ثم لاح لي أن أقوم بتجربة أخرى فريدة من نوعها ، فأرسم لوحة
تمثل طلعة وردتي الحمراء التي افتقدتها كما يفتقد البدر في الليلة
الظلماء ، وأجعل وجهها الوضاح الوضاء ، ينطق بآيات من الجمال ،
جمالها الحي المعبر عن أسمى مشاعر الانسانية ، الفياض بأنبال الأحاسيس
الوجدانية ، جمالها الأخاذ بمجامع القلوب ، الفضاح لما يمور في
النفوس ، من فوران وتأجيج وتطلعات ورؤى عميقة الجذور ، ولكني
ما ان مضيت في الرسم الى حين ، حتى تبين لي من خلال الألوان
الممزوجة مزجاً خفياً ، صورة تكاد تشبه وجه المونوليزه شهباً غيبياً ،
في إطار الجوكندة ذات الابتسامة البهاء ، والنظرات الحاملة العمياء ،
فعاودتني تلك الصدمة في عمل دافينشي الخالد ، وما منيت به من ياس
قاتل ، في حبي الأول البائد ، لمن كانت تشبهها في الظاهر ، وعندئذ
أدركت أن ريشتي عجزت كما عجز قلبي من قبل ، عن تصوير أو رسم
ما أهدف اليه في أن أدع الوجه ينطق بما في داخل النفس ، من براءة
واشراق وطهر ، وصفاء وجلاء وصدق ، فأين مني هذا السر ، وقد
تبدت لي اللوحة على هذا الشكل ؟ !

شعرت بعث ما أقدمت عليه من تجربة مرة فاشلة ، وعاودني
الدوار مرة ثانية ، فأمسكت بالريشة وغمستها بألوان بين فاتحة وقانية
— على طريقة بيكاسو العابثة ودالي الساخرة — ولطمت بها اللوحة
عدة لطمات ، مستخفاً بذوقي قبل استخفائي بأذواق من قد يشاهدها
من الناس بعدي ، وقلت هازئاً في سراي : ليقولوا انها رسم سريالي !

لقد داهمني فزع غريب ، اذ ما استغرقت في الغوص في أعماق
النفس الانسانية ، أن تصدر عني صور كنتك التي تفتحت عنها عبقرية
فإن كوخ المجنون ، أو غوية الموهوب المأخوذ بخفايا النفوس ، أكثر من
السمات الجمالية والظواهر السطحية ، الطافية على الوجوه البشرية .

قدفت بريشتي بعيداً الى زاوية من الكهف ، وقد عقدت العزم
على ألا أعود ثانية الى رسم « وردة » في لوحة أو رقيم ، فلتنظر
صورتها خالدة أبداً في المخيلة والضمير ، ولتبقى هكذا في الأذهان رمزاً
للحب والحنين ، فالألوان والخطوط عاجزة عن الوصف والتعبير ،
لحقيقة معالمها وسماتها ، وروائها وسنائها .

ثم أتى لي أن أتسم من لوحة جامدة ، باهتة صامتة ، عطر
وردتي الفواح ، وأريجها المنبعث مع نسيمات الصباح ، العابق في
حديقتي كل مساء !؟

ليس لوردتي الحمراء صورة رائعة الجمال والحسن ، انطبعت
في ثنايا العقل ، وبين الضلوع وفي صميم القلب وحسب ، بل ان
لذكارها شذى لا أزال أنتشقه في غدوي ورواحي ، ويقظتي ومنامي .

كم ألهمتني ذكراها هذه العطرة ، أفكاراً وأعمالاً خالدة ، وكم
أضأت أمامي الدروب المظلمة ، وفتحت أمام بصري وبصيرتي آفاقاً
كانت لولاها مغلقة .

ولهذا ، فليرسم الفنانون ما شاء لهم فنههم أن يرسموا ، وما أوحى
به اليهم عبقريتهم أن يلونوا ، من صور حية في الطبيعة ، وما في الطبيعة
من خلق وابداع ، وصور جمالية انسانية وأشياء وأشياء . . . الا أنهم
عاجزون عن تصوير أو وصف « مثل أعلى » في صورة انسان !

وكذلك شأن الكتاب والأدباء والشعراء .

لا عجب فيما أقول ، فقد أثبتت التجربة التاريخية ، في التحقيق
بمخلفات صور وأوصاف الآلهة والرسل ، انها جاءت مشوهة أو ناقصة
أو غير كاملة ، بما لا يتفق وطبائع الأشياء ، وما فطر عليه الانسان من
تخيل واسع لا حدود له ولا مكان ، وبما لا ينسجم وتطلعات الانسانية
الماضية أشواطاً الى الأمام ، في تطور دائم خلاق بناء ، متغير متبدل
بتبدل الفكر ذاته في كل زمان ومكان .

x x x

وأخيراً يا صاح ، يا من كنت تحمل المصباح في وضوح النهار ،
لا أجد بدأ من الاعتراف والافصاح ، في خاتمة هذا المطاف ، بين أطراف
الماضي ، وأرواح العصور الخوالي ، وبين ما شهدت وخبرت من وقائع
الحاضر ، وما ألهمني راح الصبا من رؤية ذات أنجم زهر ، ومستقبل
مشرق كله سناء وبشر : ان قلبي عاجز عن الوصف والايضاح ، عما

كان يشع من عيني « وردتي الحمراء » من نور الفتنة والسحر والإلهام ،
وعما كافت تنطق به أساريرها من ألق الخير والنبيل والجمال ، كما
عجزت ريشتي عن رسم ما انطوت عليه ابتسامتها الغامضة ، ونظرتها
الحائلة ، من آمالٍ ومعانٍ وإشراقٍ • فلا اللغة ولا الألوان ولا الظلال ،
بصالحة للتعبير عما يختلج به صدر انسان ، أو يمور في داخله وعقله
من أحاسيس ومشاعر وغليان •

لتظل اذن رسالتي هذه « رسالة الراح والأرواح » رسالة غير
كاملة في هذه الأيام •

ومن يدري ؟ فقد يأتي من بعدي من يسد ما فيها من نواقص
وثغرات ، غير هباب ولا وجل من نازلة قد تحل من النازلات ، أو زلة
قد يتعر بها من الزلات ، فيتابع أثرها في سعيه الحثيث نحو الكمال ،
كما اقتنيت أنا أثر أبي العلاء - قدس الله سره وأبراه وأعلاه - في رسالة
الغفران ، فربّ أحدهم قد يبلغ بعد ألف من السنين أو يزيد الثريا
والجوزاء ، ويرقى كواكب وجنات ، غير تلك التي تراءت لصاحبي
رهين المحبسين ، أو كتلك التي تراءت لي أنا بالذات ، جنات لا نخيل
فيها ولا أعناب ، ولا حور ولا ولدان ، بل أشياء وأشياء في عوالم
عرضها الأرض والسماوات ، لم تخطر لنا اليوم على بال ، مهما اشتط
بنا الوهم والخيال •

ثم من يدري ؟ فقد يأتي بعدنا من يسخر مما أتينا عليه من لغو
القول وسحر البيان ، وما مسنا في أواخر هذا الزمان ، من وهم ووهن
وهذيان - على حدّ تعبير فيلسوف معرّة النعمان - مولانا الشيخ

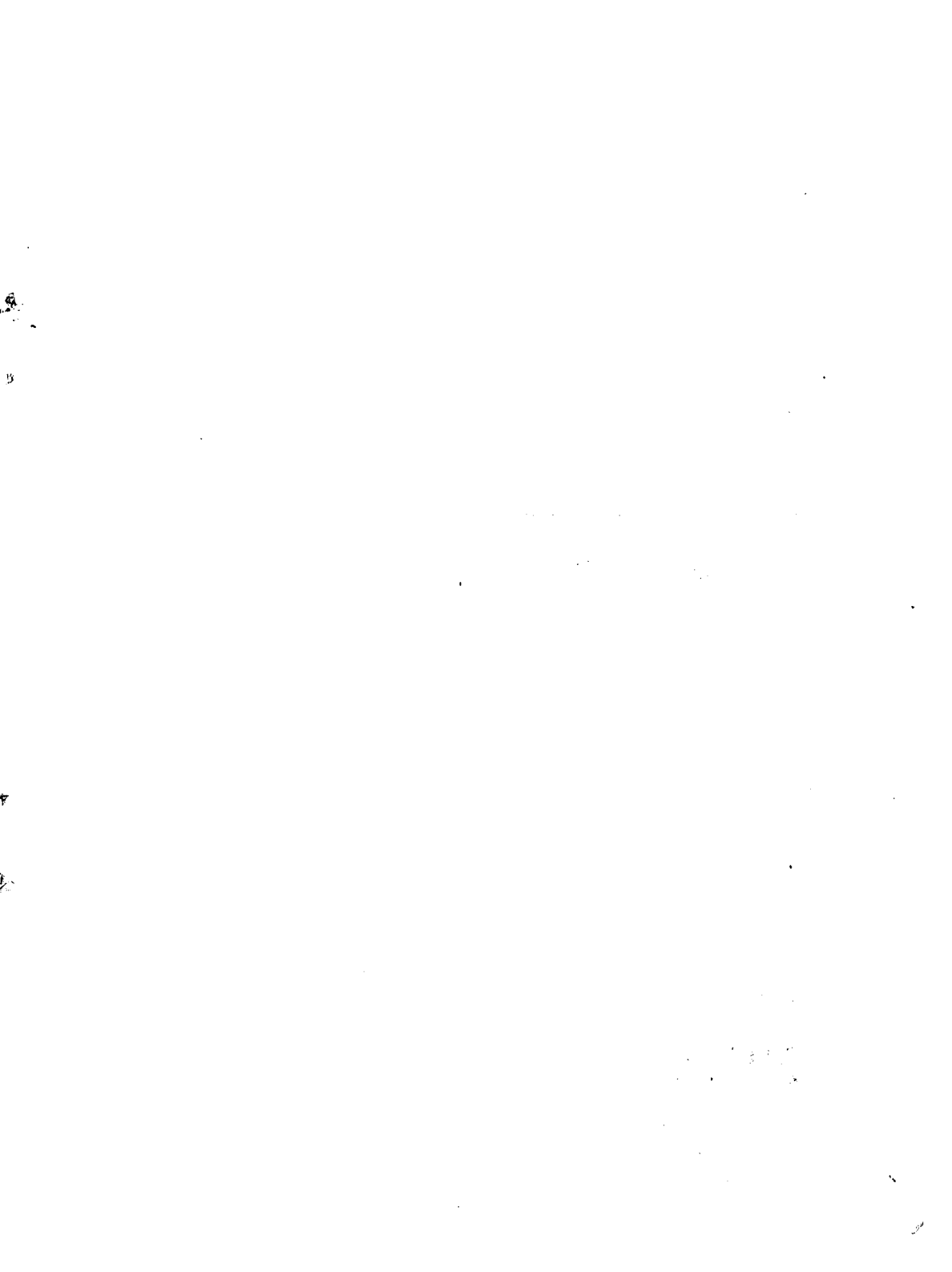
التنوخي علم الأعلام ، الذي غضب لقوله الحق أو ما رأى انه حق
الثقلان !

x x x

أما أنت يا وردتي الحمراء ، يا أمنية تاقت اليها الأنفس والأرواح ،
سواء أكنت في الأرض أم في السماء ، أبعث اليك بهمسة وداع ، مع
كل نسمة في الاصبح والامساء ، مردداً قول شاعر الحب والجمال :
أمنية ظفرت روجي بها زمناً

واليوم أحسبها أضغاث أحلام !

أمين



فهرس المحتويات

صفحة	
٧	الأمواج
٣٥	السوردة الحمراء
٧٧	الصراع
٨٣	الرحيل
٩٧	رسالة الراح والأرواح - الجزء الثاني
١٠٥	ارم ذات العماد
١٦٣	ذكریات على الدروب
١٩١	في جحور الهامشية
٢٢٣	أصحاب الأخدود
٢٥٩	الأيدي المقطوعة
٢٦٣	وجد وحنين
٢٨١	جزيرة الأحلام
٣٢٧	بمث جديد
٣٤٣	أصحاب الكهف والرقيم

صدر للكاتب

* برج الصمت (قصة تاريخية) - بيروت

* النوافذ المعلقة (قصة حديثة وثائقية) - بيروت

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٨١

العدد	المؤلف	المادة	اسم الكتاب
٦٠٠	عبد الكريم النام	شعر	١ - فنود
٥٠٠	حسين حموي	شعر	٢ - قابيل وسفر البحر
٥٠٠	بندر عبد الحميد	شعر	٣ - مفامرات الاصابع والعيون
٥٠٠	هاشم شفيق	شعر	٤ - اقمار منزلية
٥٠٠	شوقي بغدادني	شعر	٥ - قصص شعرية قصيرة جداً
٧٠٠	عبد المعين الملوحي	دراسة	٦ - الادب في خدمة المجتمع
٢٠٠	طالب عمران	قصص	٧ - ضوء في الدائرة المعتمة
٧٠٠	قمر كيلاني	رواية	٨ - طائر النار
٦٠٠	زكريا شريقي	قصص	٩ - قل يا بحر
٥٠٠	الياس زحلوي	مسرحية	١٠ - وجبة الاباطرة
٧٠٠	رضا رجب	شعر	١١ - الممكن والمستحيل
١٢٠٠	علي فقلة عرسان	دراسة	١٢ - الظواهر المسرحية عند العرب
٥٠٠	علي سليمان	شعر	١٣ - نقوش وكلمات
٦٠٠	الميلودي شفيق	قصص	١٤ - سفر الطامة
٥٠٠	عادل محمود	شعر	١٥ - ضفتاه من حجر
٥٠٠	نيروز مالك	قصص	١٦ - كوب من الشاي البارد
١٢٠٠	سليمان الصيسى	شعر	١٧ - دفتر النثر
٦٠٠	ملاحة الخاني	قصص	١٨ - المعربة بلا جواد

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٨١

العدد	المؤلف	المادة	اسم الكتاب
٤٠٠	عادل ابو شنب	مسرحية	١٩ - اغتيال ملك الجان
٧٠٠	جلال فاروق الشريف	أفكار فلسطينية في الفكر السياسي	٢٠ - أفكار فلسطينية في الفكر السياسي
٨٠٠	محي الدين صبحي	شعر	٢١ - دراسات كلاسيكية
٥٠٠	ممدوح السكاف	شعر للأطفال	٢٢ - شواطئ بلادي
٥٠٠	صالح هوارى	شعر للأطفال	٢٣ - عصافير بلادي
٧٠٠	محمد جمال باروت	دراسة	٢٤ - الشعر يكتب اسمه
٨٠٠	وليد اخلاصي	مسرحيتان	٢٥ - عن قتل المصافير
٥٠٠	نزير العظيمة	شعر	٢٦ - زمن الفرات يتألف في القلب
٦٠٠	محمد امين صالح	مسرحيتان	٢٧ - التاريخ لايشمل الجميع
٧٠٠	عبد المعين الملوحي	دراسة	٢٨ - الادب في خدمة المجتمع
١٠٠٠	يوسف عبد الاحد	دراسة	٢٩ - جبران في آثار الدارسين
٨٠٠	يوسف اليوسف	دراسة	٣٠ - ماالشعر العظيم
١٢٠٠	عبد الله ابو هيف	دراسة	٣١ - فكرة القصة
٥٠٠	نزار نجار	قصص للأطفال	٣٢ - حكايات اباد
١٢٠٠	خالد محي الدين البرادعي	شعر	٣٣ - الحب لفتي
٧٠٠	صالح درويش	شعر	٣٤ - لو تفتحني لي قلب البحر
٥٠٠	أكرم شريم	قصص للأطفال	٣٥ - ممتاز يابطل

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٨١

السعر	المؤلف	المادة	اسم الكتاب
٥٠٠	جان الكسان	رواية	٣٦ - الخوت والزورق
٧٠٠	محمد أبو خضور	السورية	٣٧ - دراسات نقدية في الرواية
١٤٠٠	أديب عزت	دراسة	٣٨ - أدب عربي معاصر / ج ٢
٧٠٠	د. شريف شاكور	دراسة	٣٩ - واقعية ستانيسلافسكي
٥٠٠	زهير جبور	قصص	٤٠ - الوقت
١٠٠٠	محمد موفكاو		٤١ - مخفارات من الشعر الالباني
١٤٠٠	دريد يحيى الخواجة	دراسة	٤٢ - الصفة والمسافة
٨٠٠	فريد جحا	دراسة	٤٣ - من حديث القلب والعقل
٩٠٠	سهر روهي الفيصل	دراسة	٤٤ - مشكلات قصص الاطفال في سورية
٨٠٠	عبد المالك مرتاض	دراسة	٤٥ - الثقافة العربية في الجزائر
٨٠٠	عدنان بن ذريل	دراسة	٤٦ - في الدلالة اللغوية
٨٠٠	د. عبد الرزاق جعفر	قصص	٤٧ - المتسكع
٨٠٠	محمود الصغري	دراسة	٤٨ - قضايا في التراث العلمي العربي
١٣٠٠	بشير فضة	رواية	٤٩ - رسالة الراح والارواح

طبع في :

مطبعة الكاتب العربي

دمشق - شارع خالد بن الوليد

هاتف : ١١٩٧٣٨

١٩٨١/١٢ - ٢٠٠٠



منشورات اتحاد الكتاب العرب

السعر ١٣ ليرة

مطبعة الكاتب العربي - دمشق